سلسلة تصدر عن مجلة البيان



دمعة على التوحيد

حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة

كتاب المنتدى

دمعة على التوحيد

(حقيقة القبورية وآثارها في واقع الأمة)

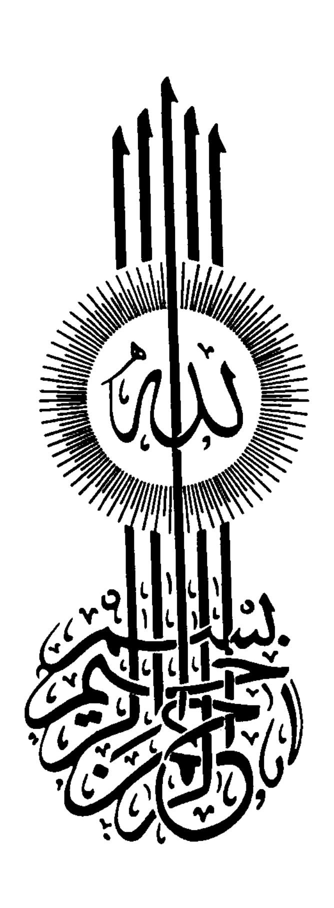
الموضوع	اسم الكاتب
فسطاط الخرافة.. الجذور والواقع	خالد محمد حامد
الأضرحة في العالم الإسلامي (مشاهدة متفرقة)	(مندوبو مجلة البيان)
من لهذه الوثنية المتعددة؟	إسماعيل بن سعد بن عتيق
أفيون الشعوب الإسلامية (النتائج والآثار)	خالد أبو الفتوح
قبس من الظلمات (ما وراء الطقوس)	خالد أبو الفتوح
انحرافات القبوريين.. الداء والدواء	د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف
عاصفة الأوهام (عوامل الاستمرار)	خالد محمد حامد
سيف السياسة.. بين نصرة الحق.. ومظاهرة الباطل	عبد العزيز مصطفى
دمعة على الإسلام	مصطفى لطفي المنفلوطي

ح المنتدى الإسلامي ١٤١٩هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
المنتدى الإسلامي (الرياض)
دمعة على التوحيد
٢٢٠ ص؛ ١٧X ٢٤
ردمك: X ٢٠٠ - ٩١٣٥ - ٩٩٦٠
١ - العقيدة الإسلامية - التوحيد أ - العنوان
ديوي ٢٤٠ ١٩/٤٥٠٥

رقم الإيداع ١٩/٤٥٠٥
ردمك X ٢٠٠ - ٩١٣٥ - ٩٩٦٠

الطبعة العاشرة
١٤٢٨هـ / ٢٠٠٧م



بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذه بالله من شرور أنفسنا ، وسيئات أعمالنا ، من يهده الله فلا مضلّ له ، ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٧٠ ، ٧١] .

أما بعد :

فقد روىٰ البخاري ومسلم عن عائشة وعبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) قالا : لَمَّا نُزِلَ برسول الله (ﷺ) [يعني : الموت] طفق يطرح خميصة علىٰ وجهه ، فإذا اغتم كشفها عن وجهه ، فقال ـ وهو كذلك ـ : « لعنة الله علىٰ اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد» يُحذِّر ما صنعوا [١] .

(١) أخرجه : البخاري في الصلاة ، جـ ١ ، ص ٥٣٢ ، رقم (٤٣٥) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، جـ ١ ، ص ٣٧٧ ، رقم (٥٣١) .

وعن عائشة (رضي الله عنها) ـ قالت : لمّا مرض النبي (ﷺ) تذاكر بعض نسائه كنيسة بأرض الحبشة يقال لها : مارية ـ وقد كانت أم سلمة وأم حبيبة قد أتتا أرض الحبشة ـ فذكرن من حسنها وتصاويرها ، قالت : فرفع النبي (ﷺ) رأسه ، فقال : « أولئك قوم إذا مات فيهم الرجل بنوا على قبره مسجداً ، ثم صوروا تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله يوم القيامة »(١) .

إنّها وصية مخلصة يودع بها النبي (ﷺ) أصحابه ، فعلى الرغم من ثقل المرض وشدّة الألم، إلا إنّ النبي (ﷺ) يعيدها المرة بعد الأخرى ، رحمة بأمته وشفقة عليها ، وخوفاً عليها من الزيغ والانحراف ، كالذي حدث في الأمم السابقة .

ومن شدّة عناية النبي (ﷺ) على تأكيد هذا الأمر الجليل ، لم يكتف بسماع بعض أصحابه له ، بل حرص على بيانه لعامّة أصحابه ، فقد روى أسامة بن زيد (رضي الله عنهما) أنّ رسول الله (ﷺ) قال في مرضه الذي مات فيه : « أدخلوا عليَّ أصحابي » ، فدخلوا عليه وهو متقنّع ببردة معا فري(٢) ، فكشف القناع ، فقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »(٣) .

في اللحظات الأخيرة يكون الهمُّ الأكبر الذي يحرص النبي (ﷺ) على بيانه وإيضاحه بشكل جليّ لا خفاء فيه ولا غموض ، هو حماية حمى التوحيد من

---

(١) أخرجه : البخاري في الصلاة ، جـ ١ ، ص ٥٣١ ، رقم (٤٣٤)، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة، جـ ١ ، ص (٣٧٥)، رقم (٥٢٨) .

(٢) نسبة إلى قبيلة معافر باليمن .

(٣) أخرجه : أحمد، (٥/ ٢٠٤)، والطيالسي، (ص ٨٦)، وحسنه الألباني في تحذير الساجد (ص ٢١) .

الشرك والبدع ، والتحذير من الغلوّ والزيغ . فالله (عز وجل) أمر عباده المؤمنين بالتوحيد الخالص المبرأ من كلّ شائبة من شوائب الشرك والبدعة . قال الله (تعالىٰ) : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ ﴾ [البينة : ٥]، وقال الله (تعالىٰ) : ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

إنَّ مسألة التوحيد من أعظم مسائل الدين وأجلها ، وقد تتابع اهتمام الأنبياء بإيضاحها وبيانها و دعوة الناس إليها ، قال الله (تعالىٰ) : ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء : ٢٥] ، ولهذا كانت حياة النبي (ﷺ) كلها حافلة ببيان التوحيد والتحذير من الشرك و البراءة من أهله، وكان يُعلِّم أصحابه حدوده وقواعده ، فها هو ذا يقول لمعاذ (رضي الله عنه) : «هل تدري ما حق الله على عباده ؟ وما حق العباد على الله ؟» فقال معاذ: الله ورسوله أعلم. فقال رسول الله (ﷺ) : « فإن حق الله على عباده : أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً . وحق العباد على الله : أن لا يُعذب من لا يُشرك به شيئاً »(١) .

وعندما أرسل النبي (ﷺ) معاذاً إلى اليمن ، وحمَّله أمانة البلاغ ، كان أول ما أمره به أن يدعو الناس إلى توحيد الله (تعالىٰ) ، حيث قال له (ﷺ) : «إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أنَّ لا إله إلا الله ، وأنَّ محمداً رسول الله ، فإن هم أطاعوا لك بذلك فأخبرهم أنَّ الله قد فرض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لك

---

(١) أخرجه : البخاري في التوحيد : جـ ١٣ ، ص ٣٦٠ ، رقم (٧٣٧٨) ، ومسلم في صفات المنافقين : ٤ ، ص ٢١٦٠ ، رقم (٢٨٠٤) .

بذلك فإياك وكرائم أموالهم واتق دعوة المظلوم ، فإنه ليس بينها وبين الله حجاب»(١) .

وكان رسول الله (ﷺ) يرسل أصحابه (رضي الله عنهم) لهدم معاقل الوثنية وصروح الشرك ، فعن أبي الهياج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ﷺ) ألا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته»(٢) .

وكان رسول الله (ﷺ) حريصاً على قطع مادة الشرك وسدّ ذرائعه ، ولهذا نهى عن رفع القبور ، والبناء عليها ، وتجصيصها ، والصلاة عندها ، واتخاذها عيداً ، وإيقاد السرج عليها ، ونحو ذلك من الأبواب التي تؤدي إلى تعظيم المقبورين والغلو فيهم .

وقد كان النبي (ﷺ) في أشدِّ التوقي والتحري لحماية جناب التوحيد ، حتى في أدق المسائل ، فعندما جاءه رجلٌ وراجعه في بعض الكلام ، فقال : ما شاء الله وشئت ! قال رسول الله (ﷺ) : «أجعلتني مع الله عدلاً ؟! لا ، بل ما شاء الله وحده»(٣) .

وقد سار الصحابة (رضي الله عنهم) على منهاج النبي (ﷺ) في التحذير من الشرك وسدّ ذرائعه ، وأمثلة هذا الباب كثيرة جداً ، أذكر منها :

---

(١) أخرجه : البخاري في الزكاة : جـ٣ ، ص ٣٥٧ ، رقم (١٤٩٦) . ومسلم في الإيمان : جـ١ ، ص ٥٠ ، رقم (٢٩) .

(٢) أخرجه ، مسلم في الجنائز ، جـ ٢ ، ص ٦٦٦ ، رقم (٩٦٩) .

(٣) أخرجه : أحمد ، جـ١ ، ص ٢١٤ ـ ٢٢٤ . والبخاري في الأدب المفرد : رقم (٧٨٧) ، وإسناده صحيح .

المثال الأول : عن عائشة (رضي الله عنها) قالت : قال رسو ل الله (ﷺ) في مرضه الذي لم يقم منه : « لعن الله اليهود والنصارىٰ اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » . قالت : فلولا ذاك أُبْرِزَ قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً »(١) .

قال ابن حجر في معنىٰ قول عائشة « فلولا ذاك أُبْرِزَ قبره » : « أي كشف قبر النبي (ﷺ) ولم يتخذ عليه الحائل ، والمراد الدفن خارج بيته »(٢) .

المثال الثاني : عن المعرور بن سويد قال : خرجنا مع عمر في حجة حجها ، فقرأ بنا في الفجر : ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ و ﴿لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ﴾ فلمَّا قضىٰ حجه ورجع والناس يبتدرون ، فقال : ما هذا ؟ فقيل مسجد صلىٰ فيه رسول الله (ﷺ) ، فقال : « هكذا هلك أهل الكتاب ، اتخذوا آثار أنبيائهم بيعاً ! من عرضت له منكم فيها الصلاة فليصل ، ومن لم يعرض له منكم فيه الصلاة فلا يصل »(٣) .

المثال الثالث : قال أبو العالية : « لما فتحنا تُسْتَر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريراً عليه رجل ميت ، عند رأسه مصحف له ، فأخذنا المصحف ، فحملناه إلىٰ عمر بن الخطّاب ، فدعا له كعباً ، فنسخه بالعربية ، فأنا أول رجل من العرب قرأه ، قرأته مثل ما أقرأ القرآن ، فقال خالد بن دينار لأبي العالية : فما صنعتم بالرجل ؟ قال حفرنا بالنهار ثلاثة عشر قبراً متفرقة ، فلما كان الليل دفنَّاه وسوينا القبور كلها ، لنعمّيه علىٰ الناس لا ينبشونه ، فقلت : وما يرجون

---

(١) أخرجه : البخاري في الجنائز ، جـ٣ ، ص ٢٠٠ ، ٢٥٥ ، رقم (١٣٣٠ ، ١٣٩٠) ، ومسلم في المساجد ومواضع الصلاة ، جـ١ ، ص ٣٧٦ ، رقم (٥٢٩) .

(٢) فتح الباري : جـ٣ ، ص ٢٠٠ .

(٣) أخرجه : ابن أبي شيبة : جـ٢ ، ص ٨٤ . وقال الألباني : سنده صحيح علىٰ شرط الشيخين ، تحذير الساجد : ص ١٣٧ .

منه ؟ قال : كانت السماء إذا حبست عنهم أبرزوا السرير فيمطرون . . »[١] .

المثال الرابع : رأى عبد الله بن عمر (رضي الله عنهما) فسطاطاً على قبر عبد الرحمن ، فقال : « انزعه يا غلام ، فإنَّما يظله عمله »[٢] .

المثال الخامس : عن أبي هريرة (رضي الله عنه) أنهَ أوصى أن لا يضربوا على قبره فسطاطاً »[٣] .

والأمثلة في هذا الباب كثيرة جدّاً ، وقد تواتر النقل عنهم في التحذير من الشرك ، وسدِّ ذرائعه [٤] . ولهذا قال الإمام ابن القيم : « فلو كان الدعاء عند القبور والصلاة عندها والتبرك بها فضيلة أو سنة أو مباحاً ، لنصب المهاجرون والأنصار هذا القبر علماً لذلك ، ودعوا عنده ، وسنوا ذلك لمن بعدهم ، ولكن كانوا أعلم بالله ورسوله ودينه من الخلوف التي خلفت بعدهم ، وكذلك التابعون لهم بإحسان راحوا على هذا السبيل ، وقد كان عندهم من قبور أصحاب رسول الله (ﷺ) بالأمصار عدد كثير ، وهم متوافرون ، فما منهم من استغاث عند قبر صاحب ، ولا دعاه ، ولا دعا به ، ولا دعا عنده ، ولا استسقى به ، ولا استنصر به ، ومن المعلوم أنَّ مثل هذا مما تتوفَّر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه »[٥] .

---

(١) إغاثة اللهفان : جـ١ ، ص ٣١٨ـ٣١٩ .
(٢) أخرجه البخاري معلقاً في الجنائز ، جـ٣ ، ص ٢٢٢ .
(٣) أخرجه : عبد الرزاق : جـ٣ ، ص ٤١٨ . وابن أبي شيبة : جـ٤ ، ص ١٣٥ . وصححه الألباني في تحذير الساجد : ص ١٤٣ .
(٤) انظر : تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد ، لفضيلة الشيخ محمد ناصر الدين الألباني، ففيه تفصيل قيم .
(٥) إغاثة اللهفان : جـ١ ، ص ٣١٩ .

ولا يختلف مسلمان على أهمية التوحيد، فهو أصل الإسلام، الذي لا يصلح أن ينسب إنسان إليه بدونه، وهذا ما فهمه مشركو مكة من البيان الواضح الناصع الذي بلّغهم إياه رسول الله (ﷺ)، فقد قال المشركون تعليقاً على دعوته (ﷺ): ﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ﴾ [ص : ٥]، وفهموا أن هذه الدعوة تعني ترك آلهتهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ (٣٥) وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُوا آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصافات : ٣٥، ٣٦].

ولا يختلف مسلمان على أن تحقيق التوحيد ـ ظاهراً وباطناً ـ هو مدار النجاة يوم القيامة، فقد تظاهرت على ذلك نصوص القرآن والسنة، من ذلك قوله (تعالى): ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف : ١١٠]، وقوله (تعالى): ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ﴾ [النساء : ٤٨]، وقول الرسول (ﷺ): «إنه لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة»(١).

وليس المراد بهذا التوحيد هو فقط إثبات وجود الله، وأنه وحده خالق العالم، ومدبر أمره من غير إتّباعه بلازمه من توحيد العبادة، فقد أخبر القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقرون بتوحيد الربوبية، فكانوا يقرون بأن الله (عز وجل) خلقهم وخلق السموات والأرض، وأنه يرزقهم من السماء والأرض، وأنه يملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت، ويخرج الميت من الحي، وأنه رب السموات والأرض، ورب العرش العظيم، وبيده ملكوت كل شيء، وهو يجير ولا يجار عليه، بل وصفوه سبحانه أنه عزيز عليم(٢). بل كانوا

---

(١) أخرجه: البخاري في الجهاد، جـ٦، ص ١٧٩، رقم (٣٠٦٢)، ومسلم في الإيمان، جـ١، ص ١٠٥، رقم (١١١).

(٢) انظر الآيات: المؤمنون ٨٤ـ٨٩، يونس ٣١، الزخرف ٩.

يدعونه مخلصين له الدين ويلجؤون إليه في الشدائد والملمات ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَالظُّلَلِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ ﴾ [لقمان: ٣٢].

ولذلك كانت الدعوة القرآنية واضحة: أن التوحيد - وعلى رأسه توحيد العبادة - هو الغاية من خلق الجن والإنس، قال (تعالى): ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ [الذاريات: ٥٦]، وأن هذه هي دعوة الرسل (صلوات الله وسلامه عليهم) جميعاً: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلاَّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]، ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦].

قال الشيخ عبد الرحمن السعدي في بيان أهمية توحيد العبادة: «أعظم الأصول التي يقررها القرآن ويبرهن عليها توحيد الألوهية والعبادة، وهذا الأصل العظيم أعظم الأصول على الإطلاق، وأكملها وأفضلها، وأوجبها وألزمها لصالح الإنسانية، وهو الذي خلق الله الجن والإنس لأجله، وخلق المخلوقات، وشرع الشرائع لقيامه، وبوجوده يكون الصلاح، وبفقده يكون الشر والفساد، وجميع الآيات القرآنية إما أمر به، أو بحق من حقوقه، أو نهي عن ضده، أو إقامة حجة عليه، أو بيان جزاء أهله في الدنيا والآخرة، أو بيان الفرق بينهم وبين المشركين، ويقال له: توحيد الإلهية، فإن الإلهية وصفه (تعالى) الذي ينبغي أن يؤمن به كل بني آدم، ويوقنوا أنه الوصف الملازم له (سبحانه)، الدال عليها الاسم العظيم وهو الله، وهو مستلزم جميع صفات الكمال، ويقال له: توحيد العبادة باعتبار وجوب ملازمة وصف العبودية بكل معانيها للعبد بإخلاص العبادة لله (تعالى)، وتحقيقها في العبد أن يكون عارفاً بربه، مخلصاً له جميع عبادته، محققاً ذلك بترك الشرك صغيره وكبيره»[1].

(١) القواعد الحسان، ص ١٩٢.

وقال في موضع آخر : « وهو الذي خلق الله الخلق لأجله ، وشرع الجهاد لإقامته ، وجعل الثواب الدنيوي والأخروي لمن قام به وحققه ، والعقاب لمن تركه ، وبه يحصل الفرق بين أهل السعادة القائمين به ، وأهل الشقاوة التاركين له ، فعلى العبد أن يبذل جهده في معرفته ، وتحقيقه ، والتحقق به ، ويعرف حده وتفسيره ، ويعرف حكمه ومرتبته ، ويعرف آثاره ومقتضياته ، وشواهده وأدلته وما يقويه وينميه ، وما ينقضه أو ينقصه ، لأنه الأصل الأصيل لا تصح الأصول إلا به ، فكيف بالفروع ! »(١) .

ولا نعتقد أن شيئاً مما سبق ذكره يختلف عليه المسلمون؛ فالنصوص الشرعية فيه واضحة جلية، ولكن مع طول عهود تخلف قطاعات كبيرة من الأمة وما صاحب ذلك من جهل بكثير من الحقائق الشرعية التي ينبغي ألا تخرج عن دائرة المسلَّمات : حدث نوع من الغفلة أدت إليها عملية تزييف واسعة للمخالفات الشرعية تحت ستار مسميات أخرى (غير منفرة) ، وكان من هذه المخالفات تمرير بعض الصور الشركية بدون نسبتها إلى حقيقتها ، ثم المجادلة في هذه الحقيقة والمماحكة في مدى أثرها على حقيقة الإسلام .

وهذا ما نبه إليه فاروق هذه الأمة عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) عندما قال: «يوشك أن تنقض عرى الإسلام عروة عروة إذا نشأ في الإسلام من لا يعرف الجاهلية».

ويعد ما أُحدث حول القبور والأضرحة من أوضح أمثلة هذا التزييف الذي أصاب أعز صفات هذه الأمة ، ألا وهو التوحيد ، ولم يتوقف أثر هذا الانحراف عند حد الابتداع في صرف عبادة بشتى درجات الابتداع ، بل امتد ليشمل التأثير

(١) الحق الواضح المبين في توحيد الأنبياء والمرسلين ، ص ٥٧ .

سلباً في جوانب عديدة في واقع الأمة أفراداً وجماعات، وهذه دائماً عاقبة الشرك بألوانه ودرجاته، مصداقاً لقوله (تعالى): ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١].

وإسهاماً من المنتدى الإسلامي في علاج هذا الداء الوبيل خرج هذا الكتاب الذي بين يديك، وهو في الأصل مجموعة مقالات لعدد من الكُتّاب كانت قد اختصرت لدواعي ضيق المساحة، ونشرت على صفحات مجلة (البيان) ضمن ملف(القبور والأضرحة ـ دراسة وتقويم) في العددين (١٣١، ١٣٢)، إضافة إلى مقال سبق نشره في العدد رقم (٤١)، نضعها كاملة بين يديك مع إعادة ترتيبها بما يخدم التسلسل الموضوعي.

وقد لا تخلو هذه المقالات من تكرار يسير، وقد تحتاج مادة هذه المقالات إلى إعادة ترتيب وتبويب موضوعي لكي تأتلف مادتها، وتتماسك موضوعاتها، ولكننا رأينا إبقاءها على حالها، لأنها ليست لكاتب واحد، بل لعدة كُتّاب، مع ملاحظة أن طبيعة المقالة الصحفية تختلف بالتأكيد عن طبيعة الكتاب المتخصص.

وأخيراً: نسأل الله (عز وجل) أن ينفع بهذا الكتاب قارئيه وكاتبيه في الدنيا والآخرة، وأن يرفع عن الأمة البلاء، وأن يُعيذها من مضلات الأهواء والفتن، وأن يعيدها إلى حياض السنة النبوية المشرفة.. إنه سميع مجيب.

وصل اللهم على محمد وآله وصحبه وسلم.

المنتدى الإسلامي

فسطاط الخرافة .. الجذور والواقع

خالد محمد حامد

(تقديس القبور والأضرحة) مفهوم لم يعرفه الإسلام ولو في إشارة يسيرة، بل جاءت نصوصه الثابتة بالنهي الصريح عن كل ذريعة تفضي إلىٰ ذلك المفهوم، الذي يمثل خطوة أولىٰ علىٰ طريق الانحراف نحو الشرك، فمن الأقوال القاطعة لرسول الله (ﷺ) بما لا يدع مجالاً لتوهم نسخ أو تخصيص أو تقييد ما جاء عنه (ﷺ) « لا تجعلوا بيوتكم مقابر، ولا تجعلوا قبري عيداً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم »[١]، وعنه (ﷺ): « اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد، لعن الله قوماً اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد »[٢] .. هذا في قبره الشريف وفي كل قبر، وعن علي (رضي الله عنه) أنه قال لأبي الهياج: « ألا أبعثك علىٰ ما بعثني عليه رسول الله (ﷺ): أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته»[٣]، ونهىٰ رسول الله (ﷺ) أن « يجصص القبر، وأن يقعد عليه، وأن يبنىٰ عليه »، وفي زيادة صحيحة لأبي داود « أو أن يكتب عليه»[٤] .. ولعن

(١) أخرجه الإمام أحمد، ٢ / ٣٦٧، وأبو داود، كتاب المناسك، باب زيارة القبور، وصححه الألباني، انظر: صحيح سنن أبي داود، ح/ ١٧٦٩.

(٢) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل ٢ / ٢٤٦، وصححه الألباني في تحذير الساجد، ص ٢٥.

(٣) أخرجه مسلم في الجنائز، باب الأمر بتسوية القبور، وأبو داود والترمذي والنسائي.

(٤) أخرجه مسلم في الجنائز، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه، وأبو داود، ح/ ٣٢٢٦، وانظر: صحيح سنن أبي داود للألباني، ح/ ٢٧٦٣.

(ﷺ) « المتخذين عليها [أي على القبور] المساجد والسُّرُج »[١].

من النور إلى الظلمات :

وعلى ذلك سار سلفنا الصالح من صحابة رسول الله (ﷺ) ومن تبعهم بإحسان « ولم يكن على عهد الصحابة والتابعين وتابعيهم من ذلك شيء في بلاد الإسلام، لا في الحجاز، ولا اليمن، ولا الشام، ولا العراق، ولا مصر، ولا خراسان، ولا المغرب، ولم يكن قد أحدث مشهد، لا على قبر نبي، ولا صاحب، ولا أحد من أهل البيت، ولا صالح أصلاً، بل عامة هذه المشاهد محدثة بعد ذلك، وكان ظهورها وانتشارها حين ضعفت خلافة بني العباس، وتفرقت الأمة، وكثر فيهم الزنادقة الملبِّسون على المسلمين، وفشت فيهم كلمة أهل البدع، وذلك من دولة المقتدر في أواخر المئة الثالثة، فإنه إذ ذاك ظهرت القرامطة العبيدية القداحية في أرض المغرب، ثم جاؤوا بعد ذلك إلى أرض مصر »[٢].

«ولم يكن في العصور المفضلة « مشاهد » على القبور، وإنما كثر بعد ذلك في دولة بني بويه لما ظهرت القرامطة بأرض المشرق والمغرب، وكان بها زنادقة كفار مقصودهم تبديل دين الإسلام، وكان في بني بويه من الموافقة لهم على بعض ذلك ومن بدع الجهمية والمعتزلة والرافضة ما هو معروف لأهل العلم،

---

(١) أخرجه الترمذي وأبو داود والإمام أحمد، وقال أحمد محمد شاكر في تعليقه على (سنن الترمذي) ٢/ ١٣٧ : « الشواهد التي ذكرناها ترفعه إلى درجة الصحة لغيره، إن لم يكن صحيحاً بصحة إسناده هذا »، وضعف الألباني لفظ (السرج)، انظر : سلسلة الأحاديث الضعيفة، ح/ ٢٢٥ .

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، ج/ ٢٧ ، ص ٤٦٦ .

فبنوا المشاهد المكذوبة كمشهد علي (رضي الله عنه) وأمثاله . . »[١].

« . . . وفي دولتهم أُظهر المشهد المنسوب إلىٰ علي (رضي الله عنه) بناحية النجف، وإلا فقبل ذلك لم يكن أحد يقول: إن قبر علي هناك، وإنما دفن علي (رضي الله عنه) بقصر الإمارة بالكوفة »[٢].

فعندما بدأت المحدثات تدب في حياة المسلمين، كان منها ذلك الأمر الجلل «فظهرت بدعة التشيع التي هي مفتاح باب الشرك، ثم لما تمكنت الزنادقة أمروا ببناء المشاهد وتعطيل المساجد . . . ورووا في إنارة المشاهد وتعظيمها والدعاء عندها من الأكاذيب ما لم أجد مثله فيما وقفت عليه من أكاذيب أهل الكتاب، حتىٰ صنف كبيرهم «ابن النعمان» كتاباً في (مناسك حج المشاهد) وكذبوا فيه علىٰ النبي (ﷺ) وأهل بيته أكاذيب بدلوا بها دينه، وغيروا ملته، وابتدعوا الشرك المنافي للتوحيد، فصاروا جامعين بين الشرك والكذب »[٣].

الرواد الأوائل:

وعلىٰ هذا يتضح أن الذين بذروا بذور شرك القبور كانوا رافضة، وذلك ما تؤكده لنا عالمة الآثار الدكتورة سعاد ماهر فهمي عندما تسرد أوائل الأضرحة ذات القباب، فتقول: « . . ويليها من حيث التاريخ: ضريح إسماعيل الساماني[٤]

---

(١) السابق، ص ١٦٧ .

(٢) السابق، ص ٤٦٦ .

(٣) السابق، ص ١٦١ ـ ١٦٢ .

(٤) ينتسب السامانيون إلى رجل فارسي يسمى « سامان »، كان مجوسيّاً واعتنق الإسلام أواخر عهد الدولة الأموية، وإسماعيل المذكور هو: إسماعيل بن أحمد ابن أسد بن سامان، آلت زعامة السامانيين إليه عام ٢٧٩ هـ، وتوفي سنة ٢٩٥هـ.
انظر: التاريخ الإسلامي، لمحمود شاكر، ج/٦، ص ٩١، ١٠٧ .

المبني سنة ٢٩٦هـ في مدينة بخارىٰ ، ثـم ضريح الإمام علي في النجف الذي بناه الحمدانيون سنة ٣١٧هـ ، ثم ضريح محمد بن موسىٰ في مدينة قم بإيران سنة ٣٦٦هـ ، ثم ضريح (السبع بنات) في الفسطاط سنة ٤٠٠ هـ ، وقد احتفظت لنا جبَّانة أسوان بمجموعة كبيرة من الأضرحة ذات القباب التي يرجع تاريخ معظمها إلىٰ العصر الفاطمي في القرن الخامس الهجري»[١] .

فبدايات تعظيم القبور واتخاذها مشاهد وأضرحة ارتبطت تاريخيّاً بأسماء : القرامطة ، وبني بويه ، والفاطميين (العبيديين) ، والسامانيين ، والحمدانيين . . . وجميعهم روافض وإن تفاوتوا في درجة الغلو ، يقول محمود شاكر : « . . . ثم هناك الدولة السامانية التي هي أقرب إلىٰ الإسماعيلية ، هؤلاء جميعاً يدّعون الشيعة ، غير أن منهم الغلاة كالحمدانيين ، ومنهم أقل غلوّاً مثل بني بويه ، ومنهم أصحاب الأصول اليهودية كالعبيديين ، ومن ينتمي إلىٰ المجوس كالقرامطة . . . »[٢] .

علىٰ أن الدكتورة سعاد ماهر تذكر لنا «أن أقدم ضريح في الإسلام أقيمت عليه قبة يرجع إلىٰ القرن الثالث الهجري ، وقد عُرف هذا الضريح باسم (قبة الصليبية)[٣] ، ويوجد في مدينة سمارا بالعراق علىٰ الضفة الغربية لنهر دجلة إلىٰ الجنوب من قصر العاشق . . . ، ويقول الطبري : إن أم الخليفة العباسي استأذنت في بناء ضريح منفصل لولدها فأذن لها ، إذ كانت العادة قبل ذلك أن يدفن الخليفة في قصره ، فأقامت قبة الصليبية في شهر ربيع الثاني سنة ٢٨٤ هـ ، وقد ضم

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص ٤٦ .
(٢) التاريخ الإسلامي ، جـ٦ ، ص ١٤٩ .
(٣) نسبة إلى موقع الضريح عند تقاطع طريقين.

الضريح إلى جانب المنتصر الخليفة المعتز والمهتدي، وتعتبر قبة الصليبية أول قبة في الإسلام»[١].

ولكن الدكتورة سعاد تذكر لنا الأضرحة (ذات القباب) فقط، ولا ندري هل كانت قبل قبة الصليبية أضرحة أخرى ليست ذات قباب أم لا ؟ فالقباب عنصر معماري أنشئ في أول أمره لإبراز بعض أجزاء المسجد، ثم تطور استعمالها إلى تغطية قبور الشخصيات البارزة أو (أولياء الله)[٢].

تعانق الجبت مع الطاغوت:

على أن الذي يعنينا في هذا المقام هو أن (تقديس القبور والأضرحة) أمر حادث في الإسلام، وإحداثه لم يرتبط بأهل التقوى والعلم، بل ارتبط بأصحاب الدعوات الهدامة وأهل السلطان، وقد أشار القرآن الكريم إلى مثل ذلك في قوله تعالى عن أصحاب الكهف: ﴿ قَالَ الَّذِينَ غَلَبُوا عَلَىٰ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴾ [الكهف: ٢١]، فالذين أرادوا اتخاذ مسجد على قبور الفتية هم أهل الغلبة.

ولعلنا نلمح أن في ذلك جنساً من اتباع سَنَن من كانوا قبلنا في تعانق الجبت مع الطاغوت عند حدوث الانحراف العقدي، وذلك كما في قوله (تعالى): ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ أُوتُوا نَصِيبًا مِّنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ ﴾ [النساء: ٥١]، حيث يتآزر دعاة الأوهام والخرافة مع أصحاب الطاعة والتشريع

---

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١، ص ٤٦.

(٢) انظر: السابق، ص: ٤٥ ـ ٤٦.

من دون الله ويتبادلون الأدوار أحياناً، فتجد الكهان والمنجمين والسحرة يطلبون الطاعة ممن يؤمن بخرافاتهم ويحلون له الحرام ويحرمون عليه الحلال ، كما إنهم يمدون أصحاب السلطان والطاعة بالشرعية التي هم في حاجة إليها، وتجد أصحاب السلطان ممن يُطاعون في معصية الله يستشيرون الخرافيين ويقربونهم ويفسحون المجال للترويج لبدعهم بين الناس . .

ولكل ذلك أثر في الواقع؛ وليس أدل على العلاقة المتبادلة بين أهل السلطان وأهل الأوهام من ظهور الرئيس المصري السابق أنور السادات في أجهزة الإعلام ومعه وزير الأوقاف في عهده زائرين لضريح إبراهيم الدسوقي، فقال خادم الضريح عندما أراه الضريح : هذا باب السر ! ، ثم قال للسادات : أبشر، فستكون خليفة للمسلمين !! [١] .

دينهم وديدنهم :

كما إن مكانة القبور والأضرحة (المقدسة) غير قابلة للمساومة في دين الرافضة، فطائفة البهرة الإسماعيلية (من غلاة الرافضة) ذات نشاط واسع في عمارة المساجد ذات الأضرحة وتجديدها بحجة الاهتمام بالعمارة الإسلامية وبخاصة في مصر . . . والقبر الأول الذي يحظى بحج الجماهير في دمشق ـ وهو القبر المنسوب إلى السيدة زينب بنت علي بن أبي طالب(رضي الله عنهما) ـ ما زال مكتوباً عليه إلى الآن : قام بعمارة البناية الضخمة عليه والمسجد حولها والقبة المزخرفة : محمد بن حسين نظام وأولاده من طائفة الشيعة [١] .

---

(١) انظر : الأضرحة وشرك الاعتقاد، للدكتور عبد الكريم دهينة، ص : ٦٩ . ولعلنا نتناول ذلك الجانب بتفصيل أكثر عند الحديث عن عوامل استمرار تقديس القبور والأضرحة .

وأيضاً فإن أصحاب الأضرحة الكبرىٰ ممن ينسب إلىٰ التصوف هم في الحقيقة من غلاة الشيعة الباطنية، حيث «من العراق انطلق أحد أتباع الرفاعي إلىٰ مصر، وهو «أبو الفتح الواسطي» (جد إبراهيم الدسوقي) لنشر دعوتهم الباطنية بها، وقد كان ذلك في العهد الأيوبي، وبعد موت الواسطي جاء «البدوي» ليخلفه في دعوته تلك، وقد توزع هؤلاء الدعاة في مصر، فكان «الدسوقي» بدسوق، و «أبو الحسن الشاذلي» بالإسكندرية، و «أبو الفتح الواسطي» ما بين القاهرة وطنطا والإسكندرية، ولما مات الواسطي حل محله البدوي بطنطا، وجميعهم من فلول العبيديين الذين طردهم صلاح الدين الأيوبي من مصر، ثم حاولوا العودة تحت ستار التصوف والزهد... كما إن كلاً من ابن بشيش وابن عربي قد تتلمذا علىٰ يد «أبي مدين» بالمغرب»[٢].

«وفي أواخر عهدهم أنشأ الفاطميون المشهد الحسيني عام ٥٥٠ هـ عندما شعروا بأن سلطتهم قد ضعفت ليجذبوا إليهم المصريين، وعهدوا إلىٰ ابن مرزوق القرشي (٥٦٤هـ) تربية مريدي الصوفية، فانتظم أتباعه في طوائف وطرق لنشر الدعوة الشيعية؛ إلا إن هذه التنظيمات انهارت بانهيار الدولة الفاطمية وتحول المشهد الحسيني إلىٰ ضريح صوفي»[٣].

والحاصل: أن تقديس القبور وزيارة المشاهد تقليد شيعي في نشأته، فالشيعة هم أول من بنىٰ المشاهد علىٰ القبور، حيث تتبعوا - أو زعموا تحري - قبور من مات قديماً ممن يعظمونهم من آل البيت، وراحوا يبنون علىٰ قبورهم

---

(١) انظر: شهر في دمشق، لعبد الله بن محمد بن خميس، ص ٦٧.

(٢) بدع الاعتقاد، لمحمد حامد الناصر، ص: ٢٤٧، نقلاً عن (السيد البدوي - دراسة نقدية) للدكتور عبد الله صابر.

(٣) عمار علي حسن، الصوفية والسياسة في مصر، ص ٨٨.

ويجعلونها مشاهد ومزارات ، ثم جاء الصوفية فنسجوا علىٰ هذا المنوال، فجعلوا أهم مشاعرهم هو زيارة القبور وبناء الأضرحة والطواف بها والتبرك بأحجارها ، والاستغاثة بالأموات، فقد جعلوا قبر معروف الكرخي ـ وهو رائد من رواد التصوف ـ مكاناً لزيارتهم، وقالوا : قبرُ معروف تِرْياق مُجرَّب [١] .

الحاجة أم الاختراع :

وأصبح تقديس القبور والأضرحة لازماً من لوازم الطرق الصوفية، بحيث لا يتصور أحد وجود طريقة صوفية من غير ضريح ـ أو أكثر ـ تقدسه . . ومع تمكن الداء من جسد الأمة ظهرت (الحاجة) إلىٰ تعدد الأضرحة والمزارات لتلبي رغبات من صرعتهم الأوهام، وضاق بالقبوريين أن يتحروا ثبوت قبور الأولياء المشهورين لدىٰ جمهورهم، ولأن الحاجة أُمُّ الاختراع ـ كما يقال ـ فقد وجدوا لهذه الأزمة بعض المخارج والحيل :

* فظهر مايسمىٰ بأضرحة الرؤيا ، تقول الدكتورة سعاد ماهر : «ظهر في العصور الوسطىٰ ـ وخاصة في أوقات المحن والحروب التي لا تجد فيها الشعوب من تلوذ به غير الواحد القهار ـ أن يتلمسوا أضرحة آل البيت والأولياء للزيارة والبركة والدعاء ليكشف الله عنهم السوء ويرفع البلاء، ومن ثم : ظهر ما يعرف بأضرحة الرؤيا، فإذا رأىٰ ولي من أولياء الله الصالحين في منامه رؤيا مؤداها أن يقيم مسجداً أو ضريحاً لأحد من أهل البيت أو الولي المسمىٰ في الرؤيا فكان عليه أن يقيم الضريح أو المسجد باسمه» [٢] .

وتلك كانت الدعوىٰ نفسها التي أقيمت عليها (مزارات الشهداء) عند

---

(١) انظر : الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة ، لعبد الرحمن عبد الخالق، ص: ٤٢٧ .
(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١ ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

النصارىٰ «وكان ذلك إبان القرن الخامس الميلادي، حيث أصبح لكل قرية مزار لشهيد يحوي عظاماً لبعض الموتىٰ المجهولين، أخرجت من القبور، ومنحت كل التبجيل والاحترام، دون أدنىٰ دليل يثبت أنها ـ علىٰ الأقل ـ بقايا مسيحيين، ويخلع علىٰ هذه الرفات أسماء وألقاب لائقة، وفي حالات كثيرة كان المرجع الوحيد في هذا الشأن (حلم) أو (رؤيا) لكاهن أو راهب»[1] .

وهي الدعوىٰ نفسها أيضاً التي أسس عليها اليهود مزاراتهم من القبور (المقدسة)؛ يقول جعفر هادي حسين: «وبين فترة وأخرىٰ يطلع علىٰ الناس شخص في (إسرائيل) يعلن عن اكتشاف قبر (مقدس) أو إقامة مزار له لحلم قد رآه، فيصبح قبره أو مقامه مقصداً للرائحين والغادين . . »[2] .

وعلىٰ ذلك : لا يلزم أن يكون الولي المقام الضريح باسمه قد ثبت وجوده في ذلك المكان، بل لا يلزم أن يكون وطئت قدمه أرض تلك البلاد أصلاً، ومن هنا ظهرت أضرحة مزعومة ومكذوبة في طول البلاد وعرضها، وتعددت الأضرحة للولي الواحد في أكثر من قُطْر ، ولتسويغ ذلك الخطل نسجوا خرافة واضحة الزور والبهتان، فقالوا: إن الأرض لأجسام الأولياء كالماء للسمك، فيظهرون بأماكن متعددة ويزار كل مكان قيل عنه: إن فيه نبيّاً كريماً أو وليّاً عظيماً[3] ، أي: يستطيع الولي المقبور أن يكون بالشام ثم يسبح ـ تحت الأرض ـ إلىٰ مصر ، وبعدها يحضر إلىٰ إيران . . . وهكذا؛ ليجيب مريديه وعابديه حول

---

(١) موالد مصر المحروسة، لعرفة عبده علي، ص ٧١ .

(٢) انظر: جريدة الحياة، ع/ ١٣٠١٣، ٢٩/ ٦/ ١٤١٩هـ ، مقال «اعتراضات سياسية على ظاهرة تدخل الحاخامين في الانتخابات الإسرائيلية» .

(٣) انظر: الانحرافات العقدية والعلمية في القرنين الرابع عشر والخامس عشر . . . لعلي بن بخيت الزهراني، ص ٢٨٥ .

أضرحته المتعددة.

* ومن الحيل الرائجة لإقامة ضريح أو مشهد: نسج الكرامات حول الشخص المزعوم بأنه ولي، أو حول المكان المزعوم بأنه مكان قبر ولي.

فمما ينسج حول الأشخاص: ما حدث مع (الشيخ) صالح أبي حديد الذي كان وبعض صحبه من قطاع الطريق، وحين كشف أمره هرب ولجأ إلى بيت مغنية مشهورة، فأخفته وادعت أنه مجنون ووضعت في رجليه قيداً من حديد، وقد اعتقل لسانه من شدة الخوف، ثم أشاعت هي والمجتمعون من حوله أن له كرامات وإخباراً بالمغيبات، فأقبل عليه الناس بالهدايا والنذور حتى ذاع صيته، وزاره الخديوي إسماعيل، واستبشر به، وبنى له قبراً بقبة عالية بعد وفاته ووقف عليه الأرض وغيرها [١].

ومن ذلك: مسجد في حلب يعرف بمسجد العريان، يعتقده أهل المحلة الموجود بها، ويقولون: إنه عرف بالعريان لأنه في أكثر أوقاته يتجرد من ثيابه، ويدَّعون أن ذلك لغلبة الحال عليه، وشبيه بذلك: مجذوب اسمه علي البكري، كان يطوف الشوارع عرياناً، فعمد أخوه بعد موته إلى أحد مساجد القاهرة واجتزأ نصفه ظلماً، وجعله ضريحاً لأخيه، ليَردِ إليه الناس من كل أنحاء القطر [٢].

ومن طرق النسج حول المكان المزعوم ما ذكره الإمام ابن تيمية (رحمه الله) عن «القبر المشهور في سفحة بالكرك الذي يقال إنه «قبر نوح» فهو باطل

---

(١) انظر: الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة، د. زكريا سليمان بيومي، ص ١٢٥، والانحرافات العقدية، ص ٢٩٩ - ٣٠٠، وبدع الاعتقاد، ص ٢٦٧.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية، ص ٣٠٠.

محال. . . ولا كان لهذا القبر ذكر ولا خبر أصلاً، بل كان ذلك المكان حاكورة يزرع فيها، ويكون بها الحاكة إلى مدة قريبة، رأوا هناك قبراً فيه عظم كبير، وشموا فيه رائحة، فظن الجهلاء أنه لأجل تلك الرائحة يكون قبر نبي، وقالوا: من كان من الأنبياء كبيراً؟ فقالوا: نوح، فقالوا: هو قبر نوح، وبنوا عليه في دولة الرافضة الذين كانوا مع الناصر صاحب حلب ذلك القبر، وزيد بعد ذلك في دولة الظاهر، فصار وثناً يشرك به الجاهلون، وقد ثبت عن النبي (ﷺ) أنه قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء»، فلو كان قبر نبي لم يتجرد العظم. . وحدثني من الثقات من شاهد في المقابر القريبة منه رؤوساً عظيمة جداً تناسب تلك العظام»[1]، وعلى الجملة: فإن «غالب ما يستند إليه الواحد من هؤلاء: أنه يدعي أنه رأى مناماً، أو أنه وجد بذلك القبر علامة تدل على صلاح ساكنه، إما رائحة طيبة، وإما توهم خرق عادة ونحو ذلك، وإما حكاية عن بعض الناس أنه كان يعظم ذلك القبر»[2].

الواقع الأليم .. شبكة أضرحة:

ولغفلة جموع كثيرة من الأمة عن حقيقة دينها فقد أنبتت هذه الجذور شبكة واسعة من القبور والأضرحة (المقدسة) عمت معظم أنحاء العالم الإسلامي، بل إن بعض الباحثين يقدر عدد الأضرحة في القطر الذي يعيش فيه بما لا يقل عن عدد المدن والقرى في هذا القطر، حيث يقول: «وأضرحة الأولياء التي تنتشر في مدن مصر ونحو ستة آلاف قرية: هي مراكز لإقامة الموالد للمريدين والمحبين، ويمكننا القول: إنه من الصعب أن نجد يوماً ـ على مدار السنة ـ ليس فيه احتفال

---

(١) مجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ٦١ ـ ٦٢ .
(٢) السابق، ص ٤٥٧ .

بمولد ولي في مكان ما بمصر»[١]، بل أصبحت القرىٰ التي تخلو من الأضرحة مثار تندر وتهكم سدنة الأضرحة ، فقد ذكر الدكتور زكريا سليمان بيومي أن من القرىٰ التي تخلو من أضرحة الأولياء : «بيّ العرب» و «أبو سنيطة» و «ميت عفيف» وهي جميعاً مركز الباجور منوفية . وأطلق المشايخ أمثلة شعبية علىٰ بخل هذه القرىٰ وخلوها من البركة ما زالت سارية بين الناس حتىٰ الآن ![٢] .

ولكي ندرك حجم المأساة أكثر سنورد بعض ما تيسر من نماذج توضح حجم انتشار هذه الأضرحة في بعض بقاع العالم الإسلامي ، وبالطبع ، فليس من بلد به ضريح إلا وله مريدون ممن يعتقدون فيه .

فمن بين ألوف الأضرحة المنسوبة إلىٰ الأنبياء والصحابة والأولياء في العالم الإسلامي يشتهر في مصر من بين أكثر من ستة آلاف ضريح (علىٰ تقدير من أشرنا إليهم) أكثر من ألف ضريح[٣]، «ويذكر صاحب الخطط التوفيقية علي باشا مبارك أن الموجود في زمنه في القاهرة وحدها مئتان وأربعة وتسعون ضريحاً»[٤]، أما خارج القاهرة فيوجد «علىٰ سبيل المثال في مركز فوّة . . . (٨١) ضريحاً، وفي مركز طلخا (٥٤)، وفي مركز دسوق (٨٤)، وفي مركز تلا (١٣٣) ، وهي الأضرحة التابعة للمجلس الصوفي الأعلىٰ، بخلاف الأضرحة التابعة للأوقاف أو غير المقيدة بالمجلس الصوفي»[٥] كما يوجد في أسوان أحد

---

(١) عرفة عبده علي، موالد مصر المحروسة، ص ٧ .
(٢) انظر : الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة، ص ١٢٦ .
(٣) د. سعاد ماهر فهمي، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١ ص ٤٤ .
(٤) الانحرافات العقدية، ص ٢٩٣ .
(٥) د. زكريا سليمان بيومي، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر المعاصرة، ص ١٢٧، ١٥٣ .

المشاهد يسمىٰ بمشهد (السبعة وسبعين وليّاً) [١].

وتنقسم الأضرحة إلى كبرى وصغرى، وكلما فخم البناء واتسع وذاع صيت صاحبه زاد اعتباره وكثر زواره.

فمن الأضرحة الكبرى في القاهرة: ضريح الحسين، وضريح السيدة زينب، وضريح السيدة عائشة، وضريح السيدة سكينة، وضريح السيدة نفيسة، وضريح الإمام الشافعي، وضريح الليث بن سعد . . . **وخارج القاهرة تشتهر أضرحة:** البدوي بطنطا، وإبراهيم الدسوقي بدسوق، وأبي العباس المرسي بالإسكندرية، وأبي الدرداء بها أيضاً، وأبي الحسن الشاذلي بقرية حميثرة بمحافظة البحر الأحمر، وأحمد رضوان بقرية البغدادي بالقرب من الأقصر، وأبي الحجاج الأقصري بالأقصر أيضاً، وعبد الرحيم القنائي بقنا . . .

أما في الشام فقد أحصىٰ عبدالرحمن بك سامي سنة (١٨٩٠م) في دمشق وحدها (١٩٤) ضريحاً ومزاراً، بينما عد نعمان قسطالي المشهور منها (٤٤) ضريحاً، وذكر أنه منسوب للصحابة أكثر من سبعة وعشرين قبراً، لكل واحد منها قبة ويزار ويتبرك به.

وفي الآستانة عاصمة السلطنة العثمانية كان يوجد (٤٨١) جامعاً يكاد لا يخلو جامع فيها من ضريح، أشهرها الجامع الذي بني علىٰ القبر المنسوب إلىٰ أبي أيوب الأنصاري في الآستانة (القسطنطينية).

وفي الهند يوجد أكثر من مئة وخمسين ضريحاً مشهوراً يؤمها الآلاف من

---

(١) انظر: الآثار الإسلامية في مصر من الفتح العربي حتى نهاية العصر الأيوبي، مصطفى عبد الله شيحة، ص ١٥٢.

الناس .

وفي بغداد كان يوجد أكثر من مئة وخمسين جامعاً في أوائل القرن الرابع عشر الهجري، وقلَّ أن يخلو جامع منها من ضريح، **وفي الموصل** يوجد أكثر من ستة وسبعين ضريحاً مشهوراً كلها داخل جوامع، وهذا كله بخلاف الأضرحة الموجودة في المساجد والأضرحة المفردة [١] .

وفي معظم مناطق أوزبكستان كثير من الأضرحة المنسوبة إلى الصحابة والمشائخ ورجال العلم والأولياء، وأصبحت هذه القبور مزارات يفد إليها مريدوها جماعات وأفراداً، يدعون ويبكون، ومن أهم تلك المزارات ضريح قثم ابن العباس ابن عم الرسول(ﷺ) في سمرقند ، وضريح الإمام البخاري في قرية خرتنك[٢] .

قبور الأضرحة بين الحقيقة والوهم :

وإذا كان ذكر أسماء الأضرحة المشهورة في العالم الإسلامي قد يشق على المتابع ، فسنذكر هنا طرفاً من الأضرحة المكذوبة والمشكوك في نسبتها :

فضريح الحسين بالقاهرة «كذب مختلق بلا نزاع بين العلماء المعروفين عند أهل العلم، الذين يرجع إليهم المسلمون في مثل ذلك لعلمهم وصدقهم» [٣]، «فإنه معلوم باتفاق الناس : أن هذا المشهد بني عام بضع وأربعين وخمسمئة، وأنه نقل من مشهد بعسقلان، وأن ذلك المشهد بعسقلان كان قد أحدث بعد التسعين والأربعمئة. . . فمن المعلوم أن قول القائل : إن ذلك الذي بعسقلان هو مبني

---

(١) انظر : الانحرافات العقدية، ص ٢٨٩ ، ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

(٢) انظر : مجلة (دراسات إسلامية) العدد الأول سنة ١٤١٨ هـ، مقال (مسلمو أوزبكستان)، لعبدالرحمن محمد العسيري، ص ٢١٧ ، ٢١٨ .

(٣) مجموع الفتاوى، جـ٢٧، ص ٤٥١ ، وانظر : ص٤٦٥ .

على رأس الحسين (رضي الله عنه) قول بلا حجة أصلاً. . . »[١].

وذكر ابن تيمية (رحمه الله) عن المشائخ: ابن دقيق العيد وابن خلف الدمياطي وابن القسطلاني والقرطبي صاحب التفسير وعبد العزيز الديريني إنكارهم أمر هذا المشهد، بل ذكر عن ابن القسطلاني أن هذا المشهد مبني على قبر نصراني[٢].

وإضافة إلى مشهدي عسقلان والقاهرة هناك ضريح آخر في **سفح جبل الجوشن غربي حلب** ينسب إلى رأس الحسين (رضي الله عنه) أيضاً، وهو من أضرحة الرؤيا، **وكذلك توجد أربعة مواضع أخرى** يقال: إن بها رأس الحسين: في دمشق، والحنانة بين النجف والكوفة، وبالمدينة عند قبر أمه فاطمة (رضي الله عنها)، وفي النجف بجوار القبر المنسوب إلى أبيه (رضي الله عنه)، وفي كربلاء حيث يقال: إنه أعيد إلى جسده[٣].

ورغم أن المحققين يقولون: إن **السيدة زينب بنت علي** (رضي الله عنهما) ماتت بالمدينة ودفنت بالبقيع، إلا إن القبر المنسوب إليها والذي أقامه الشيعة **في دمشق** هو« القبر الأول الذي يحظى بحج الجماهير إليه. . . فلقد وجدت سواداً كثيراً من الناس ملأ قبة القبر ثم البناء المحيط بالقبة ـ وما أكبره ـ ثم الفضاء والشجر المحيط بالقرية التي فيها القبر »[٤].

---

(١) السابق، ص ٤٥٦ .

(٢) السابق، ص ٤٨٥ ، ص ٤٩٣ .

(٣) انظر: الانحرافات العقدية، ص ٢٨٨ ، ومجلة (لغة العرب)، جـ٧ ، السنة السابعة (١٩٢٩ م)، ص ٥٥٧ ـ ٥٦١ ، ومعالم حلب الأثرية، عبد الله حجار .

(٤) عبد الله بن محمد بن خميس ، شهر في دمشق ، ص ٦٧ .

ولا يقل عنه جماهيرية ذلك **الضريح المنسوب إليها في القاهرة** ، والذي لم يكن له وجود ولا ذكر في عصور التاريخ الإسلامي إلى ما قبل محمد علي باشا بسنوات معدودة ـ كما يذكر أحمد زكي باشا ـ [١] الذي يقول أيضاً : «الذي يشهد به العارفون بالحق الصريح هو أن السيدة زينب بنت الإمام علي وأخت الإمام الحسين لم تشرّف أرض مصر بوطء قدمها المباركة مطلقاً مطلقاً مطلقاً ، والحق الذي ليس بعده إلا الضلال أنها قضت حياتها بالحجاز ، إلى أن انتقلت إلى جوار ربها بالمدينة المنورة ، فكان دفنها بالبقيع ، هذا هو الصواب وما عداه فإفك وبهتان» [٢] ، ويقول علي مبارك في الخطط التوفيقية : «لم أر في كتب التاريخ أن السيدة زينب بنت علي (رضي الله عنهما) جاءت إلى مصر في الحياة أو بعد الممات» [٣] .

وأهل الإسكندرية بمصر يعتقدون اعتقاداً جازماً بأن أبا الدرداء مدفون في الضريح المنسوب إليه في مدينتهم ، ومن المقطوع به عند أهل العلم أنه لم يدفن في تلك المدينة [٤] .

ومن أضرحة الرؤيا : **مشهد السيدة رقية بنت الرسول (ﷺ) بالقاهرة** ، أقامته زوجة الخليفة الفاطمي الآمر بأحكام الله ، وذلك بلا خلاف [٥] ، ومنها كذلك : ضريح السيدة سكينة بنت الحسين بن علي (رضي الله عنهم) [٦] ، ويذكر

---

(١) سمير شاهين ، الوثنية في ثوبها الجديد ، ص ٨١ .
(٢) عن السابق ، ص ٨١ ، ص ٨٠ .
(٣) نفسه .
(٤) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .
(٥) مصطفى عبد الله شيحة ، مرجع سابق ، ص ١٤٣ .
(٦) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ ١ ، ص ١٠٢ .

المقريزي في خططه (٢/ ٤٥) **جملة من الأضرحة المزعومة** ، منها: «قبر في زقاق المزار تزعم العامة ومن لا علم عنده أنه قبر يحيىٰ بن عقب، وأنه كان مؤدباً للحسين بن علي بن أبي طالب، وهو كذب مختلق وإفك مفترىٰ، كقولهم في القبر الذي بحارة برجوان إنه قبر جعفر الصادق، وفي القبر الآخر إنه قبر أبي تراب النخشبي . . إلىٰ غير ذلك من أكاذيبهم» [١] .

ومن أشهر الأضرحة أيضاً: ضريح الإمام علي بن أبي طالب (رضي الله عنه) **بالنجف بالعراق**، وقد مرّ بنا سابقاً كلام ابن تيمية (رحمه الله) من أنه قبر مكذوب، وأن عليًا (رضي الله عنه) دفن بقصر الإمارة بالكوفة [٢].

وفي البصرة عدد من الأضرحة المنسوبة إلىٰ الصحابة ، منها: قبر عبد الرحمن بن عوف ، رغم أنه مات بالمدينة ودفن بالبقيع [٣] .

وفي بلدة الرها من أعمال حلب ضريح يقال إنه لجابر بن عبد الله الأنصاري (رضي الله عنهما) مع أن جابراً توفي في المدينة [٤] .

وفي مدينة نصيبين بالشام (حالياً بجنوب تركيا) قبة يزعمون أنها لسلمان الفارسي، مع أنه (رضي الله عنه) مدفون في المدائن [٥] .

ويضيف ابن تيمية (رحمه الله) : « **وكذلك بدمشق** بالجانب الشرقي

---

(١) عن مقال: تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين، لحسين أحمد أمين، مجلة العربي، ع/ ٢٢٦، رمضان ١٣٩٧هـ، ص ١٣٥ .

(٢) انظر أيضاً : مجموع الفتاوى ، جـ ٢٧ ، ص ٤٩٣ .

(٣) الانحرافات العقدية ، ص ٢٩١ .

(٤) السابق ، وانظر: مجموع الفتاوى ، جـ ٢٧ ، ص ٤٩٤ .

(٥) السابق ، ص ٢٩٠ .

مشهد يقال: إنه قبر أُبَيّ بن كعب، وقد اتفق أهل العلم على أن أبيّاً لم يَقْدُم دمشق، وإنما مات بالمدينة، فكان بعض الناس يقول: إنه قبر نصراني، وهذا غير مستبعد... فلا يستبعد أنهم [أي: النصارى] ألقوا إلى بعض جهال المسلمين أن هذا قبر من يعظمه المسلمون ليوافقوهم على تعظيمه» [١].. وما لم يستبعده ابن تيمية (رحمه الله) حدث مثله في العصر الحاضر «**ففي الجزائر** كان الشعب هناك يؤم ضريحاً في بعض المناطق الشرقية ويتبرك بأعتابه، ثم اكتُشف أن هذا القبر كان لراهب مسيحي، ولم يصدق الناس ذلك حتى عثروا على الصليب في القبر [٢].

وفي دمشق أيضاً: قبور منسوبة إلى أمهات المؤمنين: عائشة وحفصة وأم سلمة وأم حبيبة (رضوان الله عليهن)، مع أنهن مدفونات بالمدينة النبوية، وفيها كذلك قبر لأسماء بنت أبي بكر (رضي الله عنهما)، مع أنها ماتت في مكة بعد مقتل ولدها عبد الله بن الزبير بأيام قليلة [٣].

وينسب الناس في الشام قبراً إلى «أم كلثوم» و «رقية» بنتي رسول الله (ﷺ) «وقد اتفق الناس على أنهما ماتتا في حياة النبي (ﷺ) بالمدينة تحت عثمان، وهذا إنما هو بسبب اشتراك الأسماء، لعل شخصاً يسمى باسم من ذُكر توفي ودفن في موضع من المواضع المذكورة، فظن بعض الجهال أنه أحد من الصحابة» [٤]، «ومنها (قبر خالد) **بحمص**، يقال: إنه قبر خالد بن يزيد بن معاوية...، ولكن

---

(١) ابن تيمية، مجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ٤٦٠.

(٢) الانحرافات العقدية، ص ٢٨٨.

(٣) انظر: السابق، ص ٢٩٠، ومجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ١٧٠.

(٤) مجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ٤٩٤.

لما اشتهر أنه خالد، والمشهور عند العامة خالد بن الوليد: ظنوا أنه خالد بن الوليد، وقد اختلف في ذلك: هل هو قبره أو قبر خالد بن يزيد؟ »[١].

ولعل لهذا السبب أيضاً وجد ضريح (سيدي خالد بن الوليد) بكفر الحما **مركز أشمون منوفية بمصر**، وضريح (الشيخ عمار بن ياسر) بناحية بني صالح تبع مركز الفشن[٢].

انفراط العقد:

وفي دمشق كذلك ضريح يدعي الناس أنه لرأس يحيىٰ بن زكريا (عليهما السلام) يقع في قلب المسجد الأموي، وله قبة وشباك، وله نصيبه من التمسح والدعاء، وبجانب المسجد الأموي قبر القائد صلاح الدين الأيوبي، وإلىٰ جانبه في القبة قبر عماد الدين زنكي، وقبور أخرىٰ تزار ويتوسل بها. . . وفيها قبور أخرىٰ كثيرة، كقبر زيد بن ثابت، وأبي هريرة، ومعاوية بن أبي سفيان، والراجح أنه قبر معاوية بن يزيد بن معاوية، أما قبر معاوية الصحابي فقيل إنه بحائط دمشق الذي يقال إنه قبر هود (عليه السلام)، وفي دمشق أيضاً قبور كثير من التابعين والقواد العظماء، ومعظم ما يقال عن هذه القبور تخرصات وتكهنات معظمها من وضع الشيعة والصوفية، وإلا فليس هناك دليل مادي يثبت قبر كل فرد بعينه[٣].

---

(١) السابق، ص ٤٩٢.

(٢) انظر: الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر العاصرة، ص ١٥٩، هامش ٤، ص ١٣٨.

(٣) انظر: عبدالله بن محمد بن خميس، شهر في دمشق، ص٦٦، ومجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، جـ٢٧، ص٤٤٧، ص ٤١٩.

وإضافة إلى ضريح دمشق المنسوب ليحيى بن زكريا (عليهما السلام) فإن له مزاراً آخر **في صيدا** جنوب لبنان في قمة جبل يشرف على البلد والبحر، وله أيضاً مقام ثالث في الجامع الأموي **بحلب**، حيث توجد حجرة تعرف بـ (الحضرة النبوية) يقال: إن بها رأس يحيى بن زكريا (عليهما السلام) في صندوق جرن، وقيل: إن بها عضواً من أعضاء نبي الله زكريا (عليه السلام) في صندوق مرمر [(١)].

وفي حلب أيضاً: «مسجد يعرف بمسجد النبي، منسوب إلى نبي يدعى كالب بن يوفنا من سبط يهوذا» [(٢)].

ونحو الجنوب إلى معان بشرقي الأردن يوجد مزار النبي هارون، ولا يوجد عند أهل هذه الناحية مقام أشد إكراماً ولا أوفر آيات منه!، كما يوجد **في شرقي الأردن أيضاً** مقام النبي هوشع (يوشع) على قمة جبل بالقرب من السلط، وهو مبني بحجارة قديمة يرتئي الباحثون أن أكثرها يرتقي إلى عهد الصليبيين!، كما يوجد في غربي الكرك مزار النبي نوح، وهو مزار غني بالتحف والهدايا، مزين بأنواع الأنسجة، يضاء بمصابيح الزيت والسمن.. وفي بادية البلقاء ومواب يوجد مقام (الخضر الأخضر) [(٣)].

كما يوجد ضريح آخر للخضر (عليه السلام) في مغارة بمعرة النعمان **بشمال سورية بالشام**، ويوجد بها كذلك ضريح آخر ليوشع (عليه السلام)، وفي

---

(١) الانحرافات العقدية، ص ٢٧٨، ٢٧٩.

(٢) السابق، ص ٢٨٤.

(٣) انظر: المزارات في شرقي الأردن، بقلم الخوري بولس سلمان، مجلة المشرق، ١١/ ١١/ ١٩٢٠م، ص٩٠٢ـ ٩١٠.

معرة النعمان أيضاً يوجد ضريح شيث (عليه السلام)، مع أن هناك جامعاً كبيراً **في الموصل** يسمىٰ بجامع النبي شيث ، داخله ضريح يعتقد الناس أنه مدفون فيه، ولم يكن هذا القبر معروفاً قبل القرن الحادي عشر للهجرة ، حيث رأىٰ أحد ولاة الموصل في ذلك القرن مناماً يدل علىٰ موضع القبر، فبنىٰ الضريح [١] .

ومن المقابر المكذوبة باتفاق أهل العلم القبر المنسوب إلىٰ هود (عليه السلام) بجامع دمشق، فإن هوداً لم يجئ إلىٰ الشام [٢] . وهناك قبر منسوب إليه في حضرموت، وفي **حضرموت** أيضاً قبر يزعم الناس أنه لصالح (عليه السلام)، رغم أنه مات بالحجاز، وله أيضاً (عليه السلام) قبر في **يافا بفلسطين** ، التي بها كذلك مزار لأيوب (عليه السلام) [٣] .

ويونس (عليه السلام) له ضريح **في بلدة حلحول بفلسطين** ، وضريح آخر بقرية نينوىٰ **قرب الموصل بالعراق**، وثالث في غار بضيعة **قرب نابلس بفلسطين**، وكلها يُدعىٰ أن فيها قبره (عليه السلام) [٤] ، **وفي نابلس أيضاً** ضريح الأسباط إخوة يوسف (عليه السلام)، وله (عليه السلام) قبر في مسجد الخليل **بمدينة الخليل بفلسطين**، وفي المسجد نفسه ضريح إبراهيم (عليه السلام)، وكذا: أضرحة تنسب إلىٰ إسحاق ويعقوب (عليهما السلام) [٥] .

ورغم وجود مزار لداود (عليه السلام) في قضاء كلز من أعمال **حلب**

---

(١) انظر: الانحرافات العقدية، ص ٢٨٢ ـ ٢٨٣ .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى جـ ٢٧ ، ص ٤٩١ ، ص ٤٨٤ .

(٣) الانحرافات العقدية، ص ٢٨٣ ، ص ٢٨١ .

(٤) انظر: السابق، ص ٢٨١ ، ص ٢٨٢ .

(٥) السابق، ص ٢٨٢ ، ص ٢٨١ .

بسورية، إلا إن له مزاراً آخر في جنوب غرب صيدا بلبنان، التي في جانبها الشرقي مزار (شمعون) يزعم الناس أنه من أنبياء بني إسرائيل، وله نفسه مزار آخر في قضاء كلّز أيضاً، وفي صيدا كذلك مزار (صيدون) يزعم الناس أيضاً أنه من أنبياء بني إسرائيل(١).

وذكر الفيروزآبادي في تعريفه لبلدة قرب نابلس تسمى (عَوْرَتا): «قيل: بها قبر سبعين نبياً، منهم: عزير، ويوشع»(٢).

وبعد هذا السرد إليك ما قاله شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في نسبة قبور الأنبياء، فقد حكى عن طائفة من العلماء «منهم عبدالعزيز الكناني: كل هذه القبور المضافة إلى الأنبياء، لا يصح شيء منها إلا قبر النبي (ﷺ)، وقد أثبت غيره أيضاً قبر الخليل (عليه السلام)»(٣)، ويقول أيضاً: «وأما قبور الأنبياء: فالذي اتفق عليه العلماء هو قبر النبي (ﷺ)، فإن قبره منقول بالتواتر، وكذلك قبر صاحبيه، وأما قبر الخليل فأكثر الناس على أن هذا المكان المعروف هو قبره... ولكن ليس في معرفة قبور الأنبياء بأعيانها فائدة شرعية، وليس حفظ ذلك من الدين»(٤).

وماذا بعد؟:

ولم يقف الأمر عند حد نسبة القبور زوراً إلى شخصيات لها نصيبها من

(١) نفسه، ص ٢٨١، ص ٢٨٠.
(٢) القاموس المحيط، مادة (ع و ر).
(٣) مجموع الفتاوى، جـ ٢٧، ص ٤٤٦.
(٤) السابق، ص ٤٤٤.

الحب والاحترام لدى الناس، بل وصل الادعاء إلى اختلاق بعض هذه الشخصيات من الوهم والعدم ونسبة الأضرحة إليها ، فمن ذلك : قبر في طريق بلدة (طورخال) بتركيا لصحابي أسموه (كيسك باش!)، وفي معرة النعمان ضريح لرجل يدعى (عطا الله) يزعمون أنه صحابي أيضاً [١] .

وذكر المقريزي أن في القاهرة قبراً على يسرة من خرج من باب الحديد ظاهر زويلة، يزعمون أنه لصحابي يدعى : زارع النوى [٢] .

وفي مدينة الشهداء بمصر ضريح داخل مسجد منسوب إلى (شبل) بن الفضل بن العباس عم الرسول (ﷺ)، رغم أن المصادر العلمية تتفق على أن الفضل ابن العباس (رضي الله عنه) لم ينجب إلا بنتاً واحدة اسمها (أم كلثوم)[٣] .

وأخيراً :

فهذا قليل من كثير مما هو مبثوث في ثنايا الكتب والمراجع ، وربما لا ننتهي إذا حاولنا استقصاء حقيقة نسبة القبور والأضرحة المنتشرة في أنحاء العالم الإسلامي، والتي على فرض ثبوت صحة نسبتها فإن إقامة المساجد عليها وممارسة الأفعال التي اعتاد الناس على القيام بها حولها . . ليس من دين الله في شيء، بل يقع معظمه في دائرة المحرمات بدرجاته المختلفة ، ومنها ما يصل إلى حد الشرك الأكبر المخرج من الملة .

---

(١) انظر : الانحرافات العقدية، ص ٢٩٠ ، ص ٢٩١ .
(٢) حسين أحمد أمين، مرجع سابق.
(٣) انظر : الوثنية في ثوبها الجديد ، سمير شاهين، ص ٨٢ .

ولكن إذا ثبت أن ديننا ينهى عن تلك الأفعال ، وثبت أن سوس الجهل والأوهام يرتع ناخراً في فسطاط الخرافة ، فما الذي يدفع مرتادي الأضرحة والمعتقدين فيها إلى ولوج هذا الكيان والتمسك به ؟ .

الأضرحة في العالم الإسلامي
مشاهد متفرقة

الخرطوم: عثمان محمد سليمان   دكا: عبد الله الشهيد
القاهرة: أحمد محمد   أسمرة: إدريس محمد إدريس

هذه بعض المشاهدات التي أرسلها للبيان بعض الكتاب نضعها بين يدي القارئ ليزداد بصيرة بحجم هذا المرض الفتاك (تقديس القبور والأضرحة) وبالممارسات غير الشرعية التي تقوم بها العامة تحت سمع بعض العلماء وبصرهم ، ومما يندى له الجبين أن بعض العلماء يشارك في هذه الطقوس المبتدعة تحت اسم مولد الولي فلان أو الرجل الصالح علان.

ومن هذا القبيل شد الرحال لما يسمى بالعتبات المقدسة وما يحصل فيها من استغاثات للأموات وتمسح بها. فإنا لله وإنا إليه راجعون.

- البيان -

القبور والأضرحة في السودان :

منذ عصر دولة بني عبيد بن القداح ـ الذين ادعوا زوراً وبهتاناً أنهم فاطميون ـ عرفت البدع الشركية طريقها إلى السودان، وأخذت تنتشر وتستفحل ، ثم زاد الطين بلة وجود التوجهات الصوفية البدعية في عصر الدولة العثمانية ، فأعطت زخماً جديداً لهذه البدع التي أضحت أحد العناصر الأساس في الحياة الاجتماعية لأكثر السودانيين ، قبل أن تأتي الدعوة السلفية وتحاول

الوقوف أمام هذا الطوفان . .

ويقف على رأس هذه البدع : ما يتعلق بالقبور ؛ فقد أصبح اتخاذ القباب والأضرحة على قبور من يُعتقد صلاحهم أحد ذرائع البدع القولية والعملية ، المكفرة وغير المكفرة في حياة الناس .

والقبة عبارة عن بناء شاهق يُتخذ على شكل مخروطي أو نصف كروي ، يقام على قبر من يُعتقد فيه الصلاح والولاية . . ولكن كيف يعرف احتواء هذا القبر على من يعتقد في صاحبه الصلاح أو الولاية؟ . .

يتم ذلك عن طريق ما يسمونه بـ (البيان)! ، فحسب الاعتقاد السائد في السودان : يمكن أن يرى شخص ما رؤية منامية ، يرى فيها شيخاً من الشيوخ ممن ماتوا ودفنوا في مكان ما ، فيرى الرائي أن هذا الشيخ دله على مكان معين و(بيَّن) ، أي : ظهر فيه ، فيبادر هذا الرائي عند استيقاظه بالتوجه إلى ذلك المكان فيرفعه عن سطح الأرض ، وينصب عليه الخرق والرايات ، معلناً أن الشيخ الفلاني بيَّن في هذا المكان ، فيعرف المكان بأنه (بيان) الشيخ الفلاني ، ثم يزار كغيره من الأضرحة والقباب ، وتُعقد له وحوله الطقوس المعروفة بهذه الأضرحة .

ومن حيث أماكن اتخاذها تنقسم القباب والأضرحة إلى قسمين :

أ- قباب تبنى في مقابر المسلمين العامة ، حيث تبدو القبة شاهقة وسط القبور .

ب- قباب تبنى في المساجد ، أو تبنى عليها المساجد ، وقد تكون في قبلة المسجد ، أو في الخلف ، أو في أحد جوانبه .

ومن أشهر القباب والأضرحة في السودان:

* قبة الشيخ/ محمد عثمان عبده البرهاني (شيخ الطريقة البرهانية) بالخرطوم ـ السوق الشعبي.

* قبة الشيخ/ قريب الله، بأم درمان، ودنوباوي.

* قبة الشيخ/ دفع الله الصائم ديمة، بأم درمان ـ أميدة.

* قبة الشيخ/ حسن ود حسُّونة، بالخرطوم بحري.

* قبة الشيخ/ دفع الله الفرقان، بأم درمان، جنوب السوق.

* قبة الشيخ/ أبو زيد، بأم درمان، سوق ليبيا.

* قبة الشيخ/ حمد النيل، بأم درمان.

* قبة الشيخ/ محمد بن عبد الله كريم الدين (شيخ الطريقة المحمدية الأحمدية الإدريسية).

* قبة الشيخ/ إبراهيم ود بلاّل، بالقطينة.

* قبة الشيخ/ الطيب ود السايح، بأبي شنيب، قرب الحداحيد.

* قبة الشيخ/ حمد ود أم مريوم، بالخرطوم بحري، حي حِلّة حمد.

* قبة الشيخ/ خوجلي أبو الجاز، بالخرطوم بحري، حلة خوجلي.

* قبة الشيخ/ صديق ود بُساطي، غرب النيل الأبيض.

* قبة الشيخ/ طه الأبيض البطحاني، بشمال الجزيرة.

* قبة الشيخ/ الطريفي ود الشيخ يوسف، بأبي حراز.

* قبة الشيخ/ عبد الرحيم ود الشيخ محمد يونس، بأبي حراز.

وجدير بالذكر أن منطقة أبي حراز بها ما يقارب (٣٦) قبة، من أشهرها - إضافة إلى ما سبق -:

* قبة الشيخ أحمد الريح، وقبة الشيخ دفع الله المصوبن (أبو النعلين).

وقد لوحظ على بعض القباب أنها حظيت برعاية بعض القادة السياسيين، مثل قبة الشيخ يوسف أبو سترة، التي شيدت برعاية الرئيس الأسبق جعفر محمد نميري، وكذلك قبة الشيخ مدني السني، بمدينة ود مدني، كما لوحظ أيضاً عدم اقتصار اتخاذ القباب على قبور المعظمين في المسلمين، بل من شدة الجهل والغفلة اتخذت قبة على مقبرة (الرفيق) الصيني الشيوعي يانغ تشي تشنغ، في ود مدني، ولوحظ كذلك: أن بعض هذه القباب يتوسط المساكن.

و في إريتريا:

من أشهر الاضرحة التي يرتادها الناس:

* ضريح الشيخ بن علي بقرية (أم بيرم) القريبة من مدينة مصوع الميناء الرئيس لإريتريا.

* ضريح سيدي هاشم الميرغني وبنته الست علوية بمدينة مصوع، وعلى كل من هذين القبرين مبنى مستقل على شكل مكعب ومغطى بالقماش مثل الكعبة، وفي كل زاوية منه خشبة مستديرة الشكل يتبرك بها بعد الانتهاء من الطواف بالقبر!

* ضريح الشيخ جمال الأنصاري، وله وقت مخصص لزيارته، وإن كانت أهميته لدى الناس أقل من سابقيه.

* ضريح جعفر، وقد بني عليه مسجد، ويقوم المصلون في المسجد بزيارته

بعد كل صلاة مفروضة.

* ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وهو ضريح وهمي في قرية (حوطيت) بالقرب من مدينة جندع على ساحل البحر الأحمر.

* ضريح الشيخ الأمين المقام في أحد مساجد مدينة (أسمرا) العاصمة.

* ضريح سيدي هاشم في مدينة (كرن) التي تقع على الساحل الجنوبي من إريتريا، وهو يعتبر من أكبر المشاهد التي يقصدها الناس من أنحاء عديدة في البلاد، بل ومن الدول المجاورة كالسودان.

* ضريح أحمد النجاشي في (عدي قرات) التي تقع على الحدود الإريترية الإثيوبية، وله يوم محدد (مولد) يقصده الناس فيه من أنحاء إريتريا وإثيوبيا.

بنجلاديش:

ولا تختلف الصورة كثيراً في شرق العالم الإسلامي حيث تنتشر الأضرحة و(المزارات)، ففي بنغلاديش، خاصة في مدن داكا (العاصمة)، وشيتاغونج، وسلهت، وخولنا، ولكن من الغريب ارتياد الناس لمزارات يوجد بها سلاحف وتماسيح يعتقد فيها بعض الجهلاء النفع والضر، فيقدمون الأكل لها أملاً في الحصول على وظيفة أو لتفريج كربة، وتحرص بعض النساء على مس هذه الحيوانات أملاً في حدوث الحمل والرزق بالذرية، وقد نتجت هذه الاعتقادات والممارسات عن الزعم بأن هذه الحيوانات تحولت إلى هذه الصورة بعد أن كانت من الأولياء الصالحين! وهناك أيضاً مزارات تحتوي على أشجار يعتقد فيها، وتعلق على أغصانها الخيوط والخرق.

ويولي المعتقدون في هذه الأضرحة والمزارات اهتماماً كبيراً بعمارتها

ومظهرها حيث تكون المباني مزخرفة ومزينة، ولكل قبر قبة مبنية بأحجار قيمة، وتقوم على أمر هذه المزارات لجنة تضم أصحاب السلطة والمنتفعين من ورائها؛ حتى أصبح حالنا وحال هذه الأضرحة كما قال الشاعر المصري حافظ إبراهيم:

أحياؤنا لا يرزقون بدرهم   وبألف ألف يرزق الأموات

من لي بحظ النائمين بحفرة   قامت على أحجارها الصلوات

تعددت المظاهر والانحراف واحد:

يعتبر الغلو والبدع والانحراف عن التوحيد الخالص عوامل مشتركة بين مرتادي الأضرحة والمعتقدين فيها وإن تنوعت المظاهر حسب بيئة كل بلد وعادات أهله.

ففي إريتريا: يقصد كثير من القبوريين الأضرحة حاملين معهم الأغنام والأبقار والسكر والقهوة والشاي وغيرها من أنواع الأطعمة إضافة إلى الأموال؛ ليقدموها قرباناً إلى صاحب الضريح، وقد يذبحون الأنعام تقرباً أيضا للولي أو الشيخ، ويطوفون بالقبر ويتمرغون بترابه، ويطلبون قضاء الحوائج وتفريج الكربات منه، كما يحصل من الفساد الأخلاقي حول الأضرحة ما يستحيي الإنسان من ذكر تفاصيله وخاصة الاختلاط وانتهاك الأعراض، وتكثر هذه الممارسات حول الأضرحة الشهيرة، كضريح الشيخ (بن علي)، وضريح سيدي هاشم الميرغني وبنته الست علوية، وضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني، وضريح سيدي هاشم، وضريح أحمد النجاشي.

ويزداد الأمر سوءاً **في السودان**؛ حيث يحرص أتباع هذه الأضرحة والمنتفعون منها على التأصيل لهذه الانحرافات، فتلقى المحاضرات وتؤلف

الكتب في الحث على ذلك، ومن أشهرها:

رسالة عبد الله المحجوب الميرغني، المتوفى سنة (١٢٠٧هـ)، واسمها: (تحريض الأغبياء على الاستعانة بالأنبياء والأولياء)، يقول فيها:

«ولهذا يتبين لك (وجوب) التعلق بالوسائل والأسباب، وتأكد لزوم التزام الوسائط والأبواب، فتعلق بالوسائل والأسباب، والجأ واستغث، وانده [من النداء] لخواص الله والأحباب، واطرق لدى الخطوب ما شئت من الأبواب، تنل بذلك من فيض الوهاب ما لا يدخل في حساب».

ونتج عن إشاعة هذا الاعتقاد والدعوة إليه أن تأثيره لم يقتصر على الطرقيين فقط، بل امتد ليشمل جماهير عريضة في الشعب السوداني، وهذا ما شاهدته بنفسي أثناء مطالعتي لتلك المزارات، فهناك عادات ارتبطت بتلك القباب، يقوم بها روادها، منها:

١ - ينبغي أن يخلع الزوار نعالهم خارج القبة، وبعضهم يخلعها خارج ساحة المسجد، احتراماً لصاحب الضريح. وعلى أية حال: فمن المسلَّم به عندهم أنه لا يجوز دخول القبة بالنعلين.

٢ - يتم دخول القبة بإذن من حارسها، كما يتولى خادم الضريح (تطويف) الزوار.

٣ - يتبرك الزوار بالضريح والقبة بطرق شتى: فمنهم من يأخذ من ترابها، ومنهم من يضع يديه على السياج المعدني الذي حول القبر ويتمسح بها، ثم يمسح على جسده وملابسه.

٤ - الطواف داخل القبة حول القبر من الممارسات الشائعة والمألوفة عند

هؤلاء الزائرين.

٥ ـ وكذلك دعاء المقبور والاستعانة به والإلحاح عليه في الدعاء، فقد رأيت بعض الزائرين يجلس عند القبر ممسكاً بسياجه، ويلح في طلب حاجته، وأحياناً يصرخ، وبعضهم الآخر يدعو المقبور أثناء الطواف حول القبر، ومما يندىٰ له الجبين أن امرأة شوهدت عند قبة الشيخ عبد الباقي تحمل طفلاً، ترفعه بيديها وتهزه وهي تخاطب الشيخ المقبور راجية منه البركة في صغيرها، ثم تقول: «يا شيخ. . سمعت؟» لتتيقن سماعه وقضاء حاجتها!

٦ ـ ومنهم من يلتزم القبر بداخل القبة، ويصيح عنده ويجأر به.

٧ ـ ورأيت من يسجد وهو مستقبل القبة ـ نسأل الله السلامة ـ.

٨ ـ ومن المعتاد: تقديم النذور عند هذه القباب.

٩ ـ ومن الناس من يعكف عندها أياماً وشهوراً، التماساً للشفاء أو لقضاء حاجة من حوائجه، وقد أُلحقت ببعض القباب غرف انتظار الزائرين لهذا الغرض.

١٠ ـ وقد لوحظ أن زيارة القباب تتم في جميع أيام الأسبوع، وتزداد في أيام الجمع والأعياد؛ حيث يكتظ كثير من القباب بالزوار في هذه المناسبات، كما لوحظ اختلاط الرجال والنساء في هذه الزيارات، وأن معظم الزائرين من النساء.

وفي بنجلاديش يأتي الناس إلىٰ المزارات ويظنون أنها أقدس مكان علىٰ وجه الأرض، لذا: فهم يسجدون أمام الأضرحة إجلالاً لها واحتراماً، ويطلبون من أصحابها الذرية ودفع المصائب وتفريج الكروب، كما يقدمون لهم النذور من

الأموال والحيوانات كالغنم والبقر التي تذبح باسم صاحب القبر، وأخيراً ينصرفون وهم يظنون أنهم فعلوا خيراً كثيراً؛ لأنهم يعتقدون أن لأصحاب هذه الأضرحة يداً في تصريف الأمور، بل وفي إدخالهم الجنة. ويكون عدد المترددين أكثر بعد العصر وخاصة ليلة الجمعة.

وينتشر حول هذه الأضرحة بعض القبوريين الذين يعيشون في ساحاتها ويلازمونها، وهم صنفان من حيث مظهرهم:

الأول: أناس أصحاب هيئة رثة لا يلبسون إلا القليل من الملابس، التي تكاد ألا تستر غير عوراتهم، ويطلقون شعورهم ولحاهم وشواربهم التي بدا عليها التلبد والقذارة، فهم لا يغتسلون من أوساخهم ولا ينظفون ملابسهم.. ومع ذلك يختلط الناس بهم طلباً للبركة منهم، وتبيت معهم النساء، ولا يتحرزن عن معاشرتهم.

الثاني: يهتمون بمظهرهم وينظفون ملابسهم إلى حد ما، يجلس الواحد منهم في ساحة الضريح وحوله الناس ينادونه بكل شوق ورغبة باسم (بابا)، وهم دائماً يحققون ما يأمر به، وتبيت النساء أيضاً عنده من غير تحرز عن ارتكاب الفواحش معه، حيث يتناولون المخدرات والمسكرات ويغنون بإيقاع خاص أشعار الشرك والفجور، ولا يتورعون عن ارتكاب الزنا.

وفي مصر تلقى الأضرحة احتراماً وتبجيلاً لدى كثير من الناس، حيث يندفع أكثرهم لا شعورياً للقيام ببعض الممارسات المتنوعة والمتعلقة بهذه الأضرحة، وتبدأ هذه الممارسات بالحرص على الصلاة في المسجد الذي به الضريح، ثم الحرص على زيارته وترديد بعض الكلمات والصلوات والدعوات. وبالطبع فإن هذا الحرص يتفاوت حسب شهرة الضريح ومكانته في نفوس الناس وحسب دوافع

الزائر له، ويلي ذلك: التمسح بالضريح وتقبيله طلباً للبركة، ويليه: التوسل بجاه صاحب الضريح اعتقاداً أن ذلك أقرب إلى إجابة الدعاء، ثم ينتهي المطاف ببلوغ غاية الضلال والخرافة عندما يتوجه إلى صاحب الضريح بالدعاء والرجاء وطلب قضاء الحاجات منه، وغالباً ما يصحب الدعاء استقبال للضريح حتى ولو كانت القبلة خلف ظهره، كما يظهر على الزائر الخشوع والسكينة والتأثر الذي قد يصل إلى حد البكاء، وقد يصل الولع والوجد ببعضهم إلى الإغراق في حالة من انعدام الوعي، فيصبح (مجذوباً).

وعادة ما يضع الزائر بعض ما تجود به نفسه في صندوق النذور صدقة أو قربة لصاحب الضريح.

ومن الملاحظ أن طبيعة النذور المقدمة تطورت من الماضي إلى الحاضر، كما أنها تختلف بحسب وجود الضريح في وسط قرى ريفية أو وسط تجمعات عمرانية حضرية.

ومن الملاحظ أيضاً: أن حركة الناس في الدخول إلى الضريح والخروج منه تختلف حسب مكانة صاحب الضريح، ولكنها عموماً تزداد في أوقات الصلوات، وهذا بالطبع بخلاف أوقات الموالد التي تعج بالزائرين.

وماذا عن الموالد؟:

تكثر الموالد في مصر، ويشتهر منها: المولد النبوي، ومولد البدوي - الذي حضره عام ١٩٩٦م حوالي ٣ ملايين زائر، حسب تقرير الحالة الدينية في مصر الصادر عن مركز الدراسات الاستراتيجية -، ومولد إبراهيم الدسوقي، ومولد أبي الحسن الشاذلي، ومولد المرسي أبي العباس، ومولد أبي الحجاج الأقصري،

ومولد إبراهيم القنائي.

والاحتفال بالمولد النبوي ـ كغيره من الموالد ـ يغلب عليه مظاهر الاحتفال الشعبي الفولكلوري المصطبغ بالصبغة الدينية، ويشترك مع غيره من الموالد في سمة حضور جمهور كبير من أنحاء متفرقة، وإقامة بعضهم حول أحد الأضرحة، وإنشاد المدائح الخاصة بصاحب المولد، مع نشاط اقتصادي واجتماعي حول الضريح، إضافة إلى ما سبق أن ذكرناه من ممارسات وطقوس يقوم بها الزائر تجاه صاحب الضريح. وتعجب أشد العجب أن تجد بعضاً ممن ينتسب إلى العلم والدعوة يحضر بعض هذه الموالد، بل ويروج لها عند العامة، ولا يتورع عن ممارسة بعض البدعيات المحدثة، فيكون قدوة سيئة للجهلة، نعوذ بالله من الخذلان.

ويوم الاحتفال بالمولد النبوي يكون إجازة رسمية في البلاد، ويقام بصفة رسمية في كل محافظة بمصر حيث تشرف عليه السلطات لضمان سيره بانتظام وأمان، ويقام المولد في ساحة عامة بجوار أحد المساجد الكبيرة غالباً، وعادة يكون المسجد ضريحاً لأحد الأولياء المشهورين، وقبل المولد تهيأ الساحة والشوارع بالزينات والأضواء، ويستعد أصحاب كل نشاط بما يلزم من جلب البضائع ونصب الملاهي، ويزدهر نشاط الباعة والمحلات وبخاصة أنشطة بيع الحلوى والألعاب وأنشطة المقاهي والمطاعم وبيع الأدوات المنزلية، وتزدحم الفنادق، وهي غالباً ذات مستوى متدنٍ. ويشيع جو من المرح والضجيج في مكان المولد.

وقد شاهد مندوب البيان احتفال (الليلة الكبيرة) للمولد النبوي في القاهرة، حيث سار موكب ممثلي الطرق الصوفية لمدة (٤٥) دقيقة تقريباً مشياً على

الأقدام حاملين الأعلام والرايات في جو من البهجة والاحتفال بدءاً من ضريح الشيخ صالح الجعفري بمنطقة الدَّرَّاسة إلىٰ مسجد الحسين، وهناك وجدوا في انتظارهم بعض المستقبلين، علىٰ رأسهم شيخ مشايخ الطرق الصوفية، فقاموا بالسلام عليه وقراءة الفاتحة والدعاء جماعيّاً.

ويشهد هذا الاحتفال أيضاً كبار رجال الدولة أو ممثلون عنهم، وعلىٰ رأسهم شيخ الأزهر ومفتي الديار المصرية ورئيس جامعة الأزهر ووزير الأوقاف ومحافظ القاهرة؛ حيث يلقي معظمهم كلمات في الاحتفال، كما يشهد حضوراً إعلاميّاً واضحاً من صحافة وإذاعة وتلفاز.

وبعد نهاية الاحتفال الرسمي ينصرف أتباع الطرق الصوفية لإلقاء أناشيدهم ومدائحهم وأذكارهم في أماكن معدة لذلك سلفاً، ويستمرون في ذلك حتىٰ منتصف الليل تقريباً.

ولا تختلف نوعية زوار المولد النبوي عما ذكره (تقرير الحالة الدينية بمصر) عن زوار مولد البدوي، فهم يشملون:

* فريقاً هدفه إحياء ذكرىٰ المحتفل به.

* وآخرين يحرصون علىٰ التبرك، ومنهم البسطاء والفقراء والأغنياء، الأميون والمثقفون، ويرىٰ هؤلاء أنه إذا لم يتمكنوا من الحضور لأي سبب، سواء أكان بإرادتهم أو رغماً عنهم، فسيصيبهم أذىٰ أو ضرر، ويعتقدون أن الزيارة ستفتح أبواب الرزق أمامهم، بل وتغمرهم بسعادة بالغة.

* ومنهم من كان مريضاً جاء لطلب الشفاء، أو من كانت عاقراً وعقيماً تأمل في تحقيق أملها بإنجاب طفل.

* وفريقاً آخر يبحث عن الترفيه والسياحة وقضاء وقت ممتع، وهم الفئة الشبابية.

* وهناك نمط آخر من الزوار يهدف للتسويق والتجارة سواء بالبيع أو الشراء.

وبالإضافة إلىٰ ذلك: هناك الجمع الغفير من أتباع الطرق الصوفية، هدفهم إحياء الذكرىٰ ونوال البركة ونشر طريقتهم الصوفية.

أما عن المشاركة بين المسلمين والأقباط فهي قديمة جداً؛ إذ إن التاريخ يذكر أن ابن طولون كان يقيم الولائم وكان المسلمون يحتفلون بالأعياد القبطية مشاركة للأقباط، وسار علىٰ نهج الطولونيين الإخشيديون في الاحتفال بأعياد النصارىٰ.. ولا تزال هذه المشاركة موجودة حتىٰ عصرنا الراهن! ومن أغرب الأمور بهذا الصدد؛ أن مولداً يقام سنوياً باسم (مولد سيدي أبي حصيرة) وهو يقام عند ضريح لرجل يهودي بهذا الاسم، وتأتيه كل عام وفود كبيرة من السياح اليهود من إسرائيل، وتقام حراسة مشددة لحماية الاحتفال حتىٰ ينفض!!

وفي السودان يتم الاحتفال بالمولد النبوي في صورتين:

الصورة الأولى: الاحتفال في الميادين والساحات:

وقد تأصل هذا النوع من الاحتفالات حتىٰ خصصت لها ميادين معينة، عرفت بميادين المولد؛ ففي كل مدينة ميدان يسمىٰ ميدان المولد الكبير، وهو ساحة متسعة مخصصة لهذا الغرض، وتلتقي فيه كل الطرق الصوفية المشتركة في الاحتفال بالمولد، وتتم المشاركة فيه بعد الحصول علىٰ تصديق رسمي من الدولة يتم بموجبه السماح للطريقة المعينة بنصب سرادقها في المكان المخصص لها في

ساحة المولد، وعمل تجهيزاتها اللازمة لها..

وتقوم كل طريقة بعمل الأذكار التي تخصها والمدائح المتعلقة بالمولد، كما تتم قراءة الكتب المؤلفة في المولد النبوي في شكل حلقات تشبه حلقات تلاوة القرآن، وعند مرورهم بمواطن معينة في هذه الموالد المؤلفة يقف الحاضرون اعتقاداً منهم أن النبي (ﷺ) يحضر عند ذكر ولادته، ويرددون في صوت واحد عبارة «مرحبا بالمصطفى يا مرحبا...» وفي بعض المواضع من القراءة يضعون الأيدي على الرؤوس، وفي مواضع أخرى يضربونها أو يوجهونها نحو الأرض عند الاستعاذة من بعض الأمراض أثناء قراءة المولد.

وفي المولد يضربون أيضاً على الطبول الكبيرة (النوبة) التي تصدر أصواتاً قوية، ويرددون معها القصائد الملحنة كنوع من الذكر الذي يُتقرب به إلى الله.. وكل هذا مع الحركة والاضطراب الشديد، وربما دار أحد الدراويش على رجل واحدة وهو (يترجم)، أي: يصدر أصواتاً لا تفهم، فيوصف بأنه غرق في الذكر.

ويزداد الزحام في الليلة الأخيرة، ويكون الناس في هذه الساحات خليطاً من الرجال والنساء، وقد شاهدت في أحد الموالد نساءً يصفقن ويتحركن مع رجال يضربون هذه الدفوف (النوبة) حتى انتهين إلى أحد السرادقات المقامة وهن يصفقن على أصوات المديح، ويتحركن على صوت ضربات الطبول، إلى أن يستقبلهن شيخ ممسك بمسبحته وهو يهز رأسه استحساناً لهذا الصنيع.

أما الصورة الثانية للمولد: فهي الاحتفال به في المساجد والزوايا الخاصة:

وفيها يتم قراءة كتاب المولد المؤلف لكل طريقة، وإطعام الطعام لا سيما في

الليلة الختامية، ويكون صبيحة هذه الليلة عطلة رسمية في البلاد بمناسبة ميلاد النبي (ﷺ).

وفي بنجلاديش:

تكون الاحتفالات حول الأضرحة أسبوعية وسنوية، حيث تعتبر ليلة الجمعة عيداً أسبوعيّاً حول الضريح يأتي إليه الزوار من جميع الأصناف: أغنياء، وفقراء، ومسؤولين في الحكومة، وغيرهم، ويشاركون في المعاصي من شرك واختلاط وغناء وتكون الفرصة مهيأة للفاحشة والزنا، ويستمر هذا الاحتفال حتى الصباح، ويكون لكل (بابا) مجلس خاص ويتحلق حوله مريدوه.

وبمثل هذا ـ ولكن بشكل موسع ـ يتم الاحتفال السنوي الذي يسمى (عرساً) تحت إشراف لجنة نظامية حكومية، ويستمر مدة أطول قد تصل إلى أسبوع، فيجتمع الناس من أماكن مختلفة بعيدة حاملين معهم نذورهم من ماشية وأموال، وتنتشر كل مجموعة حول صاحب بدعة (البابا) الذي يرتدي ملابس غير ساترة مدعين أنهم وصلوا إلى مرتبة تؤهلهم لعدم الامتثال لشريعة الله، ويصدقهم الجهلاء في ذلك، ويشيع في هذه الاحتفالات شرب الخمر والمخدرات ولعب الميسر والخرافات إضافة إلى ترك الصلاة، وأيضاً السجود لغير الله، وغير ذلك من الشرك الصريح.

كما يحضرها كذلك كبار المسؤولين والأغنياء والفقراء على حد سواء، وبعض هؤلاء من يشاركون (البابات) الإثراء والمنافع المادية الكبيرة من وراء رواج سوق الخرافة حول الأضرحة.

ونلاحظ أن أهل البدع ينقسمون أقساماً عدة في ممارساتهم البدعية:

فمنهم: أناس لا يؤدون الشعائر ويلبسون الملابس القصيرة، ولا يهتمون

بنظافتهم، ويقيمون في بيوت أتباعهم حفلات أسبوعية كل ليلة جمعة، يبدؤون الحفلة بما يسمونه (ذكر الله) بصوت مرتفع، ثم ذكر شيء من سيرة السيدة فاطمة الزهراء والحسن والحسين - رضي الله عنهم - ثم يوردون بعضاً من أخبار عبد القادر الجيلاني، ثم بعد ذلك يدخلون في ذكر جماعي مختلط، تنزع فيه النساء الحجاب؛ لأنهن يزعمن أن الحجاب الأصلي هو الحجاب الداخلي في القلب، فلا حاجة للحجاب الخارجي، ويرقص الجميع مع الموسيقى، ثم تُطفأ الأنوار، ويحدث ما يحدث.

ومنهم: من يدعي أنه يؤمن بالله ورسوله وأنه محب للرسول (ﷺ) ويطيل شعره ولحيته ويلبس الملابس البيضاء، وهو مع ذلك لا يصلي ويستحل الغناء والموسيقى، ولكنه لا يصل إلى أفعال القسم الأول، ويظن أنه بهذه الأفعال يدخل الجنة.

ومنهم: من يصلي ويصوم ويدعي أنه أقرب الناس إلى الله، ولكن مرشده لا يشدد عليه لاتباع الشريعة كلها، ويكتفي ببعض النصائح فقط، وأتباع هذا الشيخ يظنون أنه أقرب الناس إلى الله، وأن له قدرة على تفريج كروب الدنيا والآخرة، ويقبل الناس قدمه ويسجدون عليها من غير إنكار منه؛ لأنه مستفيد من وراء استمرار هذه الأوضاع في الأعراس وغيرها.

نسأل الله (عز وجل) أن يجنبنا الفتن ويهدينا وإياهم سواء السبيل.

من لهذه الوثنية المتعددة ؟

الشيخ : إسماعيل بن سعد بن عتيق

كتب الله لي أن أزور كثيراً من عواصم العالم الإسلامي ، ورأيت في كل صقع من أصقاعه من يتهافت على تلك الأوثان : حبّاً وتعظيماً وخشية وإنابة وتضرعاً وافتقاراً، ولا حرج في التمثيل وذكر بعض الأمثلة لتلك الدول التي تبنت الإسلام شعاراً لا عقيدة. ومع الأسف فهي محسوبة على الإسلام ! ! والله المستعان .

وأترك أسماء المدن لفطنة القارئ ؛ ليستنتج مواقع هذه الأوثان ومواطنها .

١ ـ قبر مزعوم للحسين يحج له الناس ، ويتقربون إليه بالنذر والقربات ، وتجاوز ذلك إلى الطواف به ، والاستشفاء ، وطلب قضاء الحاجات عند الملمات .

٢ ـ السيد البدوي له مواسم في السنة أشبه بالحج الأكبر ، يقصده الناس من خارج البلاد وداخلها ، سنة وشيعة . .

وهذان نموذجان في دولة واحدة من أقدم الدول العربية والإسلامية في التعليم النظامي ، وفيها أكبر مؤسسة تعليمية نظامية منذ القرن الثالث الهجري ، والتي كان لدعاتها وعلمائها الأثر الطيب في نشر الإسلام والدعوة إليه ، ولكن كما قيل :

كالعيس في البيداء يقتلها الظمأ   والماء فوق ظهورها محمول

٣ ـ جلال الدين الرومي الذي كُتب على قبره ومزاره : صالح للأديان

الثلاثة : المسلمين واليهود والنصارىٰ ، ويُدعىٰ هذا الوثن بالقطب الأعظم ، وفعلاً كان قطباً تدور عليه أفلاك أرباب المصالح الدنيوية ، طلاب الشرف باسم الدين المزوَّر ، وقد لقي كل تشجيع وتقديس من الأيدي الخفية ، لإبقاء شعلة الوثنية وقَّادة في العالم الإسلامي ، فقبر جلال الدين الرومي في دولة ضمت الإسلام ثمانية قرون علىٰ أيدي السلاطين المسلمين ، ليسوا بالعرب ولا العرب منهم ، ولكنهم المسلمون الذين تنبأت الرسالة المحمدية بظهورهم فكان في ظهورهم دلالة من دلائل النبوة ، وغير جلال الدين الرومي كثير وكثير في هذه الدولة التي أضحت دولة علمانية تحارب كل ما هو إسلامي حتىٰ أصبح الإسلام غريباً في بحور المادة .

٤ ـ محيي الدين بن عربي صاحب « فصوص الحكم » والمعتقد بوحدة الوجود والحلول والاتحاد وزعيم الفلاسفة القائلين بهذه البدعة المكفرة ، أقول : إن مزاره وثن يعبد ويقدس في عاصمة دولة كانت عاصمة الخلافة الأموية ، ولا يزال في أهلها الخير ـ إن شاء الله ـ ، غير أن الفتنة بهذا الوثن تزداد يوماً بعد يوم ، وقفت علىٰ باب القبة لأرىٰ وأعتبر ، وكنت أحمل حذاءً في يدي ، فأنكروا عليَّ بالإجماع : كيف تقرب من المقام وفي يدك حذاؤك ؟! احتراماً وتقديساً للولي ! ، إنها لعبرة وعظة لأهل التوحيد والإيمان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

٥ ـ داتا صاحب (مقبرة علي الهجوري) في المشرق الإسلامي ينتابها الزوار في كل صباح ومساء ، ومن عجيب ما شاهدته أن له يوماً في العام تراق عليه الألبان حتىٰ لا نجد في الأسواق لبناً يباع ويشترىٰ ، وله يوم في العام يغسل بماء الورد والطيب أسوة بالكعبة المشرفة ، يتشرف بتغسيله السادة والقادة في البلاد ، وليتك ترىٰ ما يصنع حول هذه المقبرة من منكرات أخلاقية فضلاً عن

العقدية، وحولها الرقص والدف والاختلاط، والتبرك بسدنة هذه المقبرة يفعل ما لا يجوز ذكره، وفي هذه الدولة حزب سياسي يزعم أنه إسلامي ، قد فتح باب الخرافة والبدع على مصراعيه، ويحكى أن وزير أوقاف هذه الدولة شكى لرئيس الدولة عجز الميزانية في وزارته ، فاتفق الرأي على إيجاد باب الجنة يفتتح دخوله الأعيان والرؤساء، ثم تباع التذاكر للسواد الأعظم من جهلة المسلمين، على أن من دخل هذا الباب فقد دخل الجنة، وبهذا زال العجز المالي بفضل هذه التذاكر وصكوك الغفران!

ولعل القارئ يتساءل كيف يحصل هذا في دولة نالت استقلالها لتقيم حكم الشريعة في دولة إسلامية مثالية في المشرق الإسلامي؟ كيف يحصل هذا في دولة ضحت بالكثير في سبيل الاستقلال ومحاولة تطبيق الشريعة الإسلامية؟، ولا أكون مبالغاً إذا قلت: إن نسبة أهل البدع والخرافة تزيد على (٨٠٪) ما بين متصوف وقبوري وأصحاب نحل تنتمي إلى الإسلام : كالقاديانية والبهائية والإسماعيلية الباطنية . أما وثنية القبور فكثيرة، ومنها مدينة تعرف بمدينة القبور والتمور والفقر والإفلاس، أعاذنا الله وإياكم من خسارة الدين والدنيا . . ولا أريد أن أستطرد، فهذا مثال للعبرة والفطنة لنقول: من لهذه الأوثان المتعددة ؟ ثم انتقل بك إلى قطاع آخر في عالمنا الإسلامي .

٦ ـ مقبرة أحمد التيجاني زعيم طائفته ورائد التضليل الذي شرع بمشورة الفرنسيين الطريقة المنسوبة إليه، والقائل: إن جوهرة الكمال أفضل من القرآن الكريم سبعمئة مرة، وكذا صلاة الفاتح، وهما وردان ترددهما الطائفة التيجانية صباحاً ومساءً، ويكتفون بقراءتهما وتلاوتهما عن القرآن الكريم . مقبرة زعيمهم أحمد التيجاني وثن يعبد من دون الله ، ويحج له الناس تعبداً لنيل البركات .

٧ ـ مقبرة عثمان فودي الذي صمم على قبره بناية أشبه بالكعبة ، وكسيت بالحرير الأسود ، وحينما سئل أحد أحفاد هذا المصلح قال : وضعت هذا أسوة بقبر أحمد التيجاني . ومع أن الإمام عثمان فودي كان ممن أقام به الله الدين ، وتبنَّىٰ دعوة إصلاح أشبه بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب إلا أن طريقته قادرية ، ثم تحول أتباعه إلىٰ التيجانية .

وبعد :

فهذه سبعة نماذج من المشرق الإسلامي ومغربه وأوسطه ، تعطي أمثلة عن اتجاه العالم الإسلامي وعقيدة الإسلام الصحيحة ، ولا ننكر أن هناك منظمات وجمعيات وأحزاباً كلها تدعو إلىٰ الإسلام ، ولكن أي إسلام هو؟ اتجهت طائفة إلىٰ محاولة إيجاد الدولة الإسلامية لتنفيذ التشريع والأحكام ، وكانت أخرىٰ تتبنىٰ السلوكيات والتعبد من غير دخول في السياسة ولا شعابها الملتوية ، وهاتان الطائفتان فشلتا في تطبيق شمولية الإسلام والإيمان بقاعدته التوحيدية ، والعالم ينتظر منطلق الدعوة المحمدية ـ المبنية علىٰ توحيد الله وطاعته واتباع رسوله (ﷺ) في كل دِقٍّ وجِلٍّ والدولة الإسلامية المنفذة لأحكام الله وشرعه علىٰ أساس من التوحيدية والتصديق والتجرد من كل شائبة بدعة أو شرك .

أقول مرة أخرىٰ : من لهذه الوثنية المتعددة؟ .

أفيون الشعوب الإسلامية

(النتائج والآثار)

خالد أبو الفتوح

عندما أطلق ماركس عبارته الشهيرة « الدين أفيون الشعوب » لاقت رواجاً بين كثير من الشعوب الأوروبية ، حيث كانت تتلطخ في أوحال النصرانية المحرفة المشبعة بالوثنية الرومانية والفلسفة الإغريقية التي آلت إلى طغيان كنسي شامل سيطر على عقول الناس وأرواحهم وأموالهم ونظم حياتهم ، صاحبه فساد خلقي واسع لرجال الكنيسة واستعباد لأتباعهم وصل إلى حد توزيع قسائم حجوزات في الجنة (صكوك غفران) مقابل أموال يدفعها الراغبون ، مستغلين في ذلك شيوع الخرافة والدجل بين هذه الشعوب .

وجدت مقولة « ماركس » رواجاً بين هذه الشعوب التي أرادت أن تنعتق من طاغوت الكنيسة ، فكفرت بما ينبغي الكفر به ، ولكنها ـ بدلاً من الإيمان الصحيح بالله ـ انتقلت إلى عبادة طاغوت جديد قديم شعاره : تقديس المادة والعقل .

وما كان للإسلام أن تطوله هذه الشطحات أو تلك الخزعبلات ؛ فهو من جهة يعلي قيمة التفكر والتدبر ويراعي الحاجات الطبيعية التي غرزها الله في بني الإنسان والتي تمثل عوامل الدفع للاستخلاف في الأرض وعمارتها ، ومن جهة أخرى : فإن العروة الوثقى في دين الله تعني بكل وضوح : الإيمان بالله والدخول في عبوديته وحده لا شريك له ، وذلك لا يتم إلا بالخروج من عبادة

كل مخلوق والخضوع له، حيّاً كان أو ميتاً، تقيّاً كان أو فاجراً، عظيماً أو حقيراً، غنيّاً أو فقيراً . . ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقر: ٢٥٦] . . . (الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد [كل العباد] إلى عبادة الله) .

وعلى الرغم من وضوح هذه القيم في النصوص الشرعية وممارسات الرعيل الأول وأتباعهم، إلا إنه في غفلة من أهل الإسلام تسلل رويداً رويداً انحراف عقدي وشذوذ فكري أخذ ينخر في جسد الأمة، فعشش في عقول كثير من أبنائها وتربع على قلوبهم حتى أفرخ وثنية سافرة حيناً ومستترة أحياناً . . أعني بذلك : داء تقديس القبور والأضرحة والمزارات !، ذلك الداء الذي فعل في أمة الإسلام - أو كاد - ما فعلته خرافات الكنيسة وطغيانها بأمة النصارى . . أفيون اجتماعي مدمر للشعوب تماثل آثاره - إن لم تزد عليها - آثار أفيون المخدرات المدمر للأفراد مع تغييبهم وتخديرهم . .

فما هو حصاد السنين من نتائج وآثار تقديس القبور والأضرحة ؟ .

أصل الانحرافات وأخطرها :

من الصعب على الباحث أن يحصر آثار تقديس القبور والأضرحة، ولكن هناك آثاراً يمكن إبرازها؛ لخطورتها، ولكونها تعتبر أمات لانحرافات أخرى نتجت عن هذا الداء، ويقف على رأس هذه الآثار : أظلم الظلم : الشرك بالله (تعالى)، فالراصد لأحوال القبوريين يلحظ بوضوح انتشار الشرك بينهم بجميع أنواعه وصوره ودرجاته . . شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية، وشرك في الأسماء والصفات . . شرك أكبر، وشرك أصغر . . . وما أدراك ما يحدثه الشرك من آثار نفسية واجتماعية على الفرد والمجتمع ! .

فمن شرك الربوبية ظهر واضحاً اعتقاد القبوريين في الأضرحة وأصحابها: أنهم يسمعون ويبصرون ويجيبون من يتوجه إليهم، وأنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، وأن لهم قدرة في التصرف والتأثير في الكون بما ليس في طاقة البشر: كالخلق والإفناء، والإحياء والإماتة، وشفاء الأمراض، والنفع والضر، والعطاء والمنع، والإغناء والإفقار، وتحويل الأشياء عن حقيقتها...

كما زعم القبوريون أن في الأضرحة وأصحابها القدرة على الرفع والوضع في الدنيا والآخرة، وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، ومحو الذنوب وغفرانه...

وبناءً على هذا التصور المنحرف في الربوبية نشأ شرك الألوهية، حيث توجه القبوريون إلى الأضرحة وأصحابها بالعبادات والتقربات التي لا يصح صرفها إلا لله (عز وجل)، ففضلاً عن تبركهم بها على وجه غير مشروع وجعلهم إياها عيداً ومنسكاً حتى إنهم ليحجون إليها... فإنهم عظموها كما لو كانوا يعظمون الله (سبحانه)، فأقسموا بها، واستشفوا، واستنصروا، ولاذوا.. وأيضاً: فإنهم دعوها، واستغاثوا بها، وذبحوا لها، ونذروا، وطافوا حولها، وسيبوا لها السوائب، وساقوا إليها الهدي...

فإذا بدأنا بأقل الصور الشركية، وهو ما يحتمل أن يكون ذريعة إلى الشرك أو أن يكون شركاً أكبر نجد أن التبرك بالقبور والأضرحة من أبرز هذه الصور؛ فلقد اعتاد القبوريون على أنهم بزيارتهم لهذه الأضرحة ستأتيهم البركة ويشفون من مرضهم أو يفكون عقم نسلهم... وكانوا يمسون عمامة صاحب الضريح - بعد الولائم - أملاً في شفاء أوجاع الرأس، ويمسون قفطانه للعلاج من الحمى، ولحس الحجر لفك عسر اللسان، وتقديم العرائض طلباً لرفع الظلم، وتمسح

النساء في الضريح أملاً في إنجاب الذكور . .[١]، ولم يستحي القبوريون في طلبهم المنهوم للبركة المزعومة أن يستسيغوا المعاشرة الزوجية في هذه الأضرحة، فهذا الشعراني صاحب أكبر سجل لخرافات القبوريين يذكر من (كرامات) البدوي أنه دعاه إلى فض بكارة زوجته فوق قبة قبره « فكان الأمر »[٢] ، وفي السودان « وصل الأمر - في العصر الحاضر - عند بعض الرجال المخرفين إلى مجامعة زوجاتهم عند أضرحة الأولياء، بدعوى نيل البركة »[٣].

ويقدم لنا الأستاذ عبد الرحمن الوكيل تجربته في القبورية والتي تعتبر نموذجاً لما يحدث حول هذه الأضرحة، فكان مما ذكره : « . . كنت أطوف حول صنم البدوي، حتى إذا مثلت أمام الكوة الصغيرة في وثنه النحاسي البراق، أنفذت منها يديَّ - في رعشة التقديس - حتى ألمس سِتر القبر، ثم أخرجها رويداً رويداً في حرص وحذر بالغين، وقد ضممت قبضتيهما على . . . ! على ماذا ؟ كنت أوقن حينذاك أنني أضمهما على بركات سماوية تفيض من روح الله على القبر، ثم أبسط يدي في جيبي، ثم أمسح بها وجهي؛ رجاء أن أكون ميسر الرزق، داني قطوف النجاح، مشرق الوجه بنور الله . . »[٤].

وبالطبع فإن هذا التبرك قد يفتح باب الرقى والتمائم الشركية على مصراعيه.

---

(١) د. زكريا سليمان بيومي، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة في مصر، ص١٢٩ .

(٢) عن : جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي الأفغاني، ص٧٤٤، نقلاً عن الطبقات الكبرى للشعراني.

(٣) د. ناصر بن عبد الرحمن بن محمد الجديع، التبرك - أنواعه وأحكامه، ص٤٧٣ - ٤٧٤ .

(٤) هذه هي الصوفية، ص٤ .

من الأصغر إلى الأكبر:

كان هذا في التبرك ، فإذا قصدنا بيان الشرك الصريح في أقوال المعتقدين في الأضرحة وأفعالهم، فإننا نكاد ألا نستطيع الفصل بين أقسام الشرك في هذه الممارسات؛ فالشرك في الربوبية مصاحب للشرك في الأسماء والصفات، وينبني عليه باعتباره نتيجة حتمية : الشرك في الألوهية . . وإليك بعض نماذج لهذا الشرك أو ذاك :

من النماذج الصارخة التي تحوي أنواع الشرك كله (ربوبية ـ وألوهية ـ وأسماء وصفات) ما أورده أبو بكر العراقي عن أحد القبوريين « وهو إمام وخطيب في أحد مساجد ديالى المهمة، يقول: دعوت الله ست سنوات أن يرزقني الولد فلم أرزق، وذهبت إلى شيخي مصطفى النقشبندي في أربيل فما أن استغثت به وطلبت منه الولد حتى رزقت بطفلين توأمين! »[1] تعالى الله عما يقول الظالمون علواً كبيراً.

وذلك بعينه هو ما يذكره الآلوسي عن بعضهم : « الولي أسرع إجابة من الله (عز وجل)»[2] .

فهذا (الإمام) أشرك في الربوبية لاعتقاده أن لشيخه النقشبندي القدرة على التصرف والتأثير في الكون بالنفع والعطاء من دون الله، ومن ثمَّ: فإنه أشرك في أسماء الله الحسنى : النافع الضار، والوهاب، والرزاق . . وأشرك في الألوهية لصرفه عبادة لغير الله، وذلك بدعائه لشيخه النقشبندي أن يرزقه الذرية .

(١) حوار مع الصوفية ص٥٦ .

(٢) (روح المعاني) للآلوسي، م١٢ ، ج٢٤ ، ص١١ .

فالانحراف في توحيد الربوبية عند القبوريين يتبعه دوماً انحراف في توحيد الألوهية .

وإليك إيضاحاً آخر : فهم يقولون : إن البدوي يتحكم في الكون بأسره، فيعطي الشقاء لمن يريد، ويعطي السعادة لمن يريد، وهو الذي ينزل الغيث فيحيي كل أرض جدباء، وهو الذي ينصب له الكرسي ليقضي بين الخلق حيّاً وميتاً [١] . . يقول عرفة عبده علي : وقد احتشدت مؤلفات مناقب السيد البدوي بكرامات أسطورية غريبة لا تحصى، منها ـ على سبيل المثال ـ : إحياء الموتى، وإنقاذ الأسرى في بلاد الفرنجة، وقوله للشيء كن فيكون بإذن الله ! . .

فماذا ترتب على هذا الاعتقاد في البدوي؟ . . يقول الكاتب نفسه : «وكثير من أتباعه يجعلونه في منزلة أسمى من مرتبة الأنبياء !» [٢] . . فما هذه المنزلة ؟ .

استمع إلى شهادة أحد العلماء : فقد رأى الشيخ رشيد رضا جماعة من هؤلاء القبوريين «تطوف حول قبر السيد البدوي، الذي تحول إلى كعبة ثانية ، وكانت هذه الجماعة تطلب من السيد؛ لما شاع بينها من القصص والحكايات حول مقدرته العجيبة في قضاء الحوائج» [٣]، وإليك شهادة عالم آخر : يقول الشيخ جمال الدين القاسمي واصفاً ما شاهده حول ضريح أحمد البدوي أثناء زيارته لمصر سنة ١٣٢١هـ : « وشاهدنا الغلو في الزيارة الأحمدية، كالسجود على عتبة الضريح، والتمسح بقفصه، مما لا يختلف الفقهاء من أرباب المذاهب

---

(١) د. عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢٩ .

(٢) موالد مصر المحروسة، ص٨٠ .

(٣) محمد أحمد درنيقة، السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، ص٢٠٧ .

علىٰ منعه وحظره، ولا حول ولا قوة إلا بالله »[١] .

ويصف الكاتب عرفة عبده علي ما شاهده عند قبر البدوي، فيقول : « . . ومنهم من يتشبث بالضريح، معانقاً ومقبلاً، ومن لم يستطع الوصول إليه يقف ملوحاً بيديه، متمتماً بالدعاء وقراءة الفاتحة، ومنهم من يخر مقبلاً عتبات الضريح، ومن الرجال من يخلع شاله ويربطه في المقصورة ثم يمسح بيديه علىٰ وجهه وصدره، والجميع في حالة من النشوة والوجد . . »[٢] .

فإذا كان ذلك في أحد القبور، فهل يختلف الحال في الأضرحة الأخرىٰ ؟

تفشي الداء :

إذا شملنا واقع الأضرحة بنظرة عامة وجدنا أن الطقوس التي يمارسها المعتقدون في القبور تعدت إلىٰ كثير من الصور التي تجسد أنواع الشرك بدرجاته المختلفة، حيث اعتادوا : « الصلاة إليها، والطواف بها، وتقبيلها، واستلامها، وتعفير الخدود علىٰ ترابها، وعبادة أصحابها، والاستغاثة بهم، وسؤالهم النصر والرزق والعافية، وقضاء الديون، وتفريج الكربات، وإغاثة اللهفات، وغير ذلك من أنواع الطلبات التي كان عباد الأوثان يسألونها أوثانهم»[٣] .

وهذا هو واقع القبوريين :

فبالأضرحة والقبور أقسموا : يقول الإمام الصنعاني : « . . ويقسمون بأسمائهم، بل إذا حلف من عليه حق باسم الله (تعالىٰ) لم يقبلوا منه، فإذا

---

(١) عن : الانحرافات العقدية، لعلي بن بخيت الزهراني، ص٣٢٨ .

(٢) موالد مصر المحروسة، ص ٦٠ .

(٣) إغاثة اللهفان، لابن القيم، جـ١، ص١٩٤ .

حلف باسم ولي من أوليائهم قبلوه وصدقوه »[١]، « . . . ولن يصدق أحد من الحالف إلا إذا حلف بواحد منهم، وهذا كان شيئاً طبيعيّاً كنا نراه في القرى ونحن صغار، ولا زال يجري للآن »[٢] .

وإليك نموذجاً لما اعتادوه وألفوه من تعظيم القبور بالإقسام بها، ففي الأردن : « طال الجدال بين الأعراب على سرقة جدي، وكان المتهم جالساً بين الحضور ينكر السرقة، فقال له أحد الحاضرين : لا ريب أنك أنت السارق، ودلائل الخوف بادية على وجهك، فقال : أقسم بالله ورسوله [*] ما مددت يدي إلى الحرام، فقام أحدهم وقال : لا، بالله لا نقبل يمينك، أقسم لنا بـ [ضريح] الهلاهلة، فلما سمع ذكر الهلاهلة امتقع لونه وقال: لا أقسم، ويل للحالف، وويل للمحلف »[٣] .

وهذا الانحراف العقدي أثر من آثار الإلحاد في أسماء الله (تعالى) : العظيم[٤]، والرقيب، والشهيد، والعليم . . .

وبها لاذوا واحتموا: فكما جعل الله (سبحانه) البيت الحرام ملاذاً من دخله كان آمناً، جعل سدنة الأضرحة « تلك الأضرحة الوثنية حرماً آمناً يهرع

---

(١) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، ص٢٦ .

(٢) د. عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد. ص٨٩ .

(*) لايجوز الحلف بغير الله حتى ولو برسوله (ﷺ) ؛ لعموم قوله (ﷺ) : « من حلف بغير الله فقد أشرك » [أخرجه أحمد، ٢/ ٦٩، ٨٦ ، واللفظ له، والترمذي في الأيمان والنذور ، باب ما جاء في كراهية الحلف بغير الله ، وصححه الألباني في صحيح الجامع ٢ / ١٠٦٥ ، ح/ ٦٢٠٤].

(٣) مقال : (المزارات في شرقي الأردن)، ص٩٠٨ .

(٤) نلاحظ أن الإلحاد في اسمه (تعالى) : العظيم، يدخل فيه معظم الشركيات، لأنها ناتجة عن تعظيم القبوريين لهذه الأضرحة وأصحابها.

إليها المجرمون والفارون، ويلجأ إليها الخائفون، ليأمنوا في رحابها، ويستريحوا في ظلالها، ولم يكن ليجرؤ أحد من الحكام في ذلك الزمن أن ينتهك حرمة ضريح لاذ به مجرم أو عاذ به فار فيلقي عليه القبض، مهما كان جرمه ومهما بلغت جنايته، وكثيراً ما عفي عن اللائذين بالأضرحة من المجرمين إكراماً للمدفونين أو خشية ورهبة من انتقامهم وبأسهم»[١] .

وقد يدخل ذلك في الإلحاد في أسمائه (تعالى) : الكافي، والولي، والنصير، والعزيز . . .

وإليها توجهوا بالطلب والدعاء : وهذه بدأت بأن « بث بعض المتصوفة فكرة أن الدعاء عند قبور الأولياء والصالحين مستجاب» ، وانتهت بأن « أخذ العوام يطوفون بقبور الصالحين، يستعينون بهم، ويخاطبونهم، ويستنهضون هممهم بالصياح والصراخ»[٢]، حتى أصبح الواقع « أن الناس قد أكثروا من دعاء غير الله (تعالى) من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم، مثل : ياسيدي فلان، أغثني»[٣] .

ولاشك أن من الدعاء : الاستغاثة والاستعانة : ومن المفارقات أن تلك العبادة تتجلى واضحة عند القبوريين في المواطن التي كان المشركون يخلصون فيها الدعاء لله وحده؛ لأنهم يعلمون أن آلهتهم لا تجيبهم ولا تنفعهم في تلك المواطن، ويحكي محمد السنوسي أنه « حين كان راكباً في البحر، وهاجت الرياح، وتلاطمت الأمواج حتى كادت السفينة أن تغرق، أخذ يستجير ـ كما

(١) الانحرافات العقدية، ص٣٣٩ .

(٢) محمد أحمد درنيقة، السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، ص٢١٧ .

(٣) روح المعاني، م٣، جـ٦، ص١٢٨ .

يقول ـ بكل ما يستحضره من الأولياء كي يكشفوا كربته ! »[١]، والقبوريون في موطن آخر « هناك بين أصوات الرصاص وهدير البارود يرفع العقيد صوته ويستغيث بالأولياء . . . »[٢]، وليس هذا حالة خاصة، بل إن « من المشاهد اليوم أن كثيراً من الناس يستغيثون بالمشائخ والأنبياء والأئمة والشهداء . . »[٣].

فأمثال تلك المشاهدات المستقاة من الواقع الشركي للقبوريين دعت كثيراً من العلماء إلى التصريح بأن شرك الأولين من عباد الأصنام أخف وطأة من شرك القبوريين، وذلك من عدة وجوه بينوها في كتبهم[٤] .

ومن الدعاء أيضاً : الاستشفاء ، ولعلنا نوضح هذا الجانب لاحقاً عند الحديث عن الآثار الاجتماعية للاعتقاد في القبور والأضرحة .

ولا شك أن هذا الانحراف في الدعاء أثر من آثار الإلحاد في أسماء الله (تعالى) الحسنى، ومنها : السميع، المجيب، المعطي، الرزاق، القادر، النافع الضار، النصير، العليم، الشافي . . .

ولها ذبحوا ونذروا : وهذه أيضاً من الشعائر اللازمة للاعتقاد في القبور والأضرحة؛ فالرعاة في شرقي الأردن يطوفون بالأغنام حول مقام النبي هوشع «في أزمان الأوبئة ويختارون خير النعاج، ويصعدونها إلى سطح المقام وينحرونها فيسيل دمها على عتبته»[٥]، فـ«غاية الزيارات لمقامات الأولياء هي

(١) الانحرافات العقدية، ص٣٢١ .
(٢) المزارات في شرقي الأردن، ص٩١٣ .
(٣) جهود علماء الحنفية، ص٤١٦، نقلاً عن أبي الحسن الندوي في رسالته (تقوية الإيمان) .
(٤) انظر على سبيل المثال : رسالة (كشف الشبهات) للشيخ محمد بن عبد الوهاب، ورسالة (أربع قواعد) له أيضاً، وصيانة الإنسان عن وسوسة دحلان ، لمحمد بشير السهسواني الحنفي، ص١٦٦، وغاية الأماني في الرد على النبهاني، لمحمود شكري الألوسي، ١/ ٢٩٥ .
(٥) مقال (المزارات في شرقي الأردن)، ص٩٠٣ .

تقديم الذبائح والتقادم، فالذبيحة هي نعجة أو شاة يطاف بها حول المزار وتنحر على اللحد»[١].

وكثيراً ما يقترن الذبح بالنذر، وقد ذكر الأستاذ عبد المنعم الجداوي، أن ابنة خالته نذرت أن تذبح للبدوي خروفاً إذا عاش ابنها ثلاث سنوات، وبالفعل قطعت هي وزوجها مئات الكيلومترات حاملة خروفها، وكأنها تسوق الهدي، حتى توفي بنذرها [٢]، ولا شك أن الذبح والنذر (سواء أكان ذبحاً، أو إهداء زيت، أو نقود . .) من العبادات التي لا تجوز إلا لله (تعالى)؛ لذلك يقول الإمام الصنعاني (رحمه الله): «والنذر بالمال على الميت ونحوه، والنحر على القبر، والتوسل به، وطلب الحاجات منه، هو بعينه الذي كانت تفعله الجاهلية، وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنماً، وفعله القبوريون لما يسمونه وليّاً وقبراً ومشهداً .

والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني، ضرورة لغوية وعقلية وشرعية؛ فإن من شرب الخمر وسماها ماءً ما شرب إلا خمراً . . »[٣]. ويقول الإمام الشوكاني: «ومن المفاسد البالغة إلى حد يرمي بصاحبه وراء حائط الإسلام، ويلقيه على أم رأسه من أعلى مكان الدين: أن كثيراً منهم يأتي بأحسن ما يملكه من الأنعام وأجود ما يحوزه من المواشي فينحره عند ذلك القبر، متقرباً به إليه، راجياً ما يضمن حصوله له منه، فيهل به لغير الله ويتعبد به لوثن من الأوثان، إذ إنه لا فرق بين نحر النحائر لأحجار منصوبة يسمونها وثناً، وبين قبر لميت

(١) السابق، ص٩١٤ .
(٢) اعترافات . . . كنت قبورياً، ص١٨ .
(٣) تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد، ص١٨ ـ ١٩ .

يسمونه قبراً، ومجرد الاختلاف في التسمية لا يغني من الحق شيئاً . . . »[1].

ابحث عن الضريح !:

وكل ذلك لا يخص ضريحاً دون آخر، بل هو عام في جميع الأضرحة المقصودة بالتوجه والاعتقاد، فحيثما كان ضريح يعتقد فيه : كان الشرك وإن اختلفت صوره وأنواعه ودرجاته؛ **فهذا قبر ابن عربي بدمشق**، يحكي عبد الله ابن محمد بن خميس مشاهداته عنده، فيقول : « لقد ذهبت إلى قبر ابن عربي في دمشق فوجدت فئاماً من الناس يغدون إليه ويروحون . . وجدتهم يطوفون حوله، ويتوسلون به، ويعلنون دعاءهم له من دون الله . وجدت المرأة تضع خدها على شباك الضريح وتمرغه وتنادي : أغثني يا محيي الدين . وجدت الصبايا البريئات يجئن إليه، ويمددن أمامه الأكف، ويمسحن الوجوه، ويخشعن، ويتضرعن»[2] . . باختصار : « عند قبر ابن عربي في دمشق يمارس القبوريون شتى ألوان الشرك الأكبر »[3].

وفي الهند : أصبح قبر الشيخ بهاء الدين زكريا الملتاني « مرجع الخلائق في العصر الأخير، ويطوفون حوله، ويعملون ويصنعون على قبره جميع الأعمال اللائقة بالمعبود، كالسجود، والنذور، وما أشبه ذلك . . وضريح الشيخ علي الهجوري في لاهور **في باكستان**، وهو من القبور العظيمة، والناس يزورونه كل سنة، بل كل يوم، ويطوفون حوله، ويسجدون له، ويقدمون النذور، ويستغيثون به، ويطلبون العون والمدد »[4]، و« عند القبر المنسوب إلى

---

(١) شرح الصدور بتحريم رفع القبور، ص٢٠ .

(٢) شهر في دمشق، ص٦٤ .

(٣) علي بن بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية، ص٣٢٧ .

(٤) السابق .

هود **في حضرموت** يحدث من الشرك الأكبر ما يعجز القلم عن وصفه، شأنه في ذلك شأن كل الأضرحة في البلاد الأخرىٰ . وقد بولغ في تقديس هذا الضريح، فتراهم يشدون الرحال لزيارته وعندهم شيء من بقايا الشعور الوثني الذي كان يشعر به العرب للات والعزىٰ، يستعينون به ويتوجهون إليه، ويولون وجوههم شطره لقضاء الحاجات، واستنزال البركات، ودفع الكربات»(١) .

ويقول المقريزي في خططه (٢/ ٤٥) : « إن الفتنة بهذا المكان [قبر أبي تراب، ويسمىٰ الآن : جامع الشيخ الأتربي] وبالمكان الآخر الذي يعرف بجعفر الصادق . . لعظيمة؛ فإنهما صارا كالأنصاب التي كان يتخذها مشركو العرب، يلجأ إليهما سفهاء العامة والنساء في أوقات الشدائد، وينزلون بهذين الموضعين كربهم وشدائدهم التي لا ينزلها العبد إلا بالله ربه، ويسألون في هذين الموضعين ما لا يقدر عليه إلا الله (تعالىٰ) وحده، من وفاء الدين من غير جهة معينة، وطلب الولد، ونحو ذلك، ويحملون النذور من الزيت وغيره إليهما، ظنّاً أن ذلك ينجيهم من المكاره، ويجلب إليهم المنافع »(٢) .

بل لقد اعترف أحد كبار منظري القبورية وهو الشيخ أحمد بن محمد بن الصديق الغماري بوجود الشرك الأكبر والكفر الصراح في القبورية، فقال : « إن كثيراً من العوام **بالمغرب** ينطقون بما هو كفر في حق الشيخ عبد القادر الجيلاني، وكذلك نرىٰ بعضهم يفعل ذلك مع من يعتقده من الأحياء، فيسجد

---

(١) نفســـــه، ص٣٢٦ .

(٢) نقلاً عن مقال : تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين، لحسين أحمد أمين، مجلة العربي، ع/ ٢٢٦، ص١٣٥ .

له، ويقبل الأرض بين يديه في حال سجوده، ويطلب منه في تلك الحال الشفاء والغنى والذرية، ونحو ذلك مما لا يطلب إلا من الله (تعالى).

وإن عندنا بالمغرب من يقول في ابن مشيش: إنه الذي خلق الابن والدنيا، ومنهم من قال ـ والمطر نازل بشدة ـ: يامولانا عبد السلام، الطف بعبادك!. فهذا كفر»[1].

بين الفرد والمجتمع:

كان هذا عرضاً لأهم صور الشرك، الذي هو أخطر مساوئ الاعتقاد في القبور والأضرحة على دين الإنسان ودنياه، فهو يناقض أساس الإسلام ويهدم الركن الأول منه، كما إنه يحمل في طياته مما يحمل: التمزق النفسي والتفكير الخرافي، فإذا أمعنّا النظر إلى أثر هذا الشرك في المجتمعات وجدنا آثاراً لا يستهان بسوئها، اقترنت بهذه المظاهر الشركية، ومنها:

شرك في التوحيد وشرك في التشريع:

لا شك أن التشريع مرتبط بالتأله والتعبد، فهو أحد أقسام التوحيد، لذا: رأينا دائماً أن الانحراف في توحيد العبادة والنسك يصاحبه انحراف في توحيد التشريع والتحاكم، «فالإشراك بالله في حكمه كالإشراك به في عبادته، قال في حكمه: ﴿وَلَا يُشْرِكُ فِي حُكْمِهِ أَحَدًا﴾[الكهف: ٢٦]... وقال في الإشراك به في عبادته: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: ١١٠] فالأمران سواء كما ترى إيضاحه»[2]، وعلى هذا

---

(١) عن: جهود علماء الحنفية...، ص٤٧٩، ٤٨٠، نقلاً عن: إحياء المقبور من أدلة استحباب بناء المساجد على القبور، للغماري.

(٢) الشيخ محمد الأمين الشنقيطي، أضواء البيان، جـ٧، ص١٦٢.

«يرتبط التحليل والتحريم (التشريع) بالمعبود «رتباطاً وثيقاً، حتىٰ لقد توافقت وتزامنت دعوة العرب للشرك بالله في عبادته وتغيير دين إبراهيم (عليه السلام)، مع إدخال تشريعات لم يأذن بها الله، بل أمر بها الطواغيت، فعمرو ابن لحي الذي كان أول من غيّر دين إبراهيم (عليه السلام) وأدخل عبادة الأصنام في العرب، كان هو نفسه أول من سيَّب السوائب وشرع لهم الشرائع الجاهلية في الأنعام وغيرها »[١].

وفي هذا يقول الشيخ محمد رشيد رضا : « ﴿ وَأَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ ﴾ [المائدة : ١٠٣] أنهم يفترون على الله الكذب بتحريم ما حرموا على أنفسهم، وأن ذلك من أعمال الكفر به، بل يظنون أنهم يتقربون إليه ولو بالواسطة؛ لأن آلهتهم التي يسيبون باسمها السوائب . . ليست بزعمهم إلا وسائط بينهم وبين الله (تعالىٰ) . . وهكذا شأن كل مبتدع في الدين بتحريم طعام أو غيره، وتسييب عجل للسيد البدوي أو سواه»[٢].

فتسييب السوائب الذي كان في مشركي العرب نجده نفسه لدىٰ القبوريي، « يذكر البتنوني أن بعض سدنة الأضرحة في أرياف مصر يرسلون عجلاً صغيراً في حقول بلدهم معلنين أنه عجل هذا الولي، ولا يزال سائباً علىٰ حريته في حقول البلد وما جاورها يأكل مما يشتهيه منها، وأربابها لا يجسرون علىٰ طرده أو إهانته؛ خوفاً من الولي الذي هو في حمايته، حتىٰ يأتي مولده فيأخذه السدنة سميناً معلوفاً ويذبحونه وينتفعون به »[٣].

---

(١) بتصرف عن : أضواء علىٰ ركن من التوحيد، لعبد العزيز بن حامد، ص١٦، وحديث أن عَمْراً ابن لحي « أول من سيَّب السوائب » في البخاري، ك/ التفسير، ب / ١٣ .

(٢) تفسير المنار، جـ٧، ص٢٠٤ .

(٣) عن : الانحرافات العقدية، ص٣٣٢، وانظر : السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، لمحمد فهمي عبد اللطيف، ص١٥٠ .

وتعدىٰ أمر التشريع عند القبوريين تسييب عجل للضريح، إلىٰ التلاعب في بعض العبادات المفروضة، ويمثل الحج أبرز مثال لهذا التلاعب، الذي بدأ بسن آداب وطقوس معينة لزيارة تلك الأضرحة، «فالزيارة ليست مجرد مرور عابر، ويجب أن تؤخذ بمعناها الدقيق، فعملية الاستقبال داخل الضريح هي لقاء بين الولي (الداعي) والزائر (الضيف)»[1]، لذلك لم يقتصر القبوريون «.. علىٰ إقامة المباني والأضرحة عليها فحسب، بل صنعوا في آداب زيارتها وترتيبها المصنفات الطوال، منها: كتاب شمس الدين محمد بن الزيات المعروف (الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة)»[2]، ولعل من هذه الآداب ما شاع عند بعض القادرية أن من استقبل ضريح الشيخ عبد القادر الجيلاني ببغداد، وقرأ آية الكرسي، وسلم عليه، وخطا سبع خطوات، يخطو مع كل تسليمة خطوة إلىٰ قبره، قضيت حاجته[3].

ومن (آداب للزيارة) إلىٰ (مناسك للحج)؛ فقد «آل الأمر بهؤلاء الضُّلاَّل المشركين إلىٰ أن شرعوا للقبور حجّاً، ووضعوا له مناسك، حتىٰ صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه (مناسك حج المشاهد) مضاهاة منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفىٰ أن هذا مفارقة لدين الإسلام ودخول في دين عباد الأصنام»[4].

ولم يكتفوا بتصنيف الكتب في ذلك، بل أشاعوا ذلك التشريع في

---

(١) موالد مصر المحروسة، ص٨٣.

(٢) د. سعاد ماهر فهمي، مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ١، ص٤٧.

(٣) انظر: مجموع الفتاوىٰ، جـ٢٧، ص١١٢، والسيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، لمحمد أحمد درنيقة، ص ٢١٧.

(٤) إغاثة اللهفان، لابن القيم، جـ١، ص١٩٧.

جمهورهم، فالدكتور عبد الكريم دهينة يذكر عن قريته التي بها أكثر من ثلاثين ضريحاً تقام لها موالد ونذور ونسك، أنه« قد أفتىٰ بعضُ الفسقة بأن الحج ينفع إليهم »[١]، كما « أن شطراً من العامة في صعيد مصر يرىٰ أن الطواف سبع مرات بقبر الشيخ القناوي بقنا . . فيه غناء عن أداء الحج إلىٰ بيت الله الحرام . . »[٢].

ويقول الأستاذ عبد الرحمن الوكيل : « . . تأمل الأسطورة التي يبتدعها سدنة كل صنم، إذ يزعمون أن من زار هذا الوثن أو ذاك سبع مرات ماشياً كتب له ثواب حجة، زعموا أن هذا للبدوي في طنطا، وللدسوقي في دسوق، ولشبل في الشهداء »[٣].

وعلىٰ ذلك : فليس بمستغرب أن يقول السخاوي : « جاء الحجاج هذه السنة لسيدي أحمد البدوي من الشام وحلب ومكة، أكثر من حجاج الحرمين! »[٤].

فهذا باب من التشريع، وهو أثر من آثار الإلحاد في أسماء الله الحسنىٰ : الحكيم، والحكم، والعليم، والعزيز، والملك، والعظيم . . .

وكل ذلك أدىٰ إلىٰ الاستهانة بأوامر الله (عز وجل)، واستبدالها بتعظيم شعائر الأضرحة وأوامر سدنتها، وبذا : كانت القبورية أحد الأسباب التي هيأت شعوب العالم الإسلامي لقبول العلمانية الوافدة وتشريع ما لم يأذن به الله .

---

(١) الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢٨ .

(٢) حسين أحمد أمين، مقال (تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين)، ص١٣٧ .

(٣) هذه هي الصوفية، ص١٧٥ .

(٤) نقلاً عن : بدع الاعتقاد، لمحمد حامد الناصر، ص٢٦٨ .

شرك في التوحيد، ونكوص عن مجاهدة الأعداء :

ولست هنا بصدد تقييم علاقة أهل التصوف بمقاومة الأعداء ـ سلباً وإيجاباً ـ، ولكننا نريد بيان أثر الأضرحة في جهاد أعداء الأمة، ضمن تأثيرها على حياة الشعوب الإسلامية في شتى المناحي .

والمتتبع لأثر الأضرحة في هذا المجال يجد أن الأضرحة والقبور هيمنت على هذا الجانب ضمن هيمنتها على الحياة كلها، فأصبحت الأضرحة والمزارات تمثل بحق (أفيون الشعوب الإسلامية) ! . .

فقد اتخذتها الشعوب مثير قتال الأعداء ودافع مجاهدتهم، باعتبار أنها (الرموز المقدسة) التي لاينبغي أن تمس، « ففي ريف المغرب الذي كان يحتله الإسبان قامت القبائل هناك بثورة عارمة ضدهم، حين بنى الإسبانيون مركزاً للحراسة بقرب ضريح تقدسه القبائل»[(١)]، « وفي كشمير يوجد في إحدى المدن هناك مسجد يعرف بمسجد (حضرة بال)، يعتقد أن فيه شعيرات من شعر النبي(ﷺ)، وفي إحدى المرات عام ١٩٦٣م اختفت تلك الشعرات فثار المسلمون ثورة عارمة وقاموا بمظاهرات متصلة »[(٢)]، فهم يثورون لأجل ضياع شعرات النبي (ﷺ) ـ إن كان نسبها حقّاً، وهو بعيد ـ، ولا يثورون لأجل ضياع أوامر كتاب الله (تعالى) وسنة رسوله (ﷺ) من حياتهم، ولا لأجل علو الكفار عليهم، وما ذاك إلا لأن المعنى الشرعي للجهاد في سبيل الله (أن تكون كلمة الله هي العليا)، لم يعد له وجود في حياتهم عندما استبدلوا به تقديس

---

(١) الانحرافات العقدية، ص٣٠٥ .

(٢) السابق، ص٣١١ .

الأضرحة وأصحابها، وقد فطن الأعداء لهذا الأمر، فحرصوا على عدم المساس بهذه القبور والأضرحة لعدم إثارة الذين يقدسونها، بل ساهموا في الترويج لها ولطقوسها، بينما كانوا يبدلون منهج حياة المسلمين تبديلاً كاملاً، وينهبون ثروات البلاد نهباً منظماً، « ويرحل بنا المؤرخ العظيم عبد الرحمن الجبرتي إلى زمن الحملة الفرنسية، يوم تقلد الشيخ خليل البكري نقابة الأشراف . . . (وفيه سأل صاري عسكر عن المولد النبوي ولماذا لم يعملوه كعادتهم ؟!، فاعتذر الشيخ البكري بتعطيل الأمور وتوقف الأحوال، فلم يقبل، وقال : لا بد من ذلك، وأعطى له ثلاثمئة ريال فرنساوية معاونة، وأمر بتعليق تعاليق وأحبال وقناديل، واجتمع الفرنساوية يوم المولد، ولعبوا ميادينهم وضربوا طبولهم . . .) وعقب هذا الاحتفال بيومين(كتب بونابرت إلى الجنرال مارمو يطلب منه زيارة الشيخ البكري بمناسبة الاحتفال بالمولد النبوي، وأشار إلى أنه يجتمع برؤساء الدين في القاهرة، كما أرسل إلى الجنرال كليبر بالإسكندرية نسخة من Courrier de L`E gypte العدد الأول، الذي يحوي مقالاً عن الاحتفال بالمولد؛ ليقوم بترجمته وطبعه . .)»[1].

وكما مثلت القبور والأضرحة لدى المعتقدين فيها مثير قتال الأعداء ودافع مجاهدتهم، **فإنها شكلت عندهم بديلاً لأي جيش يناهض هؤلاء الأعداء :**

فهي عندهم (هيئة المستشارين) التي تقرر قتال الأعداء أو لا تقرره، يقول الدكتور عمر فروخ : «لا ريب في أن الأوروبيين قد عرفوا ذلك واستغلوه في أعمالهم الاستعمارية؛ ذكر مصطفى كامل بطل الوطنية المصرية في كتابه (المسألة الشرقية) قصة غريبة في أذن القارئ العادي، قال : ومن الأمور المشهورة عن احتلال فرنسا للقيروان في تونس : أن رجلاً فرنسيّاً دخل في

---

(١) عرفة عبده علي، موالد مصر المحروسة، ص١٤ .

الإسلام وسمى نفسه سيد أحمد الهادي، واجتهد في تحصيل الشريعة حتى وصل إلى درجة عالية، وعين إماماً لمسجد كبير في القيروان، فلما اقترب الجنود الفرنساويون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاؤوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل (سيد أحمد) الضريح، ثم خرج مهولاً بما سينالهم من المصائب، وقال لهم: إن الشيخ ينصحكم بالتسليم؛ لأن وقوع البلاد صار محتماً، فاتبع القوم البسطاء قوله ولم يدافعوا عن مدينة القيروان أقل دفاع، بل دخلها الفرنساويون آمنين في (٢٦) أكتوبر سنة ١٨٨١م..»[١].

وهي عندهم (حرس الحدود) الذي يقوم على صد الأعداء، بل ومنع الفتن والأوبئة!، فـ«كل مدينة كبيرة أو صغيرة محروسة بولي من الأولياء، فهو الذي يحميها من العين ومن الغارات ومن نكبات الطبيعة، ومن طمع الطامعين»[٢]، فالقبوريون يظنون «أن القبر إذا كان في مدينة أو قرية فإنهم ببركتهم يرزقون وينصرون ويندفع عنهم الأعداء والبلاء، وأن السيدة نفيسة خفيرة مصر والقاهرة، والدسوقي، والبدوي، وهكذا، والشيخ عبد القادر قطب بغداد وخفيرها، وفلان خفير الشام، والحجاز، ووضعوا لكل بلد خفراء..»[٣].

وبناء على ذلك الاعتقاد يذكر الكوثري «أن أرض الشام يحرسها من الآفات والبلايا أربعة من الأولياء الذين يتصرفون في قبورهم!»[٤]، ويذكر

(١) نقلاً عن: التصوف بين الحق والخلق، لمحمد فهر شقفة، ص٢١١، وانظر: هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل، ص١٧١.

(٢) الانحرافات العقدية، ص٣٢٤.

(٣) حوار مع الصوفية، لأبي بكر العراقي، ص٥٦.

(٤) عن: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي الأفغاني، ص٤٦١.

الجبرتي في سياق إحدىٰ قصصه أن رجلاً أيام الحملة الفرنسية « قال: إن السيد أحمد البدوي بالشرق، والسيد إبراهيم الدسوقي بالغرب، يقتلان كل من يمر عليهما من النصارىٰ، وكان يعني بذلك الجنود الفرنسيين وهم في طريقهم إلىٰ القاهرة . . »[١] .

وبخلاف الأضرحة الكبرىٰ التي (تحرس) المدن المهمة والمراكز الحيوية، يشيع هذا الاعتقاد أيضاً عند القبوريين في القرىٰ والنجوع، ففي « مركز مغاغة بالمنيا، وعلىٰ وجه التحديد بقرية (بني واللمس) علىٰ البحر اليوسفي، يشتهر مقام سيدي (حسن أبو رايتين) . . . ويعتقدون أنه يحرس القرية ويحفظها من السرقة وعداوات الدم، ويلجؤون إليه لرفع المظالم . . . »[٢] .

وهي عندهم (وسائل دفاع جوي!)، فضريح (علي الروبي) بالفيوم بمصر «أنقذ المدينة من الدمار خلال الحرب العالمية الثانية، ببركته التي حولت مسار القنابل إلىٰ بحر يوسف ! »[٣] .

وهي عندهم (معين المدد والذخيرة)، فأثناء الثورة العرابية روج القبوريون إشاعة قوية مفادها « أن كبار الأولياء (الدسوقي ـ البدوي ـ عبد العال) أهدوا أحمد عرابي ثلاثة مدافع ليستعين بها علىٰ منازلة الإنجليز »[٤] . وحين أغار جنود الفرنسيين والإفرنج علىٰ مصر «صاح المحاربون في المسلمين وصرخوا مستغيثين بغير الله مع الله: (يا رب يا لطيف، ويا رجال الله، ونحو ذلك)»[٥] .

---

(١) عن: السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، لمحمد فهمي عبد اللطيف، ص١٥٦ .

(٢) موالد مصر المحروسة، ص٥٣ ـ ٥٤ .

(٣) السـابق، ص٥٣ .

(٤) الصوفية والسياسة، ص١٢٠ .

(٥) جهود علماء الحنفية، ص٤٦٠ .

وعندما يستدعي الموقف الإمداد بـ(قوات خاصة) لمنازلة عدو شديد البأس يطلب القبوريون المدد من الأضرحة وأصحابها أيضاً؛ فعندما أغار التتار على بلاد الشام «كان القبوريون يخرجون يستغيثون بالموتى عند القبور، ولذا: قال بعض شعراء القبورية:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر »[١]

وذكر الشيخ رشيد رضا «أنه عندما زحفت روسيا على مدينة بخارى فزع الناس إلى الاستغاثة بحامي بخارى! - كما يسميه أهلها - شاه نقشبند، فلم يغن عنهم شيئاً »[٢].

وذكر أيضاً أنه« انتشر بين أهل مراكش، عند حلول النوائب بهم، وتعدي الأجانب عليهم، الاجتماع حول قبر الشيخ إدريس في فاس، طالبين أن يكشف ما نزل بهم من الشدة، تاركين ما تقتضيه حال العصر من التربية والتعليم والإعداد العسكري للأعداء »[٣].

وهي عندهم (جيوش متكاملة)، فلماذا الإعداد، والقبور والأضرحة عند المعتقدين فيها بمثابة جيوش متكاملة تفعل ما لا يستطيعه المحاربون ؟!، فقد قال أحد كبار الصوفية في زمن احتلال الإنجليز لمصر، ما معناه: «لو أراد إبراهيم الدسوقي خروج الإنجليز من مصر ما بقي إنجليزي واحد، وقال بعضهم في نكسة سنة ١٩٦٧م ما يدور حول هذه الفكرة »[٤].

---

(١) السابق، ٤٥٨ .

(٢) عن : الانحرافات العقدية، ص٣٢٠ .

(٣) محمد أحمد درنيقة، مصدر سابق، ص٢١٨ .

(٤) د. عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢٠ .

ولماذا إعداد الجيوش، وعن طريق طقوس معينة للأضرحة يمكن تدمير قوات الاحتلال بغير جيوش، وربما (بالتحكم عن بعد!)، فمما ذكر في أحد كتب الديوبندية: «إن شيخاً نقشبندياً زار قرية ديوبند أيام حركة الخلافة، وقام مراقباً على قبر الشيخ النانوتوي، وأطرق طويلاً، ثم رفع رأسه وقال: عرضت على الشيخ ما نعاني من الحكام الإنجليز، فأشار إلى الشيخ محمود الحسن وقال: هذا آخذ بقائمة العرش! يناشد ربه أن يطرد الإنجليز من الهند»[١]. وذكر الدكتور سيد عويس في كتابه المهم (رسائل إلى الإمام الشافعي) أن إحدى الرسائل الموجهة إلى ضريح الإمام الشافعي، والمؤرخة في أكتوبر سنة ١٩٥٥م، يطلب صاحبها فيها «عقد جلسة شريفة يحضر فيها معه سيدنا الحسين، وسيدنا الحسن، والست زينب أم هاشم، وجميع أهل بيت النبي (ﷺ) ويطلبون من الله مسح إسرائيل اليهود، وإزالتها من على وجه الأرض المقدسة في هذا الأسبوع، ويكون - إن شاء الله - آخر ميعاد يوم الثلاثاء القادم!!»[٢].

ومنها يستمد أوار التمرد والثورات الداخلية، فهذا «المدعو بأبي حمار الذي قام بثورة عنيفة عام ١٣٢١هـ ضد سلطان المغرب، بدأ ثورته بحضور موسم مشهور لقبيلته الحياينة حول قبر محمد بن الحسن الجناتي - معتقد القبيلة، ووليها الصالح - وتحضره قبائل أخرى، فشهد الموسم، واشترى (سبعة) ثيران، وذبحها قرباناً على قبر الولي المذكور، فكان لذلك أثر بالغ في إثارة مشاعر القبائل وسوقهم تحت رايته، ثم بدأ ثورته التي امتدت زهاء (سبعة)

---

(١) عن: الديوبندية، تعريفها - عقائدها - لسيد طالب الرحمن، ص١٤٢.

(٢) نقلاً عن: مقال (الأضرحة - مدخل تاريخي واجتماعي)، للأستاذ/ وليد فكري فارس، مجلة التوحيد المصرية، السنة (٢٤)، العدد (٤)، وانظر: الصوفية والسياسة، ص٥١.

أعوام »[1].

ولها تعقد الاحتفالات بالنصر، فمما يذكره الجبرتي أنه عند « مغادرة الفرنسيين للقاهرة سنة ١٢١٦هـ هرع قائد الجيش العثماني (حسين باشا القبطان) إلى زيارة المشهد الحسيني، وذبح فيه خمس جواميس وسبعة أكباش، واقتسمتها خدمة الضريح »[2].

فهل أضر مؤثر بقوة الأمة أعظم من هذا (التخدير) الذي سرى في جسدها بفعل أفيون تقديس القبور والأضرحة ؟

شرك في التوحيد وتخلف في المجتمع :

وترتفع الخرافة إلى ذروتها حينما يعمد القبوريون إلى إضافة التخصصات للأضرحة بعد تقسيم درجاتها إلى كبرى وصغرى، فمثلما كان للإغريق ـ ومن بعدهم للرومان واليونان ـ إله لكل شيء، إله للحرب، وإلهة للحب، وإلهة للخصب، وإله للخمر . . وجدنا عند القبوريين أضرحة ومزارات تشتهر بتخصصها في حاجات مختلفة، يخصونها بالتوجه إليها لطلب هذه الحاجة منها، يقول عرفة عبده علي : « ومن الملاحظ أن زيارات الأولياء تشمل الرجال والنساء دون تخصيص، وطلب الشفاعة هو هدف الجميع، ويشتهر بعض الأولياء بالتوجه إليهم لتحقيق رغبات النساء، كالزواج للعوانس والإنجاب للعاقرات»[3].

---

(١) عن : الانحرافات العقدية، ص٣٣١ .

(٢) عن : بدع الاعتقاد، لمحمد حامد الناصر، ص٢٦٩ .

(٣) موالد مصر المحروسة، ص٨٢ .

ولعل من هذا القبيل الأضرحة والمزارات النسائية، كمقام « الشيخة مريم التي يحتفل بمولدها مرتين: مرة في شم النسيم[١]، والأخرىٰ في ذكرىٰ مولد النبي، وقد اشتهرت ببركتها في الشفاء من العقم »[٢]، وكذلك يطلب القبوريون « من ضريح الشيخة صباح في طنطا إبراء النساء من العقم »[٣]، ومزار (بنات عين) في معان بالأردن: « انتشر ذكره بين العواقر، يفدن إليه بالقرابين والمصابيح لنيل البرء والشفاء، وهو مختص بالنساء فقط ويدعونه بالمستشفىٰ النسائي!»[٤].

وإضافة إلىٰ تلك الأضرحة والمزارات التي اشتهرت بتخصصها النسائي، هناك ضريح (النبي شعيب) في وادي السلط الجنوبي بالأردن « وهو ولي! مرهوب مختص بالأقسام الكبرىٰ، إذا أشكلت الدعاوىٰ واستعجمت مذاهبها.. ويطلب القاضي البدوي القسم الرهيب في بركة شعيب.. »[٥]، وفي حلب بسورية « اعتاد بعض الناس هناك أن يسافروا إلىٰ ضريح الشيخ ريح زاعمين أنهم يشفون من ريحهم... وللناس في قبر أبي العلاء المعري [بمعرة النعمان بسورية أيضاً] اعتقاد عظيم، يُبيِّتون علىٰ قبره شربة ماء ويستعملونها للبرء من الحمىٰ.

وفي مدينة طنطا [بمصر] يطلب الناس هناك من ضريح عز الرجال ـ وهو أحد تلاميذ البدوي ـ شفاء الأطفال... ومن ضريح محمد الحدري المعروف

---

(١) أصله عيد فرعوني، ويراد له الانتشار الآن مزاحمةً لأعياد المسلمين.

(٢) السابق، ص٥٣.

(٣) الانحرافات العقدية، ص٣٣٦.

(٤) مجلة المشرق، ١١ / ١١ / ١٩٢٠م، مقال: المزارات في شرقي الأردن، ص٩٠٧.

(٥) السابق، ص٩٠٣.

بالعمري شفاء أمراض الروماتيزم ! »[١] .

فإذا كان هذا الاعتقاد الناشئ عن الانحرافات في اسم الله (تعالى) : الشافي، دعا المعتقدين في الأضرحة إلى التوجه إليها بالقربات والعبادات لنيل مرادهم، فإنه أثمر أيضاً تخلفاً اجتماعياً مريعاً، حيث استغنى الناس بالأضرحة عن الطب وعلومه، فما حاجتهم إلى طب (الكفار!) وعندهم أضرحة المسلمين التي تشفيهم - وبأيسر السبل - مما يعجز عنه الأطباء؟! ، وذلك صرف الناس عن تعلم الطب، فأثر ذلك بدوره في تدني مستوى الطب في المجتمع، مما كان يدفع الناس نحو الأضرحة مرة أخرى لطلب الشفاء منها .

يقول علي بن بخيت الزهراني : « ومع توالي القرون وعزوف المسلمين عن الطب، لا يتعلمونه ولا يعملون به لجأ الناس إلى الأضرحة يستشفون بأصحابها، ويطلبون معافاة المرضى منهم وعلاج ذوي العاهات فيهم . . . »، ويقول أيضاً : « . . . إذن : فما الداعي إلى الأطباء بعد ذلك وإلى الأخذ بالأسباب ما دام أن هناك من هذه التمائم والرقى ما يقوم بالحاجة كما كانوا يتصورون، بل لقد كانوا يرون الأطباء الحقيقيين هم صانعو الرقى والتمائم في كثير من الأحوال . . »[٢]، بل وصل بهم الحال إلى الاستشفاء بتراب القبر والأضرحة « فمنهم من يأخذها ويمسح بها جلده، ومنهم من يتمرغ على القبر تمرغ الدابة، ومنهم من يغتسل بها مع الماء، ومن يشربها، وغير ذلك »[٣] .

وإضافة إلى إهمال تعلم الطب فقد أهملت العلوم الأخرى، بل أهملت

---

(١) الانحرافات العقدية، ص٣٣٦ .

(٢) الانحرافات العقدية، ص٣٣٤، ٣٣٧ .

(٣) حافظ أحمد حكمي، معارج القبول، جـ١، ص٣٧٣، وانظر : الديوبندية، تعريفها - عقائدها، لسيد طالب الرحمن، ص٨٧، والانحرافات العقدية، ص٣٣٥ .

الخدمات الاجتماعية للأحياء لانشغال الناس بإعمار مراقد الأموات ! ، وفي هذا يقول علي الزهراني أيضاً : « وهكذا انصرف الناس إلى خدمة الأموات بإعمار أضرحتهم وبناء القباب عليها وصرفوا جهودهم وأموالهم ، وشغلوا عقولهم وقلوبهم بتلك الأعمال التي لا طائل من ورائها إلا وقوع الشرك وفشو المنكرات ، وإضاعة الأعمار والأوقات .

وكان كل ذلك على حساب الاهتمام بخدمة الأحياء بالتربية والتعليم وتوفير وسائل العيش الكريم لهم ، وتقوية الأمة التي كان أعداؤها في الخارج يتربصون بها الدوائر . . »[(١)] .

شرك في التوحيد، وفساد في الأخلاق :

إضافة إلى المفاسد الأخلاقية التي تحدث حول الأضرحة [(٢)] ، هناك أشكال من هذه المفاسد ارتبطت بها أيضاً ، وفي ذلك تضرب (الموالد) بنصيب وافر ، حيث يشيع في معظمها الفساد الأخلاقي مقترناً بالشرك الأكبر والأصغر .

وعادة (الموالد) ليست جديدة فإحياء حفلات وأعياد للعظماء والقديسين من الأمور الموجودة والمتبعة من عهد الفراعنة منذ (٦ آلاف سنة) وحتى الآن ، وقيل : إن أول من أحدث الموالد للأولياء وأصحاب الأضرحة وشرع لها طقوساً - ما زالت معظمها سارية للآن - هم الفاطميون (العبيديون) في القرن الرابع الهجري ، فقد ابتدعوا ستة موالد : المولد النبوي ، ومولد الإمام

---

(١) السابق ، ص٣١٠ .

(٢) انظر على سبيل المثال : الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة ، للدكتور زكريا سليمان بيومي ، ص١٣٣ - ١٣٧ .

علي، ومولد السيدة فاطمة الزهراء، ومولد الحسن، ومولد الحسين، ومولد الخليفة الحاضر!، وذلك بهدف نشر الدعوة الشيعية الباطنية وإلهاء الشعب عن التغيير الديني الذي يحدث، ثم تعددت بعد ذلك الموالد والاحتفالات [١]، ويجدر بالذكر هنا الإشارة إلى الأثر النصراني واليهودي في هذه الموالد، حيث تكاد تتطابق أشكال طقوس احتفالات أعياد الميلاد والموالد للقديسين و(الأولياء) النصارى واليهود مع ما يحدث في موالد الأولياء المسلمين [٢]، حتى إن مولد (أبي حصيرة) اليهودي في قرية (ميتوه) بدمنهور في مصر - والذي كان يُحتفل به قبل التطبيع مع اليهود على أنه ولي مسلم، ويعقد مولده كل عام على هذا الأساس - يأتي إليه اليهود من أنحاء شتى، و« يذبحون الخراف داخل الضريح طبقاً لشريعتهم، ويضعون أكداساً من المكسرات وأفخر أنواع الخمور على القبر (التماساً للبركة)، ويقيمون في خيمة ضخمة بجوار الضريح، وبينما يقضون أياماً في صخب وغناء ومجون، يطوفون حول القبر، ضاربين بأيديهم على صدورهم، وصرخات جنونية، تطلب شفاعة (أبو حصيرة) لتحقيق أمانيهم! »[٣]، وفيه: « تقاد الشموع وتسكب زجاجات الخمر على القبر، ويرقص النساء والرجال عرايا أو شبه عرايا على أنغام شرائط الكاسيت، وفي نهاية الليل يتمددون وهم سكارى فرادى ومتزاوجون في ظل حراسة جنود الشرطة والأمن المركزي! »[٤].

---

(١) انظر: مقال هيام فتحي دربك، موالد الأولياء في مصر، ص٤٣، والوثنية في ثوبها الجديد، لسمير شاهين، ص١٠٤، والصوفية والسياسة، لعمار علي حسن، ص٤٩.

(٢) انظر: موالد مصر المحروسة، ص١٧.

(٣) موالد مصر المحروسة، ص٧٦.

(٤) جريدة (الوفد) القاهرية، ٨/ ٤ / ١٤١٦هـ، ص٦.

هذه صورة من موالد (اليهود)، فماذا عن موالد (المسلمين) ؟

في صدر مقالها عن موالد الأولياء في مصر، تعرف هيام فتحي دربك (المولد) بأنه : « الاحتفال بيوم ميلاد ولي من أولياء الله، والاحتفالات بالموالد تمارس في المنطقة التي فيها قبر الولي، وهي حفلات فولكلورية شعبية من غناء ورقص وتسلية، والاستماع إلى الموسيقى الصاخبة وألعاب الأطفال والمراجيح وحلقات الذكر الذي يتخذ مظهر الرقص أحياناً ومظهر الشعوذة أحياناً أخرى، ففيها يقوم الرجال بعمل حركات من قيام وقعود، وإلى الشمال وإلى اليسار، وهم يذكرون لفظ الجلالة . . الله، الله، حي، حي . . وقد يندمج بعضهم في حلقات الذكر فيشد شعره ويتمرغ على الأرض ! »[١] .

ولكن ماذا عن حالة المولد فيما مضى ؟ : يصف المؤرخ عبد الرحمن الجبرتي أحد الموالد على عهده منذ حوالي مئتي عام، فيقول : « ينصبون خياماً كثيرة، وصواوين، ومطابخ، وقهاوي، ويجتمع العالَم الأكبر من أخلاط الناس، وخواصهم وعوامهم، وفلاحي الأرياف، وأرباب الملاهي والملاعيب والغوازي والبغايا والقرادين والحواة، فيملؤون الصحراء والبستان، فيطؤون القبور، ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً . . »[٢] .

وبين هذا العصر وذاك يصف أحمد شفيق باشا (الليلة الختامية) للمولد النبوي فيقول : « ويزدحم الناس في هذه الليلة ازدحاماً لا مثيل له لمشاهدة هذه الأذكار وسماع أناشيدها، ورؤية النيازك . . وينتهز الشباب فرصة الزحام،

---

(١) هيام فتحي دربك، مصدر سابق، ص٤١ .

(٢) نقلاً عن : هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل، ص١٦١ .

فيكثر الغزل بين الفتيات والفتيان، وتمشي رسائل (اللب والفستق) ونحوها بين العربات التي تحمل الجنسين، مما يجعل من الليلة مهرجاناً: حظ الفتنة فيه أكبر من حظ الدين - إن كان للدين حظ في أمثال هذه الاحتفالات - »[١]. وهذه حقيقة!، فالموالد غالباً ما تكون فرصة للتحلل من كل الضوابط والتفلت من كل القيود سواء أكانت أخلاقية أو شرعية أو حتى تنظيمية، حتى أصبحت كلمة (مولد) تطلق على المواقف التي تشيع فيها الفوضى وعدم الانضباط.

فالمولد فرصة لأن « تنتهك فيه حرمات النساء، وتشرب الخمور »، حتى إنه « أصبح مجال حياة الناس في الترويح عن أنفسهم ومكاناً للهو والرقص والغناء الساقط »[٢]، وفيه « الوليات يفضن الخيرات والبركات على الناس بواسطة المصافحة والتقبيل والعناق، ويقذعن عند ذلك بألفاظ من الفحش لا يليق أن تُحكى فضلاً عن أن تسطر في الأوراق » - كما يذكر الشيخ محمد رشيد رضا -[٣].

وفي أيام الربيع في الأردن يفد الزائرون إلى مزار (جعفر الطيار) « فترى الفتيات يرقصنَ حول المزار بأغاني مطربة ونغمات رقيقة »[٤].. فليس هذا خاصّاً ببلد دون آخر، بل هو موجود بصور مختلفة ودرجات متفاوتة - بحسب عادات كل بلد وتقاليده - حيثما كانت قبورية وأينما كانت موالد أو (احتفالات) أو (أعراس) للأضرحة.

---

(١) نقلاً عن: موالد مصر المحروسة، ص٢٠.

(٢) د. زكريا سليمان بيومي، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص١٣١.

(٣) عن: السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، ص٢٠٧.

(٤) المزارات في شرقي الأردن، ص ٩٠٦.

وبعد:

فقد كانت هذه صورة لبعض نتائج تفشي داء تقديس القبور والأضرحة في العالم الإسلامي .

والملاحظ أن هذه الصورة ما كانت إلا تعبيراً عن الهيمنة السلبية على حياة الناس كلها، حتى أصبحت حياتهم « مرتبطة أشد الارتباط بهذه الأضرحة والقبور، وامتلأت بحبها جوانحهم، وشغفت بها قلوبهم، فهم يلجؤون إليها في الشدائد والملمات، ويلتمسون منها أسباب النصر ودحر الأعداء، ويطلبون منها الرزق والولد والشفاء من الأمراض، ويتحرون الدعاء في رحابها، ويرون أنه مستجاب لا يرد .

ويَرِد إليها المظلومون والمضطهدون لعلها تكشف ما بهم، وتكف أيدي الظالمين عنهم، ويأوي إليها الفقراء والمحاويج ليعيشوا في كنفها وعلى ريع أوقافها وما يقدم لها من نذور وقرابين، ويفر إليها العصاة والمجرمون فيعتصمون بها، ويلوذ بها الخائفون فلا يلحقهم أذى ولا تمتد إليهم يد - ما داموا في حرمها الآمن - .

ويزورونها في المناسبات والأعياد، وتكون آخر عهدهم إذا ودعوا الأهل والبلدان، وأول شيء يبدؤون به إذا عادوا إلى أوطانهم، أو نزلوا في بلد غريب، وكثيراً ما تتحرك الجيوش من رحابها بعد أن تطلب من أربابها أن تمنحهم أسباب الفوز والظفر . . »[١] .

وليس هذا الحال خاصّاً بمحلة دون أخرى، ولكن « صار في كل قطر من

---

(١) علي بن بخيت الزهراني، الانحرافات العقدية، ص٣١٣ - ٣١٤ .

الأقطار، بل في كل مدينة من المدائن، بل في كل قرية من القرىٰ جماعة من الأموات يعتقدهم الأحياء، ويعكفون علىٰ قبورهم، وينتسبون إليهم، وصار ذلك عندهم أمراً مألوفاً مأنوساً، تنبسط إليه نفوسهم وتقبله عقولهم وتستحسنه أذهانهم . . »[١]، بل وصل الحال إلىٰ أن أصبح « أكثر المسلمين في العالم قد عبدوا القبور بأنواع من العبادات، بل عبدوا الأشجار والغارات، وقد ارتكبوا أنواعاً من الشرك بالله (تعالىٰ) ! »[٢] . . فهكذا الحال في البلاد الهندية الشاسعة بطولها وعرضها، وفي بلاد الروم، والترك، والأفغان، وإفريقية، فضلاً عن بلاد العرب وما جاورها [٣].

ولم يقتصر ذلك علىٰ الجهال والطغام، بل شمل جمهرة من المنتسبين إلىٰ العلم الشرعي أو من يسمون أنفسهم بالمثقفين والمتحضرين ! ، لا ينجو من ذلك إلا المتحصن بعقيدته، المستحضر توحيد ربه، الذي امتلأ قلبه بمحبة الله (عز وجل) وخشيته ورجائه .

إن تقديس القبور والأضرحة داء يعمل في أعز ما تملك هذه الأمة وأبرز ما يميزها، وهو التوحيد، وإن من علامات صحة الجسد إحساسه بالألم؛ فالجسد الميت أو الواقع تحت تأثير مخدر لا يحس بالألم رغم وجود مقتضاه، وهذه الأمة لا تموت ولا تنتهي إلا عند الإيذان بانتهاء الحياة في هذه الدنيا، ولكنها قد تدخل في غيبوبة عن أمر دينها أو أمر دنياها، إما بسبب غفلة من أبنائها أو بسبب كيد من أعدائها، أو بكليهما، وعند ذاك فإن كل من يساهم في إزالة أثر المخدر عنها، وكل من يساعد

---

(١) الإمام محمد بن علي الشوكاني، رسالة في وجوب توحيد الله (عز وجل)، ص٩٥ .

(٢) الشيخ مسعود الندوي، نقلاً عن : جهود علماء الحنفية، للدكتور شمس الدين السلفي، ص٤٧٢ .

(٣) انظر : السابق، ص٤٤٧، وما بعدها .

في (إيلامها) أو إظهار ألمها، فإنه يضرب بسهم في معافاتها، لأنها عندما تحس بالألم تعرف أنه أصابها داء، وعندما تدرك أنها مريضة تبحث عن الداء الذي أصابها لتقضي عليه وتفيق من رقادها .

فهل يبذل الدعاة ـ بل كل مسلم موحد ـ جهودهم ويجردون سيوف دعوتهم لإنقاذ الغارقين في غيبوبة الخرافات والأوهام الشركية، الذين أوشكوا على الهلاك ؟.

هذا ما نرجوه ونأمله، وندعو الله العلي القدير أن يوفقنا وإياهم لما يحب ويرضى .

قبس من الظلمات
(ما وراء الطقوس)

خالد أبو الفتوح

ليس من الطبيعي أن يتوجه إنسان إلىٰ حجر أو شجر أو قبر أو أي مخلوق آخر بأشكال التقديس والتقرب، ولذا: فإن الصورة الساذجة المباشرة لهذه الأعمال لا يتصور أنها تنطلي من أول وهلة وبصورتها الساذجة علىٰ المخلوق المكرم بعقله، المميز بفطرته؛ إذ لا بد من وجود حجج وحيثيات تزين هذا الانحراف وتسوغه له، أي: لا بد من وجود (فلسفة) لهذا الأمر حتىٰ ولو لم تظهر مصاحبة له، فهي في كثير من الأحيان تظهر في صورة أشبه ما تكون بالاتجاه النفسي [1] لدىٰ المبتلين بهذا الداء، وهنا تكمن الصعوبة في هذا الجانب من البحث، لأننا نريد دخول منطقة (اللاوعي) عند القبوريين للخروج بالوعي الكامن الذي يحركهم ويدفعهم إلىٰ هذه الأفعال التي من المفترض ألا يقبلها عقل راشد، ولا تستسيغها فطرة سليمة، ولا تسمح بها شريعة منزلة . . فكيف فعلها هؤلاء؟ بل كيف تمسكوا بها ودافعوا عنها ؟ .

عودة إلى الوراء :

الأمر يستدعي منا أن نعود إلىٰ الوراء لننظر : كيف كان يدعىٰ الناس من خلال (الحكمة والفلسفة) إلىٰ الانحراف العقدي ؟ . .

---

(١) الاتجاه النفسي : « ميل عام مكتسب، نسبي في ثبوته، عاطفي في أعماقه، يؤثر في الدوافع النوعية، ويوجه سلوك الفرد »، انظر : أسس علم النفس الاجتماعي، للدكتور مختار حمزة، ص ٢٤٤ .

في البدء كان التوحيد، ولم يكن شرك على وجه الأرض، وكان في الناس بعض المميزين بصلاحهم المبرزين بعبادتهم، ثم طالت فترة الناس عن نور الوحي فقلَّ فيهم عدد هؤلاء المميزين، ولكن يبقى الناس مجلِّين هؤلاء الصالحين، متمسكين بشعاع التقوى والعبادة يريدون عدم الانسلاخ منه، وهنا يبرز الشيطان مزيناً بداية خط الانحراف: «لو صوَّرتم صورهم، فكنتم تنظرون إليهم»، و«أرى جزعكم على هذا، فهل لكم أن أصور لكم مثله، فيكون في ناديكم فتذكرونه «به»، فقط اتخاذ (الرمز)؛ للتذكرة بالعبادة والصلاح . . !، فصوروا، ثم ماتوا . . فنشأ قوم بعدهم فقال لهم إبليس: «إن الذين كانوا من قبلكم كانوا يعبدونها» فعبدوها . . إنه (التقليد) . .

فباتخاذ (الرمز) واحترامه وتعظيمه، ثم بـ(التقليد) الذي قاد إلى التقديس حدث أول شرك، وهذا ما حدث في قوم نوح (عليه السلام)(١). **فكيف كانت (فلسفة) الشرك في قوم إبراهيم (عليه السلام) ؟! .**

نشأت عبادة الكواكب عندهم من التعلق بالملائكة، واعتقاد أنهم (وسطاء) بين الله وخلقه، وأنهم موكول إليهم تصريف هذا العالم، ثم اعتقدوا أن الأفلاك والكواكب أقرب الأجسام المرئية إلى الله (تعالى)، وزعموا أنها أحياء ناطقة مدبرة للعالم، وأنها بالنسبة للملائكة كالجسد للروح، فهي الهياكل، والملائكة الأرواح، وأنها متصفة بصفات مخصوصة، ولوجود هذه الصفات استحقت أن

---

(١) انظر: ما أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب تفسير القرآن، سورة نوح، عن ابن عباس (رضي الله عنهما)، في تفسير قوله (تعالى): ﴿ ... وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ﴾ [نوح: ٢٣]، وانظر: تفسير الطبري، جـ٢٩، ص ٦٢، و إغاثة اللهفان، لابن القيم، جـ١، ص ١٨٤ .

تكون آلهة تعبد . . فكانوا يتقربون إلىٰ الهياكل (الكواكب) تقرباً إلىٰ الروحانيات(الملائكة) ، ويتقربون إلىٰ الروحانيات تقرباً إلىٰ الباري (تعالىٰ)، وهؤلاء يسمون (أصحاب الهياكل) .

ولما كانت هذه الكواكب يختفي أكثرها في النهار وفي بعض الليل لما يعرض في الجو من الغيوم والضباب ونحو ذلك رأوا أن ينصبوا لهذه الكواكب أصناماً وتماثيل علىٰ هيئة الكواكب السبعة (الشمس ، والقمر ، والزهرة ، والمشتري ، وعطارد ، والمريخ ، وزحل) حينما تصدر أفعالها عنها ـ كما يزعمون ـ كل تمثال يقابل هيكلاً . . . واعتقدوا أن التقرب إلىٰ هذه الأصنام هو (الوسيلة) إلىٰ الهياكل (الكواكب) التي هي وسيلة إلىٰ الروحانيات (الملائكة) ، التي هي وسيلة إلىٰ الله (تعالىٰ) . . وهؤلاء يسمون (أصحاب الأشخاص) [١] .

مرة أخرىٰ : إنه (الرمز)، ولكن يظهر هنا جليّاً دور قدسية (الأرواح) التي نسبوها إلىٰ الملائكة ، وعقيدة (الواسطة) و(الوسيلة) .

ويعيد إبراهيم (عليه السلام) إرساء عقيدة التوحيد صافية نقية ، وينشر إسماعيل (عليه السلام) ملة أبيه إبراهيم بين العرب ، ويظل أبناؤه علىٰ ذلك التوحيد ، معظمين أول بيت وضع للناس الذي رفعه خليل الله مع ابنه إسماعيل . . إلىٰ أن بعدت الفترة بين العرب ونور النبوة ، ثم اندرس كثير من آثار العلم ، فقلّت حصانتهم ضد الانحراف ، وأصبحت الفرصة مواتية للتحريف ، وهنا برز عمرو بن لحيّ الخزاعي آتياً بالأصنام إلىٰ مكة ، فنصبها وأمر الناس بعبادتها وتعظيمها [٢]، فعبدوها ، ولكنهم لم يعبدوها لمجرد كونها حجارة أو أخشاباً ، بل

---

(١) بتصرف عن : التنجيم والمنجمون وحكمهم في الإسلام ، لعبد المجيد بن سالم بن عبد الله المشعبي ، ص ٤٣ ، ص ٤٥ . وانظر : تفسير ابن كثير ، جـ٢ ، ص ١٤٠ ـ ١٤١

(٢) روىٰ القصة بتفاصيلها ابن إسحاق (١/ ٧٦) عن أبي هريرة مرفوعاً ، وصححها محمد =

عبدوها « معتقدين أنها منازل الأرواح - كما بيّن الإخباريون - »(١) . . مرة أخرىٰ إنه (الرمز) و (الأرواح) . . ثم : بسبب (التقليد) وبسبب ضعف تمثل تعاليم الملة الحنيفية في نفوس الناس، بل ربما كانت تفاصيل هذه التعاليم قد ضاعت . . استمرت فيهم هذه الوثنية مع شعائرها وعاداتها واعتقاداتها عقوداً متتابعة (٢)، ووصل الولع بـ(تقديس الرمز) إلىٰ هاوية سحيقة، حيث روىٰ أبو الرجاء العطاردي : « كنا نعبد الحجر، فإذا وجدنا حجراً هو أَخْيَر (!) ألقيناه وأخذنا الآخر، فإذا لم نجد حجراً جمعنا جُثوة من تراب ثم جئنا بالشاة فحلبناه عليه ثم طفنا به . . »(٣) . . ومع ذلك قالوا : ﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ ﴾ [الزمر: ٣]، وقالوا أيضاً : ﴿ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ ﴾ [يونس: ١٨] . . إنها : (الواسطة) و (الوسيلة) .

ونفترض هنا سؤالاً مهماً : لو كان عمرو بن لحي خرج في صحابة رسول الله (ﷺ) يدعوهم إلىٰ عبادة الأوثان تقرباً إلىٰ الرحمن، أكان يجد من يتبعه منهم؟، بداهة : لا، وإذا كان الأمر كذلك : فلماذا لم يرفض العرب ما جاء به عمرو من تحريف دين إبراهيم وعبادة الأصنام من أول وهلة ؟ . .

=ابن رزق بن طرهوني في (السيرة الذهبية)، ١/ ٦٥، وانظر : فتح الباري، جـ٦ ص ٦٣٤، وصحيح مسلم، ك/ كسوف الشمس، باب رقم ٩، ٦٠، والمسند : ٣/ ٣٥٣، ٥/ ١٣٧ .

(١) د. أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، جـ١، ص ٨٤ .

(٢) انظر : السابق، ص ٨٣ ، ٨٤ .

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة .

يوضح الإجابة على مثل ذلك كلام لابن القيم (رحمه الله)، حيث يقول : « قبول المحل لما يوضع فيه مشروط بتفريغه من ضده، وهذا كما أنه في الذوات والأعيان فكذلك هو في الاعتقادات والإرادات، فإذا كان القلب ممتلئاً بالباطل اعتقاداً ومحبة لم يبق فيه لاعتقاد الحق ومحبته موضع . . . وسر ذلك : أن إصغاء القلب كإصغاء الأذن، فإذا أصغى إلى غير حديث الله لم يبق فيه إصغاء ولا فهم لحديثه، كما إذا مال إلى غير محبة الله لم يبق فيه ميل إلى محبته . . . »(١).

لم يكن عمرو بن لحيّ أول من ألقى إلى العرب مفهوم تقديس الرمز وإن كان هو أول من جسده في صورة أوثان وأصنام، لقد كان العرب ـ بسبب ضعف آثار علم النبوة الذي أشرنا إليه، وبذريعة (تقديس الرمز) ـ وصلوا إلى ما يمكن أن نطلق عليه : (حالة القابلية للشرك)، فلقد ذكر ابن الكلبي في كتابه (الأصنام) وابن إسحاق في سيرته « أنهم كانوا لا يظعن من مكة ظاعن إلا حمل معه حجراً من حجارة الحرم ؛ تعظيماً للحرم وصبابة به، فحيثما حل وضعوه وطافوا به كطوافهم بالكعبة ؛ تيمناً منهم بها، وصبابة بالحرم، وحبّاً له »(٢).

وهكذا هي دائماً (فلسفة) الوثنية عامة ـ كما روج لها إخوان الصفا ـ (٣) :
«فلما مضى أولئك الحكماء والربانيون العارفون بالله حق معرفته وانقرضوا :

---

(١) الفوائد، ص ٤٤ ـ ٤٥ .
(٢) د. محمد محمد أبوشهبة، السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، جـ١، ص ٧١ .
وانظر : السيرة النبوية لابن كثير، جـ١، ص ٦٢ .
(٣) تعتبر (رسائل إخوان الصفا) مرجعاً مهمّاً في تسويغ عقائد الباطنية الشركية، وقد ألفها مجموعة من الفلاسفة أشياع الفاطميين (العبيديين) في القرن الرابع الهجري .

خَلَفهم قوم آخرون لم يكونوا مثلهم في المعرفة والعلم، ولم يعرفوا مغزاهم في دياناتهم، فأرادوا الاقتداء بهم في سيرتهم واتخذوا أصناماً على مثل صورتهم، وصوروا تماثيل على مثل ما فعلت النصارى في بيعهم من التماثيل والصور ... ليكون ذلك (تذكاراً) لهم بأحواله كيفما يمموا تلك التصاوير والتماثيل »[١].

فتقديس (الرمز) ذريعة إلى الشرك، « وهذه العلة - التي لأجلها نهى الشارع - هي التي أوقعت كثيراً من الأمم: إما في الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك؛ فإن النفوس قد أشركت بتماثيل القوم الصالحين، وبتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب، ونحو ذلك، فلأن يُشْرَك بقبر الرجل الذي يعتقد نبوته أو صلاحه .. أعظم من أن يشرك بخشبة أو حجر على تمثاله؛ ولهذا تجد أقواماً كثيرين يتضرعون عندها، ويتخشعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يعبدونها في المسجد، بل ولا في السَّحَر .. »[٢].

حقيقة القبورية:

وهنا نأتي إلى القبوريين: كيف تبدأ علاقتهم بالقبر أوالضريح؟ وكيف تنتهي بهم إلى الشرك الأكبر أو فيما دونه من الشرك - حسب تعبير ابن تيمية (رحمه الله) -؟ .. تبدأ العلاقة بتقديس (الرمز) .. رمز الصلاح والتقوى والمنزلة الرفيعة عند الله، ومن ثم: تستحب زيارة تلك البقاع، ليس لتذكر الموت والآخرة، بل لتذكر (الرمز) والاعتبار به، ولأن هذه الأماكن (مباركة)، ولأن الملائكة و(الأرواح) تنتشر حولها - كما يزعمون -، فإن دعاء الله يحسن عندها،

---

(١) عن: (هذه مفاهيمنا)، للشيخ صالح بن عبد العزيز آل الشيخ، ص ١٠١ - ١٠٢.

(٢) ابن تيمية، اقتضاء الصراط المستقيم، ص ٣٣٤، وانظر: حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد، لمحمد بن سلطان المعصومي الحنفي، ص ٢٥.

فهو أرجح منه في البيت والمسجد وأوقات السَّحَر، كما أن البركة (تفيض) على كل شيء حول القبر، فمن أراد التزود منها فليلمس، ويقبِّل، ويتمسح، فإذا تقرر ذلك هبط إلى دركة تالية : من دعاء الله عنده إلى الدعاء به والإقسام على الله به، أي : اتخاذه (واسطة) و (وسيلة) للاستشفاع به عند الله؛ فصاحب الضريح طاهر مكرم مقرب له جاه عند الله، بينما صاحب الذنب - أو الحاجة - يتلطخ في أوحال خطيئته، غير مؤهل لدعاء الله، فإذا تقرر ذلك هبط إلى دركة أخرى : فما دام هذا المقبور مكرماً فليس بممتنع أن يعطيه الله القدرة على التصرف في بعض الأمور التي لا يقدر عليها طالب الحاجة، فيدعى صاحب القبر، يُرجى ويُخشى، يستغاث به، ويطلب المدد منه، ولِمَ لا ؟!؛ فهو صاحب (السر) الذي توجل منه النفوس، وترتجف له القلوب، وتتحير فيه العقول!، فإذا تقرر ذلك هبط دركة - ليست أخيرة -، حيث « يتخذ قبره وثناً، يعكف عليه، ويوقد عليه القنديل، ويعلق عليه الستور، ويبني عليه المسجد، ويعبده بالسجود له، والطواف به، وتقبيله، واستلامه، والحج إليه، والذبح عنده، ثم ينقله [الشيطان] درجة أخرى : إلى دعاء الناس إلى عبادته، واتخاذه عيداً ومنسكاً، وأن ذلك أنفع لهم في دنياهم وآخرتهم . . . »(١).

هذا هو الواقع : ليست المسألة مظاهر وطقوساً مجردة ، بل هي أعمال جوارح، نتجت عن أعمال قلوب، تحركها تصورات واعتقادات رسخت في النفوس وتخللتها وذابت فيها إلى الحد الذي لم تعد فيه بارزة منفصلة عن تلك المظاهر والطقوس . . هذا هو التصور المقنع لما يعمله أي إنسان عاقل؛ فـ« مبدأ كل علم نظري وعمل اختياري هو الخواطر والأفكار، فإنها توجب التصورات،

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، جـ١ ، ص ٢١٧ .

والتصورات تدعو إلى الإرادات، والإرادات تقتضي وقوع الفعل، وكثرة تكراره تعطي العادة . فصلاح هذه المراتب بصلاح الخواطر والأفكار، وفسادها بفسادها»[١] .

فالحقيقة أن: «من يدعو الأموات ويهتف بهم عند الشدائد ويطوف بقبورهم ويطلب منهم ما لا يقدر عليه إلا الله (سبحانه)، لا يصدر منه ذلك إلا عن اعتقاد كاعتقاد أهل الجاهلية في أصنامهم، هذا إن أراد من الميت الذي يعتقده ما كان تطلبه الجاهلية من أصنامها من تقربهم إلى الله، فلا فرق بين الأمرين . وإن أراد استقلال من يدعوه من الأموات بأن يطلبه ما لا يقدر عليه إلا الله (عز وجل)، فهذا أمر لم تبلغ إليه الجاهلية . . . »[٢] . فالمشرك إنما يتخذ معبوده لما يعتقد أنه يحصل له به من النفع . . والأمور التي حرمها الله ورسوله: من الشرك والسحر والقتل . . قد يكون للنفس فيها حظ مما تعده منفعة أو دفع مضرة، ولولا ذلك ما أقدمت النفوس على المحرمات التي لا خير فيها بحال، يدل على ذلك: أنك ترى المشرك يكذب حالُه وعملُه قولَه، فإنه يقول: لا نحبهم كحب الله، ولا نسويهم بالله، ثم يغضب لهم ولحرماتهم - إذا انتهكت - أعظم مما يغضب لله، ويستبشر بذكرهم ويفرح به - سيما إذا ذكر عنهم ما ليس فيهم من إغاثة اللهفات وكشف الكربات وقضاء الحاجات - ، وإذا ذكرت الله

---

(١) ابن القيم، الفوائد، ص ٢٣٦ .

(٢) الإمام محمد بن علي الشوكاني، رسالة وجوب توحيد الله (عز وجل)، ت: د. محمد ابن ربيع هادي المدخلي، ص ٨٠، وانظر: تعليق المحقق، ص ٨١ .

(٣) انظر: مدارج السالكين، لابن القيم، جـ١، ص ٣٨٢، ٣٨٣ . ومجموع الفتاوى، جـ٢٧، ص ٩٠ .

وحده وجرَّدت توحيده لحقته وحشة، وضيق، وحرج[٣].

فالمسألة في حقيقتها : تقديس (الرمز) واتخاذه (واسطة) أو (وسيلة) لقضاء الحاجات وللشفاعة عند الله ..

هكذا هي في أدبيات القبوريين : « جاء في الرسالة (٤٢) من رسائل إخوان الصفا (٤/ ٢١) قولهم : من الناس من يتقرب إلى الله بأنبيائه ورسله وبأئمتهم وأوصيائهم أو بأولياء الله وعباده الصالحين، أو بملائكة الله المقربين والتعظيم لهم ومساجدهم . . . فإن قصر فهمه ومعرفته بهم فليس له طريق إلا اتباع آثارهم والعمل بوصاياهم والتعلق بسننهم والذهاب إلى مساجدهم ومشاهدهم والدعاء والصلاة والصيام والاستغفار، وطلب الغفران والرحمة عند قبورهم وعند تماثيلهم المصورة على أشكالهم، لتذكار آياتهم وتعرف أحوالهم من الأصنام والأوثان وما يشاكل ذلك، طلباً للقربة إلى الله والزلفى لديه . . . »[١] . . ويقول المالكي : « الاستغاثة عند الشدائد بأكابر المقربين من أعظم مفاتيح الفرج ومن موجبات رضى رب العالمين . . » ويقول أيضاً : « . . المدار في صحة التوسل أن يكون للمتوسل به القدر الرفيع عند ربه (عز وجل)، وأنه لا يشترط كونه حيّاً في دار الدنيا . . »[٢] . ومما نقله الشيخ محمد رشيد رضا عن كتاب لأحد دعاة القبور : « وكل ما في الأمر أنه [أي : المتوسِّل بغير الله] يرى نفسه ملطخاً بقاذورات المعاصي، أبعدته الغفلات عنه [أي : عن الله] أيما إبعاد، فيفهم من هذا أنه جدير بالحرمان من تحقيق مطالبه وقضاء حاجاته، وله الحق في

---

(١) عن : هذه مفاهيمنا، ص ٣٢، ص ١٠٢ .

(٢) عن : السابق، ص ٨٢ ، ص ٣١ .

(٣) مجلة المنار ، جـ٣، م ٣٣، ص ٢١٦ .

هذا الفهم . . . »[٣].

وهكذا هي في مكنون تراثهم الشعبي؛ فإذا استطلعنا الأمثال الشعبية المصرية ـ كنموذج لهذا التراث في العالم الإسلامي ـ نجد منه قولهم: « من زار الاعتاب ما خاب » أي: من زار الأضرحة والأعتاب (المقدسة) قضيت حاجته ونال مراده، « فالاعتقاد الشعبي في الأولياء يتلخص في أن الله قد منح بعض عباده المقربين (امتيازات) لا حدود لها . . يكوِّنون حول الرسول ديواناً سماوياً ينشر قدرته »[١].

ونجد في هذا التراث أيضاً: « يوضع سره في أضعف خلقه »، والمفهوم من كلمة (سره) أنها القدرة المستندة إلى أسباب غيبية ومحيرة، وأضعف خلقه مقصود بهم: المجانين والمجاذيب والأطفال . . .

ولعل من دقيق فقه الإمام محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) في دين الله، وإحاطة فقهه بواقع الناس وحالهم . . ما جاء في معرض تعريفه للألوهية والإله، حيث لم يقدم تعريفاً لغوياً واصطلاحياً ـ رغم علمه بذلك ـ كما هو معتاد، بل نفذ إلى حقيقة واقع الناس في زمنه، موضحاً لهم حقيقة التوحيد والشرك من أقصر طريق، فقال: «فاعلم أن هذه الألوهية هي التي تسميها العامة في زماننا: السر، والولاية . والإله معناه: الولي الذي فيه السر، وهو الذي يسمونه: الفقير، والشيخ، وتسميه العامة: السيد، وأشباه هذا، وذلك أنهم يظنون أن الله جعل لخواص الخلق منزلة يرضى أن الإنسان يلجأ إليهم، ويرجوهم، ويستغيث بهم، ويجعلهم واسطة بينه وبين الله »[٢]، ويقول أيضاً:

---

(١) موالد مصر المحروسة، عرفة عبده علي، ص ٨٥ .

(٢) رسالة (هدية طيبة)، ضمن مجموعة التوحيد، ص ١٥٢ .

« وإنما يعنون [أي : مشركو مكة] بالإله ما يعني المشركون في زماننا بلفظ السيد»، ويقول : « . . . هذا الذي يسميه المشركون في زماننا : الاعتقاد، هو الشرك الذي نزل فيه القرآن . . »(١) .

وكذلك هي في واقعهم؛ يقول أحدهم : « إن الوهابيين يقولون : إن أولياء الله لا يستطيعون دفع الذباب عن قبورهم، ولكنهم لا يعلمون أن لهم قدرة أن يقلبوا العالم كله، ولكنهم لا يتوجهون إلى ذلك »، ونقلوا عن محمد الحنفي أنه قال في مرض موته : « من كانت له حاجة فليأت إلى قبري، ويطلب حاجته أقضها له »(٢)، « فالاعتقاد السائد : أن البركة إنما تسري من الولي إلى الضريح إلى المناديل والملابس التي مسحت بها، والأغرب من ذلك : ما يحدث عند تغيير كسوة الضريح وعمامة الولي الخاصة، هنا يسعى الجميع للحصول على قطع من هذه الكسوة أو العمامة مع استعدادهم لسداد أي مبلغ يطلب منهم . . . »(٣) .

وذكر المؤرخ الحضرمي صلاح البكري : أن بعض المرضى يأكلون من تراب بعض تلك القبور طلباً للشفاء(٤)، فـ« (سلطة) الأولياء تبدو في الأمراض العمومية التي تفتك فتكاً ذريعاً بالإنسان والحيوان »، ومقام (النبي يوشع) نال إكراماً من قديم الزمن لما وجدوا فيه من الخوارق (٥) وتقول إحدى الفرق في قبر

---

(١) رسالة (كشف الشبهات)، ضمن مجموعة التوحيد، ص ١٠٢، ص ١١٣ .

(٢) عن : جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي الأفغاني، ص١٠٨٣، وانظر : البريلوية، عقائد وتاريخ، إحسان إلهي ظهير، ص٧٤، ص٥٩ .

(٣) هيام فتحي دربك، مقال بعنوان : موالد الأولياء في مصر، المجلة العربية، ع/ ١٣١، ذو الحجة ١٤٠٨ هـ، ص ٤٣ .

(٤) انظر : الانحرافات العقدية، ص ٣٣٥ .

(٥) الخوري بولس سلمان، المزارات في شرقي الأردن، مجلة المشرق، ١١/ ١١/ ١٩٢٠م، ص ٩١٣، ٩٠٢ .

شيخها : « إن قبره ومزاره دار الشفاء للمرضى، وأنه حلاّل المشاكل، ومسهّل الأمور، وقاضي الحاجات » و« إن المرضى كانوا يستشفون من عيسى، ولكن أحمد رضا يحيي الأموات ! »(١).

والمسألة في حقيقتها : اعتقاد في تأثير (الأرواح)؛ « فإنهم قالوا : الميت المعظم الذي لروحه قرب ومزية عند الله (تعالى) لا يزال تأتيه الألطاف من الله (تعالى) وتفيض على روحه الخيرات؛ فإذا علق الزائر روحه به وأدناه منه : فاض من روح المزور على روح الزائر من تلك الألطاف بواسطتها كما ينعكس الشعاع من المرآة الصافية والماء ونحوهما على الجسم المقابل له »(٢).

ويقول الشيخ مناظر أحسن الكيلاني، أحد أبناء طائفة الديوبندية الصوفية : « فلسنا ننكر الاستعانة بأرواح المشايخ »، وينسب ذلك زوراً إلى أهل السنة، ثم يقول : « فما المانع من أن تستعمل القدرة الإلهية هذه الأرواح الطيبة وتقيضها لإغاثة المؤمن المضطرب ؟! »، ويقول الشيخ أخلاق حسين القاسمي من الطائفة نفسها : « إن أرواح المؤمنين - وخاصة أرواح الأولياء والصالحين - قادرة على التصرف في هذا الكون بعد مفارقة الأجساد . . . »(٣)، ويقرر آخر ذلك المفهوم، فيقول : « هذا ما حكاه الشيخ حسين أحمد المدني، ويدل على عدة أمور، منها : مخاطبة الأرواح، وكشف القبور، وكون الأرواح موجودة في القبور، وأنها خبيرة بأحوال الدنيا، وأنها تدعو لأهل الدنيا أو عليهم،

---

(١) البريلوية، ص ٧٥ .

(٢) محيي الدين البركوي الحنفي، زيارة القبور الشرعية والشركية، ص ٤٨ .

(٣) الديوبندية - تعريفها، عقائدها . . ، سيد طالب الرحمن، ص ٦٩، ٧٧-٧٨ .

(٤) السابق، ص ١٤٢ .

والاستفادة من الأرواح »[٤] .

وهذا ما يشهد به واقعهم : فأعراب شرقي الأردن يسمُّون المقام وليّاً ؛ لأن أرواح الصالحين تقطن في ذلك البناء ، بل يزعمون « أن أرواح الأولياء تسكن في القبور حيث يرقد جثمانها ، وهي كالبشر في جميع احتياجاتهم من أكل وشرب ، فيدَّعون أن الرياح والثلوج تؤثر بهم ، والجوع يفنيهم »[١] .

وينقل الشيخ محمد رشيد رضا عن أحد دعاة القبورية قوله : « إن الدعاء والاستغاثة بالموتىٰ وبالأحياء من هؤلاء الأحباب سواء ؛ لأن الموتىٰ منهم أحياء في قبورهم يفعلون أفعال الأحياء فيها وفي خارجها »[٢]، ويقول آخر : « إن تصرف الأولياء يزداد بعد وفاتهم »[٣] .

والقبوريون « أمام قبر الولي يركعون ويبكون ويتوسلون إليه ، معتقدين أن الولي ينظر إليهم ويراهم ، وأن روحه الطاهرة تحوم حولهم »[٤] . . ولعل ذلك يوضح الاعتقاد التالي : « يسود الاعتقاد بأن اجتماع أكثر من ولي في موضع ما أو ما يمكن أن نسميه (رابطة أولياء) ! . . يسهم في قوة الشفاعة ومدىٰ قبولها ، وهو ما يفسر وجود بعض مقابر الأولياء حول ضريح القطب أو بالقرب منه . . . والسيرة الذاتية لأولياء (الجوار) تتوارىٰ في ماضٍ مجهول ، فالأهم أن (البركة الجماعية تسهم في فعالية الشفاعة) »[٥] .

---

(١) الخوري بولس سلمان ، المزارات في شرقي الأردن ، مجلة المشرق ، ص ٩٠١ ، ص ٩١١ .

(٢) المنار ، جـ٣ ، م٣٣ ، ص ٢١٦ .

(٣) البريلوية ، عقائد وتاريخ ، ص ٧٤ .

(٤) هيام فتحي دربك ، مصدر سابق ، ص ٤٣ .

(٥) موالد مصر المحروسة ، ص ٨١ .

وفي مشاكلة لقوله (تعالىٰ) : ﴿لن ينال الله لحومها ولا دماؤها﴾ [الحج : ٣٧] يوضح السملالي حقيقة علاقة القبورية بـ(الأرواح) فيقول : « فائدة : أخبرني صاحبنا الفقيه أبو سرحان المغازي (رحمه الله) أن بعض الأولياء اجتمع بالشيخ أبي العباس السبتي ، فقال له الشيخ : إذا أتيت لضريحي بصدقة فاجعلها ذبيحة ؛ لأن (الروحانيين من الجن) ملازمون للضريح ! وهم ينتفعون بدم الذبيحة وظلفها دون غيرها ؛ فإنه لا يحصل لهم منها كبير فائدة »[١] .

ومما يؤكد اعتقاد القبوريين في تأثير أرواح (الأولياء) بالتصرف أن كثيراً من هؤلاء المقبورين كانوا في معظم حياتهم (غير فعالين) في الخوارق ، ووجد القبوريون فيهم ذلك بعد مماتهم ؛ فالشيخ عبد الله في معان بالأردن عاش بالصلاح والتقوىٰ وكان خطيباً ينذر القوم بالوعد والوعيد ، فلم يجد في عشيرته من يعي كلامه ويحفظه ، فلما استوفىٰ أيامه أظهر الله كراماته بشفاء كثير علىٰ ما زعموا[٢] . . والشيخ أحمد رضوان الذي يعتبر ضريحه من أشهر الأضرحة في صعيد مصر في العصر الحديث ، روىٰ كيف أنه « قضىٰ نحو الثلاثين سنة في بلاء ومحنة حتىٰ كرهه أهل قريته ، ووجدوا فيه إنساناً بغيضاً ، حتىٰ تمنىٰ له بعضهم الموت . . . (ولكني لم أغضب منهم ، ولم أدع عليهم ، بل دعوت لهم دائماً أن يرقق الله قلوبهم وأيديهم !) »[٣] .

بل وصل الأمر إلىٰ حد « أن الأكراد عظموا شريفاً صالحاً مر عليهم في

---

(١) عن : (الانحرافات العقدية) ، ص ٣٣٠ .
(٢) المزارات في شرقي الأردن ، مجلة المشرق ، ص ٩٠٨ .
(٣) موالد مصر المحروسة ، ص ٢٩ .
(٤) د . زكريا سليمان بيومي ، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة ، ص ٢٣ ، هامش ١ .

سفره، ولحبهم فيه أرادوا قتله ليبنوا عليه قبة يتوسلون بها »(٤) .

وهكذا هي في التراث الشعبي، فمن الأمثال الشعبية المصرية : « يا شيخ يا ابو قبة ما كنتش بحبك في الدنيا عِنت بحبك في التربة »، أي : يا شيخ يا صاحب قبة الضريح لم أكن أحبك في حياتك الدنيا وأصبحت أحبك بعد مماتك في المقبرة، ومنها أيضاً : « بعد ما راح المقبرة بقى سكَّره » أي : أصبح مرغوباً فيه مثل السكر . . فما الفرق بين الحياة والممات إلا في انفصال (الروح) عن الجسد؟! .

والمسألة في حقيقتها : تعلق القلوب بالضريح وصاحبه والتوجه إليه بمشاعر الإجلال والمهابة ..

هكذا يشهد حالهم : « فإن عباد القبور يعطونها من التعظيم والاحترام والخشوع ورقة القلب والعكوف بالهمة على الموتى ما لا يفعلونه في المساجد، ولا يحصل لهم فيها نظيره ولا قريب منه »(١) .

ولعل السبب في ذلك أن « غرَّهم الشيطان، فقال : بل هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين، وكلما كنتم أشد لها تعظيماً، وأشد فيهم غلوّاً، كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد »(٢) .

وهذا ما يقرره أحد مشائخ القبوريين، الذي يقول : « إن صاحب هذا القبر شيخنا محمد إلياس يوزع النور الذي ينزل من السماء في قبره بين مريديه حسب

---

(١) ابن القيم، إغاثة اللهفان، جـ١، ص ١٩٨ .

(٢) السابق، ص ١٨٩ .

(٣) الديوبندية، ص ١٣٢ .

قوة الارتباط والتعلق به »(٣)، وقالوا : « كل من كان متعلقاً بنبي أو رسول أو ولي فلا بد له أن يحضره ويأخذ بيده في الشدائد »(١).

فكلما توغل القبوري في غيّه كلما حرص على إبراز قوة الارتباط والتعلق بالضريح وشدة تعظيمه وغلوه فيه، وفي ذلك قال ابن الرومي في (شرح المختار) : « قد قرر الشيطان في عقول الجهال أن الإقسام على الله بالولي والدعاء به أبلغ في تعظيمه، وأنجح لقضاء حوائجه، فأوقعهم بذلك في الشرك »(٢)، وعلى ذلك « فقد يقسم الأعرابي بالله دفعات متوالية على أنه يخشى أن يذكر اسم (شعيب) بالكذب مرة واحدة؛ لأنه (مظهر الأسرار وموضح الخفيَّات)»(٣)، وعندما سئل أحد التجار : لماذا يقسم بصندوق ضريح القرية، ولا يقسم بالله عندما يحاسب زبائنه؟ أجاب : « إنهم هنا لا يرضون بقسم الله، ولا يرضون إلا بقسم صندوق نذور الضريح أو سور الضريح لسيدنا فلان»(٤) . . فهل هذا إلا للتعظيم والإجلال والرهبة وتعلق القلب بالضريح وصاحبه؟ . .

وأحوالهم في ذلك عديدة : فمقام (النبي هارون) بالأردن : « يهجع الزائر (المؤمن) تحت ظله فيشعر بما لا يوصف من المسرة والحبور »، وتزور المرأة العاقر مقام (النبي يوشع) « حافية خاشعة، وتجثو أمام الضريح وتقبله بدموع وتضرع . . ومنهن من يرقدن الليالي الطويلة بين أسواره بالصوم والصلاة ثم يغادرنه وفي

---

(١) البريلوية ـ عقائد وتاريخ، ص ٦٠ .

(٢) حكم الله الواحد الصمد في حكم الطالب من الميت المدد، لمحمد بن سلطان المعصومي الحنفي، ص ٢٥ .

(٣) مجلة المشرق، المزارات في شرقي الأردن، ص ٩٠٥ .

(٤) د. عبد الكريم دهينة : الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص ١١٧ .

أنفسهنَّ الآمال والمسرات »، وقد « لا يبتسم لها ثغر ولا يفرح لها قلب؛ لأن الأولياء (الظالمين) قد ربطوا رحمها عن الولادة؛ فكل مصيبة من مصائب البادية تعزىٰ إما إلىٰ الأرواح وإما إلىٰ الأولياء، فلا يهدأ للبدوي بال إلا بالتقادم ووفاء النذور »[١] . . ويلخص هذا التعلق أبو الثناء الآلوسي عندما يصف موقفاً مر به في إحدىٰ زياراته للأضرحة والمزارات، فيقول: « حتىٰ أتينا قرية يقال لها (قارحين) وهناك قبر عليه قبة ثلجية قد زرناه فلم نحس منه (بروحانية) »[٢] . . ويقول البريلوي أحمد رضا المسمي نفسه بعبد المصطفىٰ : « إنني لم أستعن في حياتي بأحد ولم أستغث بغير الشيخ عبد القادر، وكلما أستغيث أستغيث به، ومرة حاولت أن أستغيث وأستعين بولي آخر، وعندما أردت النطق باسمه للاستغاثة والاستعانة ما نطقت إلا بـ(يا غَوْثاه)، فإن لساني يأبىٰ أن ينطق الاستعانة بغيره »[٣] . . وهذا الموقف النفسي يرصده شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) عندما يتحدث عن تفرق القبوريين حسب تمسك كل منهم بالضريح الذي تتوق نفسه إليه، فيقول : « ولهذا كان المتخذون القبور مساجد لما كان فيهم من الشرك ما فيهم قد فرقوا دينهم وكانوا شيعاً، فتجد كل قوم يعظمون متبوعهم أو نبيهم، ويقولون : الدعاء عند قبره يستجاب، وقلوبهم معلقة به دون غيره من قبور الأنبياء والصالحين وإن كان أفضل منه، كما أن عباد الكواكب والأصنام كل منهم قد اتخذ إلهه هواه، فهو يعبد ما يألهه وإن كان غيره أفضل منه »[٤] .

---

(١) مجلة المشرق، ص ٩٠٦؛ ص ٩٠٣؛ ص ٩١٣ .
(٢) الانحرافات العقدية، ص ٣٤٧ .
(٣) عن : البريلوية ـ عقائد وتاريخ ، إحسان إلهي ظهير، ص ٥٨ .
(٤) مجموع الفتاوىٰ، جـ ٢٧ ، ص ١٦٤ .

وهكذا هي في تراثهم الشعبي، فيقول المثل الشعبي : « الشيخ البعيد سره باتع »، أي : صاحب الضريح البعيد سره مؤكد مقطوع به، والبعد : مسألة نسبية، فالضريح البعيد بالنسبة إلىٰ هؤلاء قريب لغيرهم، والقريب إليهم الذي لا يرغبونه بعيد عن غيرهم، فما الذي يجعل الضريح البعيد مرغوباً أكثر من غيره؟ . . إنه شوق القلب وحنينه الذي يساعد البعد في تولده، وهذا ما يعبرون عنه بصفة عامة في مَثَل آخر يقول : « ابعد حبة (بعض الشيء) تزيد محبة » . . فتعلق القلب رغبة ورهبة ومحبة تجعل « آمال وآلام الزائرين لا تمضي إلىٰ أي ضريح بالمصادفة، ولكن شهرة الولي واختصاصه بالشفاعة، والبعد المكاني، لهم تأثير كبير في قصد الزيارة؛ فالضريح الذي نتكبد إليه مشاق السفر يصبح أكثر جذباً ورهبة من ذلك الضريح القريب المتاح زيارته في أي وقت »[(١)] .

وتبقى التساؤلات :

- ما الذي يدفعهم للاعتقاد في الأضرحة أنها قوة قاهرة وسلطة نافذة ـ وإن اعتبروها (واسطة) و (وسيلة) ـ؟

- وما الذي يدفعهم لإسناد ذلك إلىٰ الأرواح، أو ـ بتعبير أدق ـ إلىٰ سرٍّ غيبي محيِّر؟

- وما الذي يدفعهم إلىٰ التوجه بمشاعر قلوبهم نحوها لجلب رضاها أو دفع مضرتها، أو . . للتمتع بالمسرة والحبور في أنفسهم؟ . .

- لماذا تحولت العلاقة بالرمز من ذكرىٰ واحترام إلىٰ تقديس واعتقاد إلىٰ

---

(١) موالد مصر المحروسة، ص ٨١، ٨٢ .

تعلق وانجذاب ؟ .

إن الذي حملهم على كل ذلك وحمل غيرهم على نظيره هو إشباع (التأله) لدى قلوبهم المحرومة من التأله للإله الحق ؛ وهذا ما يقرره الإمام ابن تيمية (رحمه الله) حين يقول : « ومن لم يكن محبّاً مخلصاً لله ، عبداً له ، قد صار قلبه معبّداً لربه وحده لا شريك له ، بحيث يكون الله أحب إليه من كل ما سواه ، ويكون ذليلاً له خاضعاً ، وإلا استعبدته الكائنات واستولت على قلبه الشياطين . . . وهذا أمر ضروري لا حيلة فيه ؛ فالقلب إن لم يكن حنيفاً مقبلاً على الله معرضاً عما سواه ، كان مشركاً » [١] ، ويقول أيضاً : « فإن الإنسان خُلِق محتاجاً إلى جلب ما ينفعه ودفع ما يضره ، ونفسه مريدة دائمًا ، ولا بد لها من مراد يكون غاية مطلوبها لتسكن إليه وتطمئن به ، وليس ذلك إلا لله وحده ، فلا تطمئن القلوب إلا به . . . فإذا لم تكن القلوب مخلصة لله الدين : عبدت غيره من الآلهة التي يعبدها أكثر الناس مما رضوه لأنفسهم ، فأشركت بالله بعبادة غيره واستعانته »[٢] .

ويقرر ذلك أيضاً تلميذه الإمام ابن القيم (رحمه الله) ، حين يقول : « فمن لم يكن إلهه مالكه ومولاه كان إلهه هواه »[٣] ويقول : « العبد لا يترك ما يحبه

---

(١) رسالة العبودية ، ت : محمد بشير عيون ، ص ٦٥ ، ٦٦ ، وانظر : مجموع الفتاوى ، جـ١٠ ، ص ٢١٦ .
(٢) مجموع الفتاوى ، جـ١ ، ص ٥٥ .
(٣) الجواب الكافي لمن سأل عن الدواء الشافي ، ت : أبي حذيفة عبيد الله بن عالية ، ص ٢٦٤ .
(٤) السابق ، ص ٢٧٧ .

ويهواه إلا لما يحبه ويهواه، ولكن يترك أضعفهما محبة لأقواهما محبة »(٤).

وهذا ما تقرره أيضاً الدراسات الإنسانية الحديثة، فقد « أيدت دراسات الأنثربولوجيا [علم الإنسان] وعلم الأديان أن الحاجة إلى الدين موجودة عند جميع الناس في كل العصور وفي جميع المجتمعات، فالإنسان منذ القدم وهو يبحث عن إله يعبده، ويتوسل إليه، يعتقد أنه قوي مسيطر على الكون، خالق كل شيء، حي لا يموت »(١)، « هذه الفطرة حقيقة أجمع عليها الباحثون في تاريخ الأمم والأديان والحضارات، فقد وجدوا الإنسان منذ أقدم العصور يتدين ويتعبد ويؤمن بإله، حتى قال أحد كبار المؤرخين: لقد وُجدت في التاريخ مدن بلا قصور، ولا مصانع، ولا حصون، ولكن لم توجد أبداً مدن بلا معابد»(٢)، ويقول الدكتور محمد محمد أبو شهبة: « يكاد يتفق علماء الأديان على أن التدين غريزة في الإنسان، وقد عبر عن هذه الحقيقة معجم (لاوس) للقرن العشرين بقوله: إن الغريزة الدينية مشتركة بين كل الأجناس البشرية حتى أشدها همجية وأقربها إلى الحياة الحيوانية، وإن الاهتمام بالمعنى الإلهي، وبما فوق الطبيعة، هو إحدى النزعات العالمية الخالدة للإنسانية، وإن هذه الغرائز الدينية لا تخفى، بل لا تضعف ولا تذبل »(٣).

هذه الغريزة هي التي أنطقت أحد كبار الملاحدة في لحظة صدق، فقال: «إن الحقائق الكبيرة لا تسقطها الألفاظ، كذلك الإيمان بالله والأنبياء والأديان من

---

(١) د. محمد محمد عودة، ود. كمال إبراهيم مرسي، الصحة النفسية في ضوء علم النفس والإسلام، ص ١٠٣.

(٢) د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص ٩٩.

(٣) السيرة النبوية في ضوء القرآن والسنة، ص ٦٩.

(٤) د. يوسف القرضاوي، الإيمان والحياة، ص ١٠٠.

الحقائق القوية التي لا يمكن أن نضعفها أو تشكك فيها الكلمات »(٤) .

وهذه الغريزة هي التي أضفت على (الرمز) ـ حتى عند أهل الإلحاد ـ أشكال المهابة و(القداسة)، فـ« في ظل نظام كالنظام الشيوعي الذي لا مكان للدين في فكره العلمي، اصطبغ الإيمان بالمادية الديالكتيكية بصبغة الحماس الديني، واتخذت الاجتماعات والاستعراضات سمة الاحتفالات والمواكب الدينية، وأحيط واضعو النظرية ومؤسسو الدولة بهالة دونها هالة القديسين والرسل؛ فهم يوصفون بالخالدين، أو بالشمس التي لا تغرب، وها هي تماثيلهم الضخمة وصورهم ـ وقد حلت مكان التماثيل الدينية والأيقونات ـ تطل على الجماهير في الساحات وكافة المباني العامة، وعلى الأفراد في مساكنهم الخاصة، وها هي قبورهم وقد تحولت إلى مزارات مقدسة تحج إليها الملايين، وتصطف الصفوف خارجها لساعات من أجل إلقاء نظرة، أما كتبهم فهي بمثابة الكتب المقدسة، من قبيل التجديف أن ينسب إلى فكرة فيها الخطأ، بل ويبيت البعض ليلهم (كالحرس الأحمر في الصين) وهي إلى جوارهم أو تحت وسائدهم حتى تصرف الشرور عنهم! »(١) .

ويؤيد القول بأن دافع إشباع التأله هو الذي يحرك القبوريين عدة أمور، منها :

أولاً : إن بعض الاعتقادات القبورية تعتبر امتداداً لاعتقادات وثنية في جاهليات سابقة، وهذا ما أشار إليه « بليكر » في كتابه (المهرجانات الدينية)، حيث يقول: « وخلافاً لفكر الأديان السماوية لم ير المصريون القدماء هوة بين

---

(١) حسين أحمد أمين، تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين، مجلة العربي، ع/ ٢٢٦، رمضان ١٣٩٧ هـ، ص ١٣١ .

الإله والإنسان، بل اعتبروهما مندمجين، رغم وضوح الفارق، خاصة بعد الموت؛ إذ تبرز علاقة معينة نتجت عن اعتقاد راسخ بأن **الميت يحصل على شيء من القوة** . . . لذا: يمكننا القول أو الادعاء البعيد عن البساطة بأن علم الباطن الشعبي المعاصر والاعتقاد في الأولياء والقديسين: هما استمرار مباشر لعقائد مصر القديمة في العصر النيوليتي أو العصر الحجري الحديث »[١] .

كما إن بعض طقوس القبوريين تعتبر امتداداً لعادات وثنية كانت سائدة في أجدادهم قبل الإسلام، « فكثيراً ما امتزجت التعاليم الأساسية لدين معين بالعقائد المحلية امتزاجاً أسفر عن ناتج ذي صورة جديدة يتعذر التعرف على التعاليم الأصلية فيه، وقد كانت الشعوب دائماً من الخبث، أو الذكاء ، أو الضلال، بحيث أوجدت أساساً (دينيّاً) جديداً لاستمرار تمسكها بالعقائد القديمة»[٢]، « وأول هذه العادات: تقديس الأولياء، تلك العادة التي لقيت رواجاً سريعاً وعميقاً في نفوس المصريين لارتباطها بطبيعتهم منذ فجر التاريخ، ففكرة تشييد المساجد الجميلة فوق أجساد الموتى وتقديسهم تتصل بجذور الفكر الديني المصري منذ العصر الفرعوني، ولا سند لها في القرآن والسنة . . »[٣]، «فقد لاحظ مؤرخو مصر القديمة والعصر القبطي تحول آلهة المصريين القدماء إلى قديسين في ظل المسيحية، ثم إلى أولياء في ظل الإسلام، دون أي تغيير في مكان العبادة والتقديس . . . فماسبيرو مثلاً يحدثنا عن الاحتفال بمولد أحد الأولياء في أخميم بالصعيد، ويقول: إن طقوسه شديدة الشبه بالطقوس التي كان يمارسها

---

(١) عن: (موالد مصر المحروسة)، لعرفة عبده علي، ص ٢٣ـ٢٤ .

(٢) حسين أحمد أمين، مصدر سابق. ص ١٣١ .

(٣) د. زكريا سليمان بيومي، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٢٨ .

(٤) حسين أحمد أمين، مصدر سابق، ص ١٣٦ .

قدماء المصريين في أخميم ذاتها » (٤).

« وعادة إقامة الموالد سابقة على الإسلام . . ، فيذكر الأستاذ أحمد أمين - نقلاً عن هيرودوت - أن المصريين القدماء كانوا يقيمون الموالد في تل بسطة في مديرية الشرقية وصال الحجر وغيرها، وكذلك في العصر القبطي، كالاحتفال بأول السنة القبطية، ثم انتقلت إلى المسلمين فصبغوها بالصبغة الإسلامية من خلال أحداث إسلامية » (١) . . وهكذا تشابهت مظاهر الموالد مع طقوس الاحتفالات السابقة بالآلهة الوثنية ؛ فالطقوس التي كانت تقام داخل معبد الأقصر للإله (آمون) في عصر الفراعنة هي الطقوس ذاتها التي تتبع في مولد (أبي الحجاج الأقصري) والذي يقع ضريحه داخل معبد الأقصر نفسه، وأهم ظاهرة في هذا المولد : تلك المراكب التي يجرها جموع المريدين وسط صيحات التكبير والتهليل، مما يلقي بظلاله على ما كان يحدث في المهرجانات الدينية في عصور الفراعنة، حيث كان لمعظم الآلهة عدد من القوارب التي تلعب دوراً رئيساً في طقوس الاحتفالات الدينية، ففي مهرجان (أوبت) كانت المراكب تخرج من معبد الأقصر في احتفال ديني مهيب تتهادى على صفحة النيل بين أدخنة المباخر والصلوات والدعوات، وكان القارب الأكبر للإله (آمون)، ثم واحد لزوجه (مُوت)، والآخر لابنه (خنسو) . .

وإلى الآن يستمر هذا التقليد في مولد (أبي الحجاج الأقصري) كما ذكرنا، على الرغم من تأكيد أهالي الأقصر على أن هذه القوارب مرتبطة بمجيء أبي الحجاج من مكة، أو بحجه إليها . . كما يحدث التقليد نفسه أيضاً في مولد (عبد الرحيم القنائي) الذي أقيم قبره على طلل معبد إله من آلهة قدماء المصريين . .

---

(١) الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٣٠، وانظر أيضاً : المصدر السابق .

كذلك كان المصريون القدماء يحجون إلىٰ مزارات لهم في بلدة (شطا) قرب دمياط، وصار يقام هناك ـ بعد دخول الإسلام وإحداث الموالد فيه ـ مولد سنوي لولي أسموه (الشيخ شطا) (١).

ولعل منشأ كل ذلك عائد إلىٰ التقديس الخاطئ للرموز الإسلامية إضافة إلىٰ القياس الفاسد علىٰ من كانوا يعظمونهم في جاهليتهم، فقد يبدأ الأمر بالرغبة في تعظيم الرمز الإسلامي والزعم بأن الأولياء ليسوا بأقل من الذين كانوا يعظمونهم في جاهليتهم، فيعظمونهم بمثل ما كانوا يمارسونه مع معبوداتهم الوثنية.

ومن أمثلة ذلك أيضاً: ضريح الشيخ (هلال) المقام علىٰ قبر مزعوم قرب دمشق، حيث كان القدماء يعبدون (القمر)..

وكذلك: فإن عبادة الأشجار معروفة في الوثنيات القديمة و(الحديثة)، وقد ظهر التأثر بهذا الانحراف الوثني عند القبوريين في صورة شجرة قائمة إلىٰ جوار الضريح، يزعم أن روح الولي المقبور تسكن فيها، وكثيراً ما يحظر قطع الأشجار المحيطة بقبر الولي، ويهدد من يقطعها أو يتلفها بالخزي وسوء المصير، وقد أورد علي باشا مبارك في خططه التوفيقية أمثلة كثيرة للأشجار التي يقدسها العامة في مصر، والتي يزعمون أنه تسكنها أرواح أولياء غير معروفي الاسم أو روح ولية يسمونها الشيخة (خضرة)!، كما توجد قرب دمشق شجرة زيتون عتيقة مقدسة أسمتها العامة الست (زيتون)، كان يحج إليها النساء خصوصاً

---

(١) انظر: موالد مصر المحروسة، ص ٦٩، والصوفية والسياسة في مصر، ص ٥٠، والسيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، لمحمد فهمي عبد اللطيف، ص ١٣٧، ومقال: تأملات في حقيقة أولياء الله، ص ١٣٧، ص ١٣٦.

ويطلبن منها حوائجهن، ويقوم عندها أحد الدراويش بجمع الصدقات من الزائرين [١].

ثانياً: إن بعض هذه الطقوس تعد طقوساً متشابهة بين القبوريين وأصحاب الديانات الأخرى، يقول المسيو بوته مري في كتابه (الإسلام والنصرانية في إفريقية) : « وفي القرن الثالث من الهجرة ظهرت في الإسلام العقيدة بالأولياء، وابتدعت زيارة قبورهم، وصاروا يعتبرون لهم خصائص ويعزون إليهم الكرامات والخوارق، وأشبهت القضية العقيدة الكاثوليكية من هذا الوجه، فالولي الفلاني يشفي من الريح كما كان القديس فياكر يشفي مرض الباسور، والشيخ الفلاني يقصده الناس لأجل لقيان الحوائج الضائعة كما كانوا في النصرانية يقصدون القديس أنطوان بادو، والإمام الشافعي يستغيث به طلاب الأزهر للنجاح في دروسهم مثل القديس أيف . . . إلخ » [٢]، ويؤكد هذا التشابه في مظاهر الطقوس الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف فيقول : « . . بل إنك إذا شاهدت ما يجري اليوم في الموالد والأعياد المسيحية، كعيد أبي جورج مثلاً، أو شاهدت ما يقع من الزائرين لكنائس القديسين ومعابدهم، وقارنت ذلك بما يجري في موالد الشيوخ وما يقع من الناس في زيارة أضرحتهم: لما رأيت فارقاً بين الوضعين ولا اختلافاً في المظهرين . . » [٣].

وهكذا أصبح أنه كما توضع الرسائل في أضرحة الأولياء ـ وخاصة ضريح الإمام الشافعي ـ توجد أوراق وأقلام على قبر البابا كيرلس السادس، لمن يرغب

---

(١) انظر : مقال (تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين)، ص ١٣٥ .

(٢) عن : السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، لمحمد فهمي عبد اللطيف، ص ١٢ .

(٣) السابق، ص ١٣٧ ـ ١٣٨ .

في تحقيق أمنية أو رجاء منه، ويوضع في مدخل الكنيسة أو الدير صندوق للنذور، كذلك توهب الأضاحي التي تذبح هناك [(١)]، وعند اليهود « توجد قبور مشهورة معروفة يذهب إليها الناس بالآلاف في مناسبات معينة من السنة يزورونها ويتبركون بها ويرمون عندها الأوراق التي يكتبون أمنياتهم فيها . وكثيراً ما يأخذون أشياء معهم كقناني الزيت وغيرها يضعونها على القبر؛ كي تلحقها البركة من صاحبه، فيتطببون بها وتدفع الشر عن أصحابها كما يعتقدون » [(٢)]، ويقول الشيخ محمد رشيد رضا معقباً على ما ادعاه أحد مشايخ القبورية في تسويغ اتخاذ القبور والأضرحة واسطة للشفاعة : «هذا عين ما كان يحتج به المشركون الأولون وحكاه الله (تعالى) عنهم . . . وهو ما يفعله بعض النصارى عند قبور القديسين »، ويقول أيضاً : « ولا تظنوا أن الهندوس ليس عندهم كهنة يتأولون لهم بدعهم الوثنية كما تأول هذا العالم الأزهري . . . واحتج لهم بأنهم كأنجاس الهند المنبوذين، ليس لأحدهم أن يتقرب إلى الله (تعالى) بنفسه، بل لا بد له من أحد هؤلاء المعتقدين ليقربه إليه زلفى، ولا تظنوا أنه ليس عندهم صوفية لهم من الخوارق ما حار أكبر علماء الإنجليز وغيرهم في فهمه وتأويله »[(٣)]، بل وُجِدَت في الهند مزارات كانت تضم عظاماً أو آثاراً لقديس بوذي وتحولت إلى عظام أو آثار لأحد الأولياء! [(٤)]، ويقول الشيخ أبو الحسن الندوي متابعاً الإمام الدهلوي في ذلك : «والحاصل : أنه ما سلك عباد الأوثان في الهند طريقاً مع

---

(١) انظر : موالد مصر المحروسة، ص ٧٢ .

(٢) جعفر هادي حسن، مقال« اعتراضات سياسية على ظاهرة تدخل الحاخامين في الانتخابات الإسرائيلية »، جريدة الحياة، ع/ ١٣٠١٣، ٢٩/ ٦/ ١٤١٩ هـ .

(٣) مجلة المنار ، جـ٣، م ٣٣، ص ٢١٦ ـ ٢١٨ .

(٤) حسين أحمد أمين، مصدر سابق، ص ١٣٥ .

آلهتهم، إلا وسلكه الأدعياء من المسلمين مع الأنبياء والأولياء والأئمة والشهداء والملائكة والجنيات، واتبعوا سنن جيرانهم من المشركين شبراً بشبر وذراعاً بذراع . . »(١)، ويقول أيضاً : « وكل ما كان يدور حول قبور الأولياء والمشايخ كان تقليداً ناجحاً للأعمال والتقاليد التي كانت تنجز في معابد غير المسلمين وقبور المقدسين عندهم، فالاستغاثة منهم والاستعانة بهم، ومدُّ يد الطلب والضراعة إليهم، كل ذلك كان عامّاً شائعاً بينهم . . . »(٢)، ويذكر الشيخ محمد رشيد رضا صورة من هذا التشابه، فيقول : «في بنارس [في الهند] قبر أبي البشر آدم (عليه السلام) وقبر زوجه وقبر أمه! (ويقال : إنهم يعبرون بأمه عن الطبيعة) وقبور قضاته، وهي تحت قباب مصفحة بالذهب كقبة أمير المؤمنين علي في النجف وقباب غيره . . . وجميع هذه القبور تعبد بالطواف حولها والتمسح بها وتلاوة الأدعية والأوراد عندها كغيرها من تماثيل معبوداتهم، مع الخشوع وبذل الأموال والنذور لها ولسدنتها وكهنتها، فلا يحسبن الجاهل بالتاريخ وبعقائد الملل والنحل أو التعبدات فيها أن علماء وثنيي الهند يعتقدون أن هذه الأشياء تنفع وتضر بنفسها، وأنهم ليس لهم فلسفة في عبادتها »(٣) .

ومن الطرائف ذات المغزىٰ في هذا التشابه أن شريف مكة (الشريف عون) عندما استجاب للشيخ أحمد بن عيسىٰ في هدم جميع القباب بالحجاز، اعترض القناصل الأجانب في جدة علىٰ هدم قبر حواء، بحجة أن حواء أم لجميع الناس

(١) نقلاً عن : جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي الأفغاني، ص ٤٦١ .

(٢) عن : الكشف عن حقيقة الصوفية لأول مرة في التاريخ، لمحمد عبد الرؤوف القاسم، ص ٧٨٠ .

(٣) مجلة المنار ، جـ٣، م٣٣، ص ٢٢٠ .

(٤) انظر : الانحرافات العقدية، ص ٣٠٤ .

وليست أماً للمسلمين فقط (٤).

فحقيقة الأمر : أن ما يفعله القبوريون عند القبر والضريح هو بعينه الذي تفعله الجاهلية الوثنية « وإنما كانوا يفعلونه لما يسمونه وثناً وصنمًا، وفعله القبوريون لما يسمونه وليّاً وقبراً ومشهداً، والأسماء لا أثر لها ولا تغير المعاني »(١).

ثالثاً : إن الاهتمام بالقبور والتوجه إليها تجاوز حواجز الملل والمذهبيات والفرق ليشكل طقساً مشتركاً من طقوس التدين (الباطل) يجتمع فيه القبوريون مع إخوانهم في التأله للمقبورين؛ ففي كثير من الأحيان يمارس القبوريون هذه الطقوس بالاشتراك مع غيرهم ممن أشرنا إليهم :

فمن المناقب التي يعدُّونها للدولة العثمانية : أن رجالها لم يكتفوا « بعمارة الأضرحة والقباب على قبور أهل السنة، بل كانوا يهتمون بالعتبات المقدسة عند الشيعة في النجف وكربلاء والكاظمية . . . وييسرون السبل أمام شيعة فارس والهند وأفغانستان وغيرهم لزيارتها » (٢) .

ولأن النصارى يعيشون بين المسلمين أكثر من غيرهم من أهل الديانات الأخرى فقد ظهر هذا الاشتراك جليّاً منذ القِدَم، فقد ثبت أن منشأ الأضرحة الموهومة والمكذوبة كان واحداً عند اليهود والنصارى والقبوريين، وهو (أضرحة الرؤيا)، إلا إن الأمر لم يقف عند حد النشأة ، بل أخذ شكل المشاركة الفعلية بينهم في ممارسة الطقوس والعبادات، فشيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) يذكر

---

(١) تطهير الاعتقاد، للإمام الصنعاني، ص ١٨ ـ ١٩ .
(٢) الانحرافات العقدية، ص ٣٠٣ .

أن كثيراً « من جهال المسلمين ينذرون للمواضع التي يعظمها النصارىٰ، كما قد صار كثير من جهالهم يزورون كنائس النصارىٰ ويلتمسون البركة من قسيسيهم ورهابينهم ونحوهم »(١).

وكثير من (موالد) النصارىٰ ليست مقصورة عليهم، بل يشارك فيها كثير من جهلة المسلمين « وهذا أمر ليس بمستغرب، فهم يذهبون أيضاً لبعض القساوسة ليخلصوهم من الأرواح الشريرة ! . . كما تتردد بعض القبطيات علىٰ أضرحة الأولياء؛ لتحقيق أمنية بالحمل، وتنذر نذراً إن تحققت أمنيتها . . »، وقد تعجّب المستشرق البريطاني إدوارد لين أثناء وصفه لاحتفالات المولد النبوي معرباً عن دهشته من احتشاد الأقباط لمشاهدة احتفالات المولد (٢)، كما يشارك النصارىٰ جهلة المسلمين في الاعتقاد في ضريح الشيخ أبي الحجاج الأقصري(٣).

« ومن المفارقات المضحكة في ذلك: أن بين المعصرة وحلوان [بمصر] دير فيه ضريح يسميه الأقباط (القديس برسوم العريان)، ويسميه المسلمون (سيدي محمد العريان)، وفي كل عام يقام له احتفال يعتبره الأقباط عيداً ويعتبره المسلمون مولداً، وإنهم ليجتمعون جميعاً في هذا الاحتفال وينحرون الذبائح ويقدمون النذور لهذا الذي يدعي كل من الأقباط والمسلمين تبعيته لهم . . »(٤).

---

(١) مجموع الفتاوىٰ، جـ ٢٧، ص ٤٦١ .

(٢) موالد مصر المحروسة، ص ٧٣، ص ١٧ .

(٣) الصوفية والسياسة، ص ٥٠ .

(٤) محمد فهمي عبد اللطيف، السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، ص ٣٢ .

« ويشترك الأقباط مع المسلمين في عادة النوم بالأضرحة خلال الموالد، آملين رؤية العذراء أو أحد القديسين، أو رغبة في تحقيق أمنية دنيوية، ويكتبون رسائل بأسمائهم وأمنياتهم، على نحو ما يحدث في ضريح الإمام الشافعي»(١).

والأهالي على اختلاف مذاهبهم وطبقاتهم يزورون مقام (النبي يوشع) في أكبر الأعياد الإسلامية وأيام المصائب والنكبات، وفي سنة ١٩١٣ م أمر القاضي الإسلامي جميع الملل في السلط بالأردن من إسلامية ونصرانية أن تصعد إلى الجبل المقدس ! الذي به ضريح (النبي يوشع) لطلب المطر، فصعد القوم كبيرهم وصغيرهم وأقاموا الصلاة وذبحوا الذبائح .

وعندما سرق أعرابي بقرة أحد رجال دين النصارى الذي شك بدوره في السارق، فما كان من المسروق إلا أن طلب من المشكوك فيه الذهاب أمام الحاضرين إلى (بركة النبي شعيب) كي يبين براءته ! (٢) .

كما دخل أحد الأعراب كنيسة ورأى (قديساً) يركب حصاناً فناداه على إنه (خضر الأخضر) صاحب الضريح المتعلق به قلبه، حيث اشتهر بين أعراب باديته بأنه أول من امتطى جواداً (٣) .

ويحكي الأستاذ عبد المنعم الجداوي تجربة شخصية له يذكر فيها كيف أن إحدى قريباته عندما مرضت أصر أهلها على الطواف بها على بعض الأضرحة والكنائس أيضاً (٤).

---

(١) موالد مصر المحروسة، ص ٧٥ .

(٢) انظر : مجلة المشرق ، مقال : المزارات في شرقي الأردن ، ص ٩٠٢ ـ ٩٠٤ .

(٣) السابق ، ص : ٩١٠ .

(٤) اعترافات . . كنت قبورياً ، ص ٣٠ .

وقد ذكر لي أحد الثقات أنه استطاع دخول كنيسة سانت (القديسة) تيريزا بحي شبرا بالقاهرة، فكان مما شاهده: قاعة كبيرة ذات حوائط ضخمة، علقت عليها شرائح ذهبية مهداة إلى القديسة!، محفور عليها كلمات الشكر والعرفان لها؛ لأنها (لبت) حوائج مَنْ أهدوا هذه (التذكارات)، وذكر أن معظم الموقعين على هذه الشرائح كانت أسماؤهم إسلامية..

فما الذي جعل هؤلاء يشاركون أولئك طقوسهم إلا إنهم جميعاً وجدوا في القيام بتلك المظاهر إشباعاً لدافع واحد يجمعهم هو: التدين، أو (التأله)؟.

رابعاً: من أوضح الأمور التي تدل على أن الدافع لدى القبوريين هو إشباع التأله في قلوبهم: تعلقهم بمشخصات لا علاقة لها بالأولياء مطلقاً، بل هي أنصاب وأوثان صريحة، يصرفون إليها مشاعر المحبة والخوف والرهبة والرجاء.. فإضافة إلى ما زعمه القبوريون من القبور المكذوبة على أصحابها، والقبور المنسوبة إلى صحابة وأولياء مزعومين ليس لهم وجود في السيرة والتاريخ.. هناك القبور الموهومة التي ليس بها أي دفين، فلقد «وجدت بعض الأضرحة الوهمية التي لا يوجد بها جثمان لأحد المشايخ، بل عبارة عن هيكل أو كوم من الطوب تحت قبة توارث الناس الاعتقاد فيها، وتفيد محافظ المجلس الصوفي عن حالة كهذه... واتضح أنه ليس هناك شيخ، بل هناك كوم تراب يدعونه الناس سيدي فرج»[١]، وعند تجديد مسجد وضريح الشيخ خميس ذي الشهرة الواسعة بمدينة شبين الكوم بمصر لم يجدوا أي أثر للدفين، ثم ادعى بعض السذّج أنهم شاهدوا سرداباً تحت الأرض متجهاً إلى مدينة طنطا، في إشارة إلى أن (الولي) رحل إلى طنطا حيث

---

(١) الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٥٩.

ضريح البدوي ! . . والأمر نفسه حدث في قرية (ميت خاقان) بجوار المدينة المذكورة آنفاً، حيث لم يتم العثور على ما كان يطاف حوله ويذبح وينذر له ويطلب منه المدد والبركات في مسجد وضريح الأربعين(١).

ولأن أمر هذه القبور المكذوبة والموهومة أصبح شائعاً، ولأن الأمر ليس في حقيقته إلا إشباع التأله في القلوب، فقد قرروا ذلك في صراحة، فقال أحدهم: « ولا يحتاج أن يطلب دليل وسند لصحة نسبة هذه الآثار إلى أصحابها، ويكفي أن تكون نسبتها مشهورة بين الناس »(٢)، وقال الآخر: « وعلى كل حال: فلا بأس من زيارته [أي: القبر] على من توهم من وجوده »(٣) فالمهم أنه « يجب علينا التسليم في ذلك كله، واعتقاد تعظيم القبور المذكورة بما يعد تعظيماً، وبكل ما يليق من الاحترام، ولو على تقدير توهم الصحبة . . . »(٤).

ليس هذا فحسب، بل وصل الأمر إلى أَضْرِحة (دواب الأولياء)، ففي اللاذقية بسورية حضرة يقال إنها مدفن الفرس التي كان يركبها الولي المغربي، لا تزال حتى اليوم تزار وتبخر . . وفي الإسكندرية بمصر عزمت البلدية على نقل ضريح من أحد الطرق فثار الغوغاء هناك واستنكروا نقل الولي من قبره، ولكن البلدية أصرت على عزمها، وكانت المفاجأة أن القبر يضم عظام حمار(٥)، فالقبوريون عباد كل ضريح حتى لو ثبت عدم صحة نسبة الضريح إلى صاحبه أو

(١) انظر: الوثنية في ثوبها الجديد، سمير شاهين، ص ٨٥ـ٨٧.
(٢) البريلوية، ص: ١٣٨.
(٣) الانحرافات العقدية، ص ٢٨٥.
(٤) نفسه، ص ٢٩٣.
(٥) انظر: السابق، ص ٣٠٠.

وما دام الأمر كذلك ، فما الفرق بين كوم تراب وحجارة أو أخشاب أو نحاس . . . أو أي شيء من المخلوقات ؟ . . لا فرق . . المهم وجود (السر) والتوجه إلى صاحبه ! . .

وهذا ما أوقع القبوريين في وثنية صريحة لاخفاء فيها ولا مواربة .

ففي الهند « يأخذون قليلاً من التراب من مكان ما، ويعطونه حكم نعش الإمام الحسين (رضي الله عنه)، ويضعونه على مكان مرتفع كصُفَّة وغيرها، ثم يقدمون له كل يوم أنواعاً من الشراب والحلاوة، والزهور والعطور وغيرها، ولا يسمحون لأحد أن يمر بتلك الصفة متنعلاً، ويسجدون لذلك التراب الذي أعطوه حكم قداسة جنازة الحسين (رضي الله عنه)، ويطلبون منه المال والأولاد . . »[١].

ولقد شاهد الشيخ محمد رشيد رضا بعض الرجال والنساء من العامة في مسجد (الحسين) بالقاهرة «يطوفون بعمود من الرخام، ويتمسحون به التماساً للبركة وتقرباً إلى (السيد البدوي)! معتقدين بأنه يجلس بجانب هذا العمود عند زيارة جده الحسين، ومنهم من يزعم أن روح السيد ترفرف دائماً هناك، وفي يوم من أيام رمضان كان رشيد رضا جالساً مع شيخ مسجد الحسين في مقصورة ضريح الحسين، فنظر إلى الناس الذين يقبلون الأرض، ويقبلون قفص النحاس الذي على القبر ، ويستغيثون ويطلبون حاجاتهم . . »[٢] ، وفي نابلس بفلسطين

(١) رسالة في تحريم اتخاذ الضرائح . . . ، لأبي الطيب محمد شمس الحق العظيم آبادي، ص٢١ .

(٢) عن : السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، لمحمد أحمد درنيقة، ص٢٢٢ .

عمود حجري كان مقدساً قبل الإسلام فوجد من يطلق عليه بعد انحراف الناس عن دينهم الحق: قبر الشيخ العمود (١).

وفي قبة البدوي حجر يقدسه العامة؛ لاعتقادهم أن به أثراً لقدم النبي (ﷺ)، وهو «ليس الوحيد من نوعه في مصر، بل إنه أحد أحجار أربعة يقدسها العامة ويعتقدون فيها البركات، ويزعمون أن من تبرك بها شفي من الأمراض»(٢).

وربما لاعتقاد أعراب شرقي الأردن الذي سبق ذكره من أن أرواح الأولياء تتأثر بما يتأثر به الأحياء وتحتاج إلى الطعام والشراب.. نشأ مزار (أبي رغيف) بالقرب من قرية (ماعين)، وهو عبارة عن دائرة من الحجارة يعرفها الأعراب ويرهبونها، وأصله أن فلاحاً وضع بعض الأرغفة على صخرة وذهب لحراثة أرضه، وكلما عاد وجدها تنقص رغيفاً، وكان هناك وحش يسحبها إلى وكره وهو لايدري، فظن أن بالمكان أحد أولياء الله الجائعين، ثم شاعت شهرة المقام ونسجت حوله الكرامات.

وبالقرب من عمّان: مقام الشيخ (خنيزير)، منسوب إلى خنزير بري قتله صياد وأوهم أحد الأعراب ـ الذي نام تحت الشجرة المدفون في أصلها رأس الخنزير ورأى أحلاماً مزعجة ـ أن هذا هو مقام الشيخ (خنيزير).

وفي معان مزار نسائي مشهور يعرف بـ (بنات عين)، وهو عبارة عن بئر ماء لم يكن معروفاً ادعت بعض البدويات أنهن شاهدن فيه (ربّات المياه) مرتديات ثياباً خضراً، فقلن لهن: هذا مقامنا به نقطن لشفاء البشر، فأصبح من المزارات

---

(١) انظر: مقال (تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين)، ص ١٣٥.

(٢) السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر، لمحمد فهمي عبداللطيف، ص٦٣.

(٣) انظر: مجلة المشرق، المزارات في شرقي الأردن، ص ٩٠٧ ـ ٩٠٩.

المشهورة (٣) .

وفي أوزبكستان أوقع الفراغ الروحي الذي خلفته الشيوعية الناس هناك في التعلق بأي شيء (مقدس)، وهذا ما دعاهم إلىٰ ترتيب عملية سطو منظمة للظفر بقطعة من كسوة الكعبة، ومن ثم: جلبوها إلىٰ بلادهم ووضعوها في إطار زجاجي علق في فناء المسجد؛ ليأتي الناس للتمسح والتبرك بها، كما يتبركون ويتمسحون هناك أيضاً بصورة الكعبة ! (١) .

بل ويتزاحم الناس في مولد البدوي بمصر « حول حمار يأتي به دراويش الطريقة الشناوية إلىٰ قبر السيد، فيتسابقون لنزع شعرات من جسمه يصنعون منها الأحجبة، وهذا بالضبط ما كان قدماء المصريين يفعلونه بهذا الحيوان! »، ويقول بول لوكاسن: إنه «في عام ١٦٩٩م أثناء زيارته للصعيد وجد بعض أهله يقدسون حيّة تنسب إليها المعجزات، وقد زار ريتشارد بوكوك عام ١٧٥٢م قرية قرب جرجا هي مكان الحيّة المقدسة ، وقال: إن الناس يزورونها في مسجد هناك به قبر ولي (وهو الشيخ هريدي) ويتبركون بها ويقدمون الأضاحي والذبائح لها. . . »(٢). إلىٰ غير ذلك من مظاهر لا يقبلها عقل رشيد ولا دين صحيح .

وبعد: فهذا ما تيسر ذكره حسب المصادر المتاحة لي ، وهي تعتبر عينة عشوائية لما يحدثه القبوريون في معظم أنحاء العالم الإسلامي . . فما الذي دعاهم إلىٰ هذا الاعتقاد وتقديم هذه القرابين والطقوس غير إغواء الشيطان لهم بالتأله لغير الله؟ . . وإلىٰ أي مدىٰ تأخذ الخرافة والوهم والدجل من يريدون أن يضيئوا حياتهم بقبس من الظلمات ؟

وما هي العوامل التي أمدّت هذا القبس بوقود الاستمرار؟ . .

---

(١) انظر: مقال (مسلمو أوزبكستان)، د. عبد الرحمن محمد عسيري، مجلة: دراسات إسلامية، ع/ ١ ، ص٢١٨ .

(٢) حسين أحمد أمين، مقال (تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين)، ص ١٣٦ .

انحرافات القبوريين
الداء والدواء

د. عبد العزيز بن محمد آل عبد اللطيف

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فلا يخفى أن الغلو في القبور بشتى صوره وأنواعه قد عمَّ وطم في غالب البلاد، وتلبس بهذه المظاهر الشركية وطرائقها كثير من الناس، وصارت هذه القبور مزارات و«مشاعر» يقصدها الناس، ويشدون إليها الرحال من سائر الأمصار؛ وسدنة هذه الأضرحة وعلماء الضلالة يزيّنون الشرك للعامة بشتى أنواع الدعاوى والشبهات، ويأكلون أموال الناس بالباطل، ويصدون عن سبيل الله (تعالى) .

إن على المنتسبين للعلم والدعوة واجباً كبيراً تجاه هذا التيار الوثني، وفي هذه المقالة نورد بعض المسالك الرئيسة التي تسهم في حل وعلاج انحرافات القبوريين وشبهاتهم.

أولا : المسلك العلمي :

وهذا المسلك يقوم به أهل العلم وطلابه تجاه دعاوى القبوريين وشبهاتهم، وسنعرض لجملة من الأجوبة العلمية على النحو الآتي:

١ ـ إذا كان أهل السنة ينطلقون من منهج متين أصيل في التلقي

والاستدلال، فإن القبوريين يعوّلون في تلقيهم واستدلالهم على المنامات والأحاديث المكذوبة والحكايات المزعومة.

فيحتجون بأحلام شيطانية على تجويز شركهم وكفرهم بالله (تعالى)، ومن ذلك: أن أبا المواهب الشاذلي يقول: «رأيت رسول الله (ﷺ)، قال لي: إذا كانت لك حاجة وأردت قضاءها فانذر لنفيسة الطاهرة ولو فلساً؛ فإن حاجتك تقضى»[(١)].

فهذا حلم شيطاني، ودعوة صريحة للشرك بالله (عز وجل)، ونقض التوحيد، وتنقُّص لمقام سيد المرسلين (ﷺ) الذي مكث ثلاثة وعشرين عاماً يدعو إلى إفراد الله (تعالى) بالعبادة، ويسد كل طريق يفضي إلى الشرك.

وعلى كلٍّ؛ فالمنامات لا يمكن ضبطها، وصاحبها ليس نبيًا معصوماً، ومن ثم: فلا يعتمد عليها؛ فكيف إذا كانت حلماً شيطانياً وخالف الأحكام الشرعية، بل وخالفت الأصل الأصيل وهو إفراد الله (تعالى) بجميع أنواع العبادة؟.

يقول شيخ الإسلام: «وكذلك مشاهد تضاف إلى بعض الأنبياء أو الصالحين بناء على أنه رُئِيَ في المنام هناك؛ ورؤية النبي (ﷺ) أو الرجل الصالح في المنام ببقعة لا يوجب لها فضيلة تقصد البقعة لأجلها وتتخذ مصلى بإجماع المسلمين، وإنما يفعل هذا وأمثاله أهل الكتاب»[(٢)].

ويحتجون بأحاديث مكذوبة مثل: «إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأصحاب القبور».

«فهذا الحديث كذب مفترى على النبي (ﷺ)، بإجماع العارفين بحديثه لم يروه أحد من العلماء بذلك، ولا يوجد في شيء من كتب الحديث المعتمدة»[(٣)].

---

(١) طبقات الشعراني، ٢/ ٧٤.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٥٠.

(٣) مجموع الفتاوى، ١/ ٣٥٦.

وأشار ابن القيم(رحمه الله) إلى أن هذا الحديث من الأحاديث المختلَقة التي وضعها أشباه عبَّاد الأصنام من المقابرية على رسول الله (ﷺ)(١).

كما يعتمدون على حكايات في تجويز الغلو في القبور والاستغاثة بها، وأن الدعاء عندها هو الترياق المجرّب. .

وغالب هذه الحكايات من اختلاق الدجّالين الأفاكين الذين لا يهمهم إلا أكل أموال الناس بالباطل والصدّ عن دين الله (تعالى) (٢).

وقد أشار ابن تيمية إلى أن هذه الحكايات «إما كذب، أو غلط، أو ليس حجة»(٣)، كما ذكر أن إجابة الدعاء، قد يكون سببه اضطرار الداعي وصدقه، وقد يكون سببه مجرد رحمة الله له، وقد يكون أمراً قضاه الله لا لأجل دعائه، وقد يكون له أسباب أخرى(٤).

وقد تكون تلك الحكايات صحيحة، ولكنها من الشيطان، فإنه قد يتراءى لبعضهم في صورة من يعتقد فيه، ويتسمى باسمه، وقد تقضي الشياطين بعض حوائج من استغاث بالأموات. .

يقول ابن تيمية: « وهكذا كثير من أهل البدع والضلال والشرك المنتسبين إلى هذه الأمة؛ فإن أحدهم يدعو ويستغيث بشيخه الذي يعظمه وهو ميت. . ويرى ذلك الشخص قد أتاه في الهواء ودفع عنه بعض ما يكره، أو كلّمه ببعض ما سأله عنه. . وهو لا يعرف أن تلك شياطين تصوّرت على صورته لتضله، وتضل أتباعه، فتحسِّن لهم الإشراك بالله ودعاء غير الله»(٥).

---

(١) انظر: إغاثة اللهفان، ١/ ٣٣٢.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٥٢، وإغاثة اللهفان، ١/ ٣٣٣.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٨٨.

(٤) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٥٣، وانظر: إغاثة اللهفان، ١/ ٣٣٣، ٣٣٤.

(٥) مجموع الفتاوى، ١٧/ ٤٥٦، باختصار، وانظر: الدعاء ومنزلته من العقيدة الإسلامية، لجيلاني خضر العروسي، ١/ ٤٤٧، ٢/ ٨١٢.

فيتعين على أهل العلم كشف عوار مسلك القبوريين وبيان تهافته، وفساد التعويل على المنامات والأحلام، والأحاديث الموضوعة، والحكايات المزعومة، مع تقرير المنهج الصحيح في التلقي والاستدلال كالاعتماد على الكتاب والسنة الصحيحة، واعتبار فهم السلف الصالح ونحو ذلك.

٢ - **ومن الأجوبة المجملة المحكمة**: ما ذكره إمام الدعوة (رحمه الله) في الرد على شبهات القبوريين بقوله: «جواب أهل الباطل من طريقين: مجمل ومفصل.

أما المجمل: فهو الأمر العظيم والفائدة الكبيرة لمن عقلها، وذلك قوله (تعالى): ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ**﴾ [آل عمران: ٧]. وقد صح عن رسول الله (ﷺ) أنه قال: «إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه؛ فأولئك الذين سمى الله فاحذروهم» أخرجه البخاري ومسلم.

مثال ذلك: إذا قال لك بعض المشركين: ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، وأن الشفاعة حق، وأن الأنبياء لهم جاه عند الله، أو ذكر كلاماً للنبي (ﷺ) يُستدل به على شيء من باطله، وأنت لا تفهم معنى هذا الكلام الذي ذكره فجاوبه بقولك: إن الله ذكر في كتابه أن الذين في قلوبهم زيغ يتركون المحكم ويتبعون المتشابه، وما ذكرته لك من أن الله(تعالى) ذكر أن المشركين يقرون بالربوبية وأن كفرهم بتعلقهم على الملائكة والأنبياء، مع قولهم: هؤلاء شفعاؤنا عند الله، وهذا أمر محكم بيِّن لا يقدر أحد أن يغير معناه.

وما ذكرته لي أيها المشرك من القرآن، أو كلام النبي (ﷺ)، لا أعرف معناه، ولكن أقطع أن كلام الله لا يتناقض، وأن كلام النبي (ﷺ) لا يخالف كلام الله (عز وجل)، وهذا جواب سديد، ولكن لا يفهمه إلا من وفقه الله فلا

تستهن به»[١].

فهذا جواب سديد وحجة ظاهرة تجاه كل شبهة. وقد ساق المؤلف جواباً في توضيح هذا الجواب، فإقرار مشركي العرب بتوحيد الربوبية وأن كفرهم بسبب اتخاذهم وسائط بينهم وبين الله (تعالىٰ)، يسألونهم ويدعونهم يُعَدُّ أمراً محكماً ظاهراً لا اشتباه فيه ولا التباس، وأما احتجاج المبتدع لباطله ببعض النصوص الشرعية فهو أمر مشتبه ومشكل لا يُعلم معناه ـ بالنسبة لذلك الموحد ـ ولا يترك المحكم الواضح ويتبع المتشابه إلا أهل الزيغ؛ مع يقيننا أن أدلة الحق لا تتناقض سمعية كانت أو عقلية؛ فالنصوص الشرعية يصدِّق بعضها بعضاً، فما كان متشابهاً فيردّ إلىٰ ما كان محكماً، بل نجزم أن أهل البدع لا يكادون يحتجون بحجة سمعية ولا عقلية إلا وهي عند التأمل حجة عليهم لا لهم[٢].

وهؤلاء القبوريون من أهل الزيغ الذين يتبعون المتشابه ابتغاء الفتنة، ليس نظرهم في الدليل نظر المستبصر حتىٰ يكون هواه تحت حكمه، بل نظر مَنْ حكم بالهوىٰ، ثم أتىٰ بالدليل كالشاهد له[٣].

وشبهاتهم التي احتجوا بها ـ إن صحت ـ من المتشابهات التي يتعين ردّها إلىٰ المحكمات من الآيات والأحاديث الدالة علىٰ وجوب إفراد الله (تعالىٰ) بالدعاء والاستغاثة وسائر أنواع العبادة والنهي عن الشرك وذرائعه.

٣ ـ **وإذا انتقلنا إلى الجواب عن شبهاتهم، فنقول** ابتداءً: لا يوجد لدىٰ القبوريين دليل صحيح صريح في تجويز استغاثتهم بالقبور، وما قد يصح من شبهاتهم إنما قد يُستدل بها ـ عند البعض ـ علىٰ جواز **التوسل** إلىٰ الله (تعالىٰ) بالذوات، فلا تدل علىٰ جواز **الاستغاثة** بالقبور. والتوسل إلىٰ الله (تعالىٰ)

---

(١) كشف الشبهات، ص٤٢، ٤٤.

(٢) انظر: مجموع الفتاوىٰ، لابن تيمية، ٦/ ٢٥٤، ٥١٤، وحادي الأرواح، لابن القيم، ص٢٠٨.

(٣) انظر: الاعتصام، للشاطبي، ١/ ٢٢١.

بالذوات بدعة محدثة، بينما الاستغاثة بالقبور كفر وردة، فالفرق بينهما ظاهر.

يقول الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب موضحاً الفرق بين التوسل والاستغاثة: «وبينهما فرق عظيم أبعد مما بين المشرق والمغرب.. فالعامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بالأنبياء والصالحين كقول أحدهم: أتوسل إليك بنبيك، أو بملائكتك، أو بالصالحين، أو بحق فلان وغير ذلك مما يقولونه في أدعيتهم يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور، ولا يسألونها وينادونها؛ فإن المستغيث بالشيء طالب منه وسائل له، والمتوسل به لا يدعو ولا يطلب منه ولا يسأل، وإنما يطلب به، وكل أحد يفرّق بين المدعو به وبين المدعو والمستغاث، ولا يعرف في لغة أحد من بني آدم أن من قال: أتوسل إليك برسولك أو أتوجه إليك برسولك؛ فقد استغاث به حقيقة، فإنهم يعلمون أن المستغاث به مسؤول مدعو، فيفرّقون بين المسؤول وبين المسؤول به»[1].

ومع ذلك فالتوسل إلى الله (تعالى) بالذوات أو الجاه قد صار ذريعة إلى دعاء القبور والتعلق بها، وما قد يُستدل به على التوسل إلى الله بالذوات أو الجاه، فإما أن يكون صريحاً لكنه لا يصح ولا يثبت، وما قد يكون صحيحاً فلا يدل على مرادهم، وإنما يدل على التوسل المشروع كالتوسل بأسماء الله وصفاته والعمل الصالح كما بسط في موضعه[2].

وأمر آخر، وهو: أن القبوريين قد لبّسوا على العوام وأشباههم بهذه الألفاظ المجملة المشتركة، فصاروا يطلقون لفظ «التوسل» - مثلاً - على الاستغاثة بالقبور ودعائها، فيظن البعض أن مرادهم التوسل إلى الله بالذات أو الجاه.. فيقع اللبس والإشكال.

---

(١) مجموعة الرسائل والمسائل النجدية، ١/ ٧٠.

(٢) انظر: قاعدة جليلة في التوسل و الوسيلة، لابن تيمية، والتوسل، للألباني، والتوصل إلى حقيقة التوسل، لمحمد نسيب الرفاعي (رحمه الله).

والتحقيق أن هذه الألفاظ المجملة يتعين تفصيلها وبيانها، وقد بيّن أهل العلم ما يحمله لفظ «التوسل» من الإجمال والاشتراك، ومن ذلك ما قاله الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن: «إن لفظ التوسل صار مشتركاً، فعبّاد القبور يطلقون التوسل على الاستغاثة بغير الله ودعائه رغباً ورهباً، والذبح والنذر والتعظيم بما لم يشرع في حق مخلوق.

وأهل العلم يطلقونه على المتابعة والأخذ بالسنة، فيتوسلون إلى الله بما شرعه لهم من العبادات، وبما جاء به عبده ورسوله محمد (ﷺ)، وهذا هو التوسل في عرف القرآن والسنة.. ومنهم من يطلقه على سؤال الله ودعائه بجاه نبيه أو بحق عبده الصالح، وهذا هو الغالب عند الإطلاق في كلام المتأخرين كالسبكي والقسطلاني وابن حجر (الهيتمي)»[١].

ومن شبهات القبوريين قولهم: إن مشركي العرب لم يكونوا يعترفون بالربوبية لله (تعالى) ونحن نعترف بأن الله (تعالى) هو الرب المدبِّر الخالق.

فالجواب على هذه الشبهة: أن مشركي العرب مقرون بتوحيد الربوبية، فلم ينازعوا فيه، بل إن هذا التوحيد لم ينازع في أصله أحد من بني آدم[٢]، والدليل على أن هؤلاء المشركين الذين قاتلهم رسول الله (ﷺ) واستحل دماءهم كانوا مقرين بأن الله هو الخالق الرازق المدبِّر: قوله(سبحانه): ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾ [يونس: ٣١].

قال قتادة (رحمه الله): «إنك لست تلقى أحداً منهم إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه ورزقه وهو مشرك في عبادته»[٣].

وقال ابن جرير (رحمه الله) عند قوله (تعالى): ﴿ فَقُلْ أَفَلا تَتَّقُونَ ﴾

---

(١) منهاج التأسيس، ص٢٦٧، وانظر: مصباح الظلام ص١٧٨.
(٢) انظر: التدمرية، لابن تيمية، ص١٨١، ومجموع الفتاوى، ٢/ ٣٨.
(٣) تفسير ابن جرير، ١٣/ ٧٨.

[يونس:٣١] : «أفلا تخافون عقاب الله على شرككم وعبادتكم معه من لا يرزقكم شيئاً ولا يملك لكم ضرّاً ولا نفعاً»[١].

فالإقرار بربوبية الله (تعالى) لا يتحقق به التوحيد المطلوب، فمشركو العرب مقرون بتوحيد الربوبية، ومع ذلك قاتلهم رسول الله (ﷺ)، واستحل دماءهم حتى يفردوا الله (عز وجل) بجميع أنواع العبادة.

ومن شبهاتهم: دعواهم أن الآيات القرآنية نزلت فيمن يعبد الأصنام والأحجار.. فلا تشملهم.

وجوابها: أن الشرك بالله أن يجعل لله نداً في العبادة سواءً أكان صنماً أو حجراً أو نبيّاً أو وليّاً.

ومما قاله العلامة : محمد بن علي الشوكاني (رحمه الله) جواباً على هذه الشبهة : «الشرك : هو أن يُفعل لغير الله شيئاً يختص به (سبحانه) سواءً أطلق على ذلك الغير ما كان تطلقه عليه الجاهلية - كالصنم والوثن - أو أطلق عليه اسماً آخر - كالولي والقبر والمشهد - »[٢].

وإن أراد القبوريون بمقولتهم : هؤلاء الآيات نزلت فيمن يعبد الأصنام، بأنه لا يجوز تنزيل هذه الآيات على من عمل عملهم؛ فهذا من أعظم الضلال.

يقول الشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) عن هذه المقولة : «فهذا ترس قد أعدّه الجهال الضُلاّل لردّ كلام، إذا قال لهم أحد : قال الله كذا، قالوا : نزلت في اليهود، نزلت في النصارى، نزلت في فلان . . .

وجواب هذه الشبهة «الفاسدة» أن يقال : معلوم أن القرآن نزل بأسباب، فإن كان لا يُستدل به إلا في تلك الأسباب بطل استدلاله، وهذا خروج من الدين، وما زال العلماء من عصر الصحابة فمن بعدهم يستدلون بالآيات التي

---

(١) تفسير ابن جرير، ١١/ ١١٤.

(٢) الدر النضيد، ص١٨، بتصرف يسير.

نزلت في اليهود وغيرهم على من يعمل بها»(١).

ومن شبهاتهم: أن سؤالهم أرباب القبور من أجل طلب الشفاعة، فهؤلاء الموتى شفعاء بينهم وبين الله (تعالى).

والجواب: أن الله قد سمى اتخاذ الشفعاء شركاً، فقال (سبحانه): ﴿ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ قُلْ أَتُنَبِّئُونَ اللَّهَ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ [يونس: ١٨].

وأمر آخر أن الشفاعة كلها لله (تعالى)، كما قال (سبحانه): ﴿ قُل لِّلَّهِ الشَّفَاعَةُ جَمِيعًا ﴾ [الزمر: ٤٤]، وقال (عز وجل): ﴿ وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ الشَّفَاعَةَ ﴾ [الزخرف: ٨٦].

يقول ابن تيمية: «فلا يملك مخلوق الشفاعة بحال، ولا يتصور أن يكون نبي فمن دونه مالكاً لها، بل هذا ممتنع، كما يمتنع أن يكون خالقاً ورباً.

قال (سبحانه): ﴿ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ [سبأ: ٢٣] فنفى نفع الشفاعة إلا لمن استثناه، لم يثبت أن مخلوقاً يملك الشفاعة، بل هو (سبحانه) له الملك وله الحمد، لا شريك له في الملك»(٢).

وجواب ثالث: أن الله (تعالى) أعطى الأنبياء والأولياء الشفاعة، لكن نهانا عن سؤالهم ودعائهم، فقال(سبحانه): ﴿ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٦]، والشفاعة نوع من الدعاء(٣)، ولا يكون الدعاء إلا لله (تعالى) وحده.

كما أن إعطاء الله الأنبياء والأولياء الشفاعة ليس تمليكاً مطلقاً، بل هو

---

(١) تاريخ ابن غنام، ٢/ ٢٨٥، بتصرف يسير.

(٢) مجموع الفتاوى، ١٥ / ٤٠٦، باختصار.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، ١/ ٢٠٠.

تمليك معلّق على الإذن والرضا، وسيد الشفعاء (ﷺ) لا يشفع حتى يقال له: ارفع رأسك، وقل تسمع، واشفع تشفّع»[1].

والحديث عن شبهات القبوريين والرد عليها طويل جداً، وإنما ذكرنا بعضاً منها، وقد صُنفت مصنفات نافعة تتضمن الرد على شبهات القبوريين، مثل قاعدة جليلة في التوسل والوسيلة، والرد على البكري، والرد على الأخنائي، كلها لشيخ الإسلام ابن تيمية، وإغاثة اللهفان من مصايد الشيطان، لابن القيم، والصارم المنكي في الرد على السبكي، لابن عبد الهادي، وكشف الشبهات، للشيخ محمد بن عبد الوهاب، وتطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد للصنعاني، والنبذة الشرعية النفيسة في الرد على القبوريين لحمد بن معمر، والدر النضيد في إخلاص كلمة التوحيد، لمحمد بن علي الشوكاني، وصيانة الإنسان عن وسوسة دحلان لمحمد بشير السهسواني، وتطهير الجنان والأركان عن درن الشرك والكفران، لأحمد بن حجر آل بوطامي، وتحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، لمحمد ناصر الدين الألباني، والدعاء ومنزلته في العقيدة الإسلامية لجيلاني بن خضر العروسي... وغيرها كثير.

٤ ـ ومن دعاويهم العريضة: احتجاجهم بأن كثيراً من المسلمين في القديم والحديث يبنون على القبور، ويتخذون المشاهد والقباب، ويتحرون الدعاء عندها.

والجواب عن هذه الدعوى من وجوه:

أحدها: أن أكثر هذه المشاهد مكذوبة لا تصح نسبتها إلى أصحابها، وكما يقول شيخ الإسلام: «وكم من مشهد يعظمه الناس وهو كذب، بل يقال إنه قبر كافر، كالمشهد الذي بسفح جبل لبنان الذي يقال: إنه قبر نوح؛ فإن أهل المعرفة يقولون: إنه قبر بعض العمالقة. وكذلك مشهد الحسين الذي بالقاهرة، وقبر أبيّ

(١) انظر: تأسيس التقديس، لأبي بطين، ص٨٢.

بن كعب الذي في دمشق، اتفق العلماء على أنه كذب»[١].

ويقول في موضع آخر: «عامة أمر هذه القبور والمشاهد مضطرب مختلق، لا يكاد يوقف منه على العلم إلا في القليل منها بعد بحث شديد؛ وهذا لأن معرفتها وبناء المساجد عليها ليس من شريعة الإسلام. . بل قد نهى النبي (ﷺ) عما يفعله المبتدعون عندها. .»[٢].

ثانياً: أن البناء على القبور وتحري الدعاء عندها ونحو ذلك: من البدع المنكرة التي حذّر منها الشارع أيما تحذير، كما في قوله (ﷺ): «لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد ـ يحذّر ما صنعوا» [متفق عليه].

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «قد كان من قبور أصحاب رسول (ﷺ) بالأمصار عدد كثير، وعندهم التابعون، ومن بعدهم من الأئمة، وما استغاثوا عند قبر صاحب قط، ولا استسقوا عند قبره ولا به، ولا استنصروا عنده ولا به. ومن المعلوم أن مثل هذا مما تتوفر الهمم والدواعي على نقله، بل على نقل ما هو دونه، ومن تأمل كتب الآثار، وعرف حال السلف، تيقن قطعاً أن القوم ما كانوا يستغيثون عند القبور، ولا يتحرون الدعاء عندها أصلاً، بل كانوا ينهون عن ذلك من كان يفعله من جُهَّالهم»[٣].

ويقول ابن القيم مبيِّناً أن صنيع القبوريين مفارق لما كان عليه سلف الأمة:

«هل يمكن لبشر على وجه الأرض أن يأتي عن أحد منهم [أي: السلف

---

(١) الرد على البكري، ص٣١٠، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/٦٤٦ـ٦٤٩، ومجموع الفتاوى، ٢٧/ ٤٥٩.

(٢) مجموع الفتاوى، ٢٧/ ٤٤٩، ٤٥٠، باختصار.

(٣) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٨١.

الصالح] بنقل صحيح أو حسن أو ضعيف أو منقطع أنهم كانوا إذا كان لهم حاجة قصدوا القبور فدعوا عندها، وتمسحوا بها، فضلاً أن يصلُّوا عندها، أو يسألوا الله بأصحابها، أو يسألوهم حوائجهم، فليوقفونا على أثر واحد، أو حرف واحد في ذلك. . . »(١).

ويقول العلامة الصنعاني مجيباً عن هذه الشبهة: «إن أردت الإنصاف وتركت متابعة الأسلاف وعرفت أن الحق ما قام عليه الدليل، لا ما اتفق عليه العوالم جيلاً بعد جيل وقبيلاً بعد قبيل؛ فاعلم أن هذه الأمور التي ندندن حول إنكارها، ونسعى في هدم منارها صادرة عن العامة الذين إسلامهم تقليد الآباء بلا دليل، ينشأ الواحد فيهم فيجد أهل بلدته يلقنونه: أن يهتف باسم من يعتقدون فيه، ويراهم ينذرون له، ويرحلون إلى محل قبره. . . فنشأ على هذا الصغير، وشاخ عليه الكبير، ولا يسمعون من أحد عليهم من نكير. . . ولا يخفى على أحد يعرف بارقة من علم الكتاب والسنة والأثر أن سكوت العالم على وقوع المنكر ليس دليلاً على جواز ذلك المنكر»(٢).

ويقول العلامة الشوكاني: «اعلم أنه قد اتفق الناس سابقهم ولاحقهم وأولهم وآخرهم من لدن الصحابة (رضي الله عنهم) إلى هذا الوقت أن رفع القبور والبناء عليها من البدع التي ثبت النهي عنها واشتد وعيد رسول(ﷺ) لفاعلها، ولم يخالف في ذلك أحد من المسلمين»(٣).

ثالثاً: أن سكوت العلماء عن هذه المظاهر الشركية والبدعية عند المشاهد والقبور لا يعني الرضا والإقرار، فقد يتعذر عليهم الإنكار باليد وباللسان، ولم

---

(١) إغاثة اللهفان، ١/٣١٨.

(٢) تطهير الاعتقاد، ص ٣٦، باختصار.

(٣) شرح الصدور، ص ٨.

يبق لهم إلا الإنكار بالقلب، لا سيما وهذه المشاهد والقباب قد بناها حكام وسلاطين؛ كما يقول الصنعاني: «فما كل سكوت رضىً؛ فإن هذه منكرات أسسها من بيده السيف والسنان، ودماء العباد وأموالهم تحت لسانه وقلمه، وأعراضهم تحت قوله وكلامه، فكيف يقوىٰ فرد من الأفراد علىٰ دفعه عما أراد. فإن هذه القباب والمشاهد أعظم ذريعة إلىٰ الشرك والإلحاد، وأكبر وسيلة إلىٰ هدم الإسلام وخراب بنيانه، وغالب - بل كل - من يعمرها هم الملوك والسلاطين والرؤساء والولاة إما علىٰ قريب لهم، أو علىٰ من يحسنون الظن فيه. . . »[١].

ومن هذا القبيل: ما يحتج به القبوريون بأن قبر النبي (ﷺ) قد ضُمِّن المسجد النبوي دون نكير، ولو كان ذلك حراماً لم يدفن فيه، كما يحتجون بوجود القبة على قبره صلى الله عليه وآله وسلم.

والجواب: أن النبي (ﷺ) دفن في حجرة عائشة (رضي الله عنها) شرقي المسجد، فلم يدفن في المسجد، والأنبياء يدفنون حيث يموتون - كما جاءت بذلك الأحاديث -.

كما أن الصحابة (رضي الله عنهم) دفنوه في حجرة عائشة كي لا يتمكن أحد بعدهم من اتخاذ قبره مسجداً؛ كما في حديث عائشة (رضي الله عنها)، قالت: قال رسول (ﷺ) في مرضه الذي مات فيه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**»، قالت: فلولا ذلك أُبرِزَ قبره غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. أخرجه البخاري ومسلم.

وأمر آخر، وهو أن الحجرة النبوية إنما أُدخلت في المسجد في خلافة الوليد ابن عبد الملك بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة[٢]؛ حيث أمر الوليد ابن عبد الملك سنة ثمان وثمانين بهدم المسجد النبوي وإضافة حُجر أزواج النبي

---

(١) تطهير الاعتقاد، ص ٤١.

(٢) انظر: الرد علىٰ الأخنائي، ص ١٨٤، ومجموع الفتاوىٰ، ٢٧ / ٣٢٣.

(ﷺ) إليه على سبيل التوسعة، فأدخل فيه الحجرةَ النبويةَ حجرةَ عائشة، فصار القبر بذلك في المسجد[١].

فلا يصح الاحتجاج بما وقع بعد الصحابة؛ لأنه مخالف للأحاديث الثابتة وما فهمه سلف الأمة، وقد أخطأ الوليد في إدخاله الحجرة النبوية ضمن المسجد، وكان باستطاعته أن يوسعه من الجهات الأخرى دون أن يتعرض للحجرة النبوية[٢].

وأما دعوى عدم الإنكار فهذه دعوى بلا دليل، وعدم العلم ليس علماً بالعدم، وسكوت العلماء لا يعني الرضا والإقرار؛ كما سبق الإشارة إليه آنفاً؛ لا سيما وأن الذي أدخل القبر النبوي ضمن المسجد خليفة ذو شوكة وسلطان ـ وهو الوليد بن عبد الملك ـ وكذا الذي اتخذ القبة هو السلطان قلاوون.

ومع ذلك فإن المعوّل عليه هو الدليل والبرهان وليس واقع الناس وحالهم، والله المستعان.

ومما يبين تهافت هذه الدعوى: ما نقل عن علماء أنكروا هذا الصنيع وحذّروا منه.

فيحكى عن سعيد بن المسيب (رحمه الله): أنه أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد، كأنه خشي أن يتخذ مسجداً[٣].

وأشار شيخ الإسلام ابن تيمية إلى إنكار هذه القبة؛ حيث قال: «ثم بعد

---

(١) انظر: تاريخ ابن كثير، ٩/ ٧٤.

(٢) انظر: تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، للألباني، ص ٩٣، وصراع بين الحق والباطل، لسعد صادق محمد، ص ١٠٦.

(٣) انظر: بحثاً حول القبة المبنية على قبر الرسول (ﷺ)، لمقبل الوادعي، ص ٣٥٧.

ذلك بسنين متعددة بنيت القبة على السقف، وأنكره من كرهه»(١).

يقول العلاَّمة حسين بن مهدي النعمي في الرد على هذه الدعوى: «قوله [أي: المخالف]: ومن المعلوم أنه (ﷺ) له قبة، وأولياء المدينة وأولياء سائر البلدان.

أقول: الأمر كذلك؛ فكان ماذا؟ بعد أن حذر (ﷺ) وأنذر وبرأ جانبه المقدس الأطهر (ﷺ)، فصنعتم له ما نهى عنه، أفلا كان هذا كافياً لكم عن أن تجعلوا أيضاً مخالفتكم عن أمره حجة عليه وتقدماً بين يديه! فهل أشار بشيء من هذا أو رضيه أو لم ينه عنه؟»(٢).

وقال العلاَّمة الصنعاني في الجواب عن هذه الشبهة: «فإن قلت: هذا قبر رسول الله قد عمرت عليه قبة عظيمة، أنفقت فيها الأموال. قلت: هذا جهل عظيم بحقيقة الحال: فإن هذه القبة ليس بناؤها منه (ﷺ)، ولا من الصحابة، ولا من تابعيهم، ولا تابعي التابعين، ولا من علماء أمته وأئمة ملته، بل هذه القبة المعمولة على قبره (ﷺ)، من أبنية بعض ملوك مصر المتأخرين، وهو قلاوون الصالحي المعروف بالملك المنصور في سنة ٦٧٨هـ، ذكره في تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة، فهذه أمور دولية لا دليلية، يتبع فيها الآخر الأول»(٣).

ويُذكر أن الإخوان (رحمهم الله) قد هموا في زمن الملك عبد العزيز بن عبدالرحمن آل سعود (رحمه الله) عند دخولهم المدينة المنورة أن يزيلوا هذه القبة، ولكنهم خشوا من قيام فتنة أعظم من إزالة القبة(٤).

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٢٧٩.

(٢) معارج الألباب، ص ١٤٧، بتصرف يسير.

(٣) تطهير الاعتقاد، ص ٤٣.

(٤) انظر: بحثاً حول القبة المبنية على قبر الرسول (ﷺ)، لمقبل الوادعي، ص ٢٧٥.

ثانياً: المسلك الدعوي:

ويتمثل هذا المسلك من خلال عدة أمور:

١ ـ **أن يُعنى العلماء والدعاة بتقرير التوحيد في تلك المجتمعات المولعة بتعظيم القبور والغلو فيها**، وأن يجتهدوا في تجلية مفهوم التوحيد ـ من خلال القصص القرآني وضرب الأمثال ـ وضرورة تعلق القلب بالله (سبحانه وتعالىٰ) وأن الله (عز وجل) هو المتفرد بالنفع والضر والخلق والتدبير، ومن ثَمَّ فهو المألوه المعبود الذي تألهه القلوب محبة وإجلالاً وخشية ورجاءً.

وأن يضمّن هذا التقرير بيان عجز المخلوقين وضعفهم، وأنهم لا يملكون لأنفسهم ـ فضلاً عن غيرهم ـ ضراً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً.

وأن يسعىٰ إلىٰ تحبيب هذا التوحيد إلىٰ الناس من خلال الحديث عن فضائل التوحيد وبيان ثمراته وآثاره، وأخبار الأنبياء (عليهم السلام) والصالحين الذين حققوا التوحيد، كما ينبغي الاهتمام بإظهار أثر التوحيد علىٰ الحياة العامة.

٢ ـ **أن تربى الأمة عموماً ـ وهذه المجتمعات المعظمة للقبور خصوصاً ـ على أهمية التسليم لنصوص الكتاب والسنة والتحاكم إليها وانشراح الصدر لها.**

يقول سبحانه: ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وإذا كان طواغيت هذا العصر يفرضون علىٰ الناس احترام الشرعية الدولية والإذعان والتسليم لقرارات الأمم المتحدة؛ فإن علىٰ العلماء والدعاة إلىٰ الله أن يدعوا المسلمين إلىٰ ما أوجبه الله عليهم من التسليم والانقياد لنصوص الوحيين وعدم معارضتها بأي نوع من المعارضات سواءً أكان تقليداً، أو معقولاً، أو ذوقاً، أو سياسة أو غيره؛ فالإيمان مبني علىٰ التسليم لله (تعالىٰ) والإذعان لشرعه[1].

(١) انظر: الصواعق المرسلة، لابن القيم، ٤/ ١٥٦٠.

يقول أبو الزناد (رحمه الله): «إن السنن لا تخاصم ولا ينبغي لها أن تتبع بالرأي، ولو فعل الناس ذلك لم يمضِ يوم إلا انتقلوا من دين إلى دين، ولكنه ينبغي للسنن أن تُلزَم ويُتمسك بها على ما وافق الرأي أو خالفه»(١).

٣ - **أن يدعى الناس إلى الالتزام بالشرع والعمل بالسنة**؛ فإن إظهار السنن والتمسك بها يستلزم زوال البدع واندثارها، وكذا العكس فإنه ما ظهرت بدعة إلا رفع مثلها من السنة، والنفوس إن لم تشتغل بسنة وتوحيد؛ فإنها ستشتغل ببدعة وشرك؛ فالنفوس خلقت لتعمل لا لتترك(٢).

وقد تتثاقل النفوس تجاه الالتزام بالأحكام الشرعية، وتنشط تجاه ما أحدثته من بدع ومحدثات، ومن ثم يتعين على دعاة الإصلاح أن يأخذوا على أيدي هؤلاء ويذكّروهم بفضل التمسك بالشرائع، وأن هذه الشرائع غذاء وروح، وقرة عين وسرور قلب(٣). يقول أبو الوفاء ابن عقيل - متحدثاً عن تلك النفوس المتثاقلة تجاه الشرائع:

«لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، قال: وهم كفار عندي بهذه الأوضاع، مثل: تعظيم القبور وإكرامها بما نهى الشرع عنه، من: إيقاد النيران، وتقبيلها، وخطاب الموتى بالألواح، وكتب الرقاع فيها: يا مولاي افعل بي كذا وكذا...»(٤).

٤ - **دعوة المخاطبين إلى تدبر آيات القرآن الحكيم، وحثهم على التأمل والتفكر**

---

(١) الحجة لقوام السنة، الأصفهاني، ١/ ٢٨١.

(٢) انظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦١٧.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى، لابن تيمية، ١/ ٢٥، ٢٦.

(٤) تلبيس إبليس، لابن الجوزي، ص٤٥٥، وانظر: اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦١١، وإغاثة اللهفان، ١/ ٣٣١.

في معاني القرآن، كما قال (سبحانه): ﴿ كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ ﴾ [ص: ٢٩].

وقال (عز وجل): ﴿ أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا ﴾[النساء: ٨٢].

وإن من أعظم أسباب الضلال واستفحال الشرك: الإعراض عن تدبر آيات القرآن، والاقتصار على مجرد قراءته دون فهم أو فقه.

فإذا نظرنا ـ مثلاً ـ إلى مسألة إفراد الله (عز وجل) بالدعاء والاستغاثة، فإنها من أوضح الواضحات في كتاب الله، فقد تحدث عنها القرآن في ثلاثمئة موضع[١]، ومع ذلك فما أكثر الذين يتلون هذه الآيات بألسنتهم وينقضونها بأفعالهم وأحوالهم.

يقول العلاَّمة حسين بن مهدي النعمي (رحمه الله) (ت/ ١١٨٧هـ) متحدثاً عن ضلال القبوريين:

«لا جرم لما كان ملاك أمر الجميع وحاصل مبلغهم وغايتهم هو التلاوة دون الفقه والتدبر والاتباع، خفي عليهم ذلك، وعموا وصموا عنه، وأنّى لهم ذلك؟ وقد منعهم سادتهم وكبراؤهم من أهليهم، وممن يقوم عليهم ويسوسهم، وقالوا: كتاب الله حجر محجور، لا يستفاد منه، ولا يقتبس من أنواره، ولا ينال ما فيه من العلم والدين..

فلعمر الله للخير أضاعوا، وللشر أذاعوا، وإلا فلولا ذلك لكانت هذه المسألة [إفراد الله بالدعاء] من أظهر الظواهر، لما أن العناية في كتاب الله بشأنها أتم وأكمل، والقصد إليها بالتكرير والتقرير والبيان في كتاب الله أكثر وأشمل»[٢].

---

(١) انظر: الدرر السنية، ٩/ ٤١٨، واقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٧٠٥.

(٢) معارج الألباب، ص٢١٦، باختصار.

ويقول الشيخ العلاَّمة عبد الرحمن بن حسن (رحمه الله) في هذا المقام :

«فمن تدبر عرف أحوال الخلق وما وقعوا فيه من الشرك العظيم الذي بعث الله أنبياءه ورسله بالنهي عنه، والوعيد على فعله، والثواب على تركه، وقد هلك من هلك بإعراضه عن القرآن وجهله بما أمر الله به ونهى عنه»(١) .

وعلينا أن نتواصى بتطهير القلوب وتزكيتها لكي يحصل الانتفاع بمواعظ القرآن وأحكامه .

يقول ابن القيم عند قوله: ﴿ لا يَمَسُّهُ إِلاَّ الْمُطَهَّرُونَ ﴾ [الواقعة : ٧٩] . «دلّت الآية بإشارتها وإيمائها على أنه لا يدرك معانيه ولا يفهمه إلا القلوب الطاهرة، وحرام على القلب المتلوّث بنجاسة البدع والمخالفات أن ينال معانيه وأن يفهمه كما ينبغي»(٢) .

٥ ـ **مخاطبة عقولهم، ودعوتهم إلى التفكير والتأمل**؛ فإن الولوغ في تقديس الأضرحة والغلو فيها لا يظهر إلا عند أقوام ألغوا عقولهم، وعطلوا تفكيرهم، وأشربوا حبّ التقليد ومحاكاة الآباء دون حجة أو برهان .

وقد عني القرآن بمخاطبة ذوي الألباب وأثنى عليهم، وحضّ على التفكر والنظر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار، كما تضمن القرآن أدلة عقلية وحججاً برهانية في تقرير التوحيد والنبوة والمعاد .

ومن ذلك قوله (تعالى) : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾[سبأ : ٢٢، ٢٣] .

يقول ابن القيم عند هذه الآية الكريمة : «فتأمل كيف أخذتْ هذه الآية على

---

(١) قرة عيون الموحدين، ص٣٣ .

(٢) التبيان في أقسام القرآن، ص١٤٣ .

المشركين بمجامع الطرق التي دخلوا منها إلى الشرك وسدتها عليهم أحكم سد وأبلغه؛ فإن العابد إنما يتعلق بالمعبود لما يرجو من نفعه، وإلا فلو لم يرجُ منه منفعة لم يتعلق قلبه به، وحينئذ فلا بد أن يكون المعبود مالكاً للأسباب التي ينفع بها عابده أو شريكاً لمالكها، أو ظهيراً أو وزيراً ومعاوناً له، أو وجيهاً ذا حرمة، وقد يشفع عنده؛ فإذا انتفت هذه الأمور الأربعة من كل وجه وبطلت، انتفت أسباب الشرك وانقطعت مواده، فنفى (سبحانه)عن آلهتهم أن تملك مثقال ذرة في السموات والأرض، فقد يقول المشرك: هي شريكة لمالك الحق فنفى شركتها له، فيقول المشرك: قد تكون ظهيراً ووزيراً ومعاوناً، فقال: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ﴾ [سبأ: ٢٢] فلم يبق إلا الشفاعة فنفاها عن آلهتهم، وأخبر أنه لا يشفع عنده أحد إلا بإذنه»(١).

ومن الأجوبة العقلية في الرد على دعوى القبوريين في أنهم ينتفعون بهذه الأضرحة ما ذكره شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) بقوله: «عامة المذكور من المنافع كذب؛ فإن هؤلاء الذين يتحرون الدعاء عند القبور وأمثالهم إنما يستجاب لهم في النادر، ويدعو الرجل منهم ما شاء الله من دعوات، فيستجاب له في واحدة، ويدعو خلق كثير فيستجاب للواحد بعد الواحد، وأين هذا من الذين يتحرون الدعاء أوقات الأسحار، ويدعون الله في سجودهم وأدبار صلاتهم وفي بيوت الله؟ فإن هؤلاء إذا ابتهلوا من جنس ابتهال المقابريين لم تكن تسقط لهم دعوة إلا لمانع، بل الواقع أن الابتهال الذي يفعله المقابريون إذا فعله المخلصون، لم يُرَد المخلصون إلا نادراً، ولم يُستجب للمقابريين إلا نادراً، والمخلصون كما قال النبي (ﷺ): «ما من عبد يدعو الله بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث: إما أن يعجل الله دعوته،

---

(١) الصواعق المرسلة، ٢/ ٤٦١، ٤٦٢.

أو يدخر له من الخير مثلها، أو يصرف عنه من الشر مثلها. قالوا: يا رسول الله! إذن نكثر. قال: الله أكثر»[١] فهم في دعائهم لا يزالون بخير.

وأما المقبريون فإنهم إذا استجيب لهم نادراً، فإن أحدهم يضعف توحيده، ويقل نصيبه من ربه، ولا يجد في قلبه من ذوق الإيمان وحلاوته ما كان يجده السابقون الأولون»[٢].

٦ـ **من الجوانب الدعوية المهمة أن نميّز بين مراتب الشر والانحراف؛** فالغلو في القبور والافتتان بها له مراتب متعددة ومتفاوتة، فمنها ما يكون شركاً بالله (تعالىٰ) في توحيد العبادة كالاستغاثة بأرباب القبور، ومنها ما يكون أشنع من ذلك، كأن يستغيث بالأموات معتقداً فيهم الضر والنفع والتصرف في الكون، ومن الغلو في القبور ما يكون محرماً ووسيلة إلىٰ الشرك كالصلاة عند القبور وتحري الدعاء عندها.

ويخطئ بعض الدعاة فلا يفرقون بين هذه المراتب من جهة الحكم عليها، كما قد يخطئون فلا يميّزون من جهة ترتيبها وأولويتها في الإنكار، والمتعيَّن أن تميّز هذه الانحرافات وفق ما جاءت به الأدلة الشرعية، وكما نهتم بآكد الأمور تقريراً ونقدمها، فكذا علينا أن نُعنىٰ بأشنعها تحذيراً... فيحذّر ابتداء من الشرك في الربوبية؛ فالشرك في الإلهية، ثم ينظر إلىٰ وسائل الشرك وذرائعه، فما كان أشدها حرمة وأعظمها وسيلة للشرك فيشتغل بمنعها، ثم ينتقل إلىٰ ما دونها.

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية (رحمه الله) في هذه المسألة: «والمؤمن ينبغي له أن يعرف الشرور الواقعة ومراتبها في الكتاب والسنة، فيفرق بين أحكام الأمور الواقعة الكائنة، والتي يراد إيقاعها في الكتاب والسنة، ليقدم ما هو أكثر

(١) أخرجه أحمد، ٣/ ١٨، والترمذي، وقال: حديث حسن صحيح.

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم، ٢/ ٦٨٩.

خيراً وأقل شرّاً على ما هو دونه، ويدفع أعظم الشرين باحتمال أدناهما، ويجتلب أعظم الخيرين بفوات أدناهما، فإن من لم يعرف الواقع في الخلق، والواجب في الدين، لم يعرف أحكام الله في عباده، وإذا لم يعرف ذلك كان قوله وعمله بجهل، ومن عبد الله بغير علم كان ما يفسد أكثر مما يصلح»[1].

٧ـ **من الوسائل الوقائية النافعة تجاه هذا الانحراف: العمل بقاعدة سدّ الذرائع**؛ فكل ما كان وسيلة أو ذريعة تؤول إلى الشرك فينبغي التحذير منها ومنعها حماية لجناب التوحيد؛ فالتهاون في هذه الوسائل يفضي إلى الوقوع في الشرك بالله (عز وجل) والخروج عن الملة، فمثلاً: الصلاة عند القبور والبناء عليها أمور حرمها الشارع؛ لأنها طريق ووسيلة تفضي إلى الشرك بالله (تعالى)، وقد أشار العلامة الشوكاني (رحمه الله) إلى أن البناء على القبور سبب رئيس في عبادة القبور، فقال: «فلا شك ولا ريب أن السبب الأعظم الذي نشأ منه هذا الاعتقاد في الأموات هو ما زينه الشيطان للناس من رفع القبور ووضع الستور عليها وتجصيصها وتزيينها بأبلغ زينة، وتحسينها بأكمل تحسن؛ فإن الجاهل إذا وقعت عينه على قبر من القبور قد بنيت عليه قبة فدخلها، ونظر على القبور الستور الرائعة، والسرج المتلألئة، وقد سطعتْ حوله مجامر الطيب، فلا شك ولا ريب أنه يمتلئ قلبه تعظيماً لذلك القبر، ويضيق ذهنه عن تصور ما لهذا الميت من المنزلة، ويدخله من الروعة والمهابة ما يزرع في قلبه من العقائد الشيطانية التي هي من أعظم مكائد الشيطان للمسلمين، وأشدّ وسائله إلى ضلال العباد ما يزلزله عن الإسلام قليلاً قليلاً، حتى يطلب من صاحب ذلك القبر ما لا يقدر عليه إلا الله ـ سبحانه ـ، فيصير في عداد المشركين»[2].

(١) جامع الرسائل، ٢/ ٣٠٥، وانظر الرد على البكري، ص٥٥.

(٢) شرح الصدور بتحريم رفع القبور، ص ١٧.

ثالثاً: المسلك الاحتسابي:

وهذا مسلك يقوم به أصحاب الحسبة، الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر، لاسيما أصحاب النفوذ والسلطة والشوكة.

ويتمثل هذا المسلك في أمرين:

أحدهما: أن يسعى إلى هدم هذه القباب ونقضها وإزالتها، امتثالاً للوصية النبوية واتباعاً لسلف الأمة.

فعن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي بن أبي طالب: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله (ﷺ)؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته». أخرجه مسلم.

ولما ذكر ابن القيم هدم مسجد الضرار وتحريقه، قال: ففي هذا دليل على هدم ما هو أعظم فساداً منه، كالمساجد المبنية على القبور، فإن حكم الإسلام فيها أن تهدّم كلها حتى تسوّى بالأرض، وهي أولى بالهدم من مسجد الضرار، وكذلك القباب التي على القبور، يجب أن تهدم كلها؛ لأنها أسست على معصية الرسول؛ لأنه قد نهى عن البناء على القبور.. فبناءٌ أسس على معصيته ومخالفته بناء غير محترم»[١].

ومن الأمثلة على هذا المسلك الاحتسابي ما فعله الحارث بن مسكين (رحمه الله) (ت ٢٥٠هـ) عندما هدم مسجداً كان بني بين القبور[٢].

قال ابن كثير في حوادث سنة ٢٣٦هـ: «فيها أمر المتوكل بهدم قبر الحسين

---

(١) إغاثة اللهفان، ١/ ٣٢٧.

(٢) انظر: ترتيب المدارك للقاضي عياض، ١/ ٣٣٢، والديباج المذهب، لابن فرحون، ١/ ٣٣٩.

ابن علي بن أبي طالب، وما حوله من المنازل والدور، ونودي في الناس: من وجد هنا بعد ثلاثة أيام ذهبنا به إلى المطبق (السجن)»[١].

وقال أبو شامة (ت ٦٦٥هـ): «ولقد أعجبني ما صنعه الشيخ أبو إسحاق الجبنياني أحد الصالحين ببلاد إفريقية في المئة الرابعة، حكى عنه صاحبه الصالح أبو عبد الله محمد بن أبي العباس المؤدّب أنه كان إلى جانبه عين تسمى عين العافية كانت العامة قد افتتنوا بها، يأتونها من الآفاق، من تعذّر عليها نكاح أو ولد قالت: امضوا بي إلى العافية، فتعرف بها الفتنة، قال أبو عبد الله: فإنا في السحر ذات ليلة إذ سمعت أذان أبي إسحاق نحوها، فخرجت فوجدته قد هدمها، وأذّن الصبح عليها، ثم قال: اللهم إني هدمتُها لك فلا ترفع لها رأساً، قال: فما رُفِعَ لها رأس إلى الآن»[٢].

وذكر ابن غنام في تاريخه ما فعله الشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) مع عثمان بن معمر من هدم القباب وأبنية القبور فقال: «فخرج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومعه عثمان بن معمر وكثير من جماعتهم إلى الأماكن التي فيها الأشجار التي يعظمها عامة الناس والقباب وأبنية القبور، فقطعوا الأشجار وهدموا المشاهد والقبور، وعدلوها على السنة، وكان الشيخ هو الذي هدم قبة زيد بن الخطاب بيده، وكذلك قطع شجرة الذيب مع بعض أصحابه»[٣].

ومما يجدر التنبيه عليه أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد سلك هذا المسلك الاحتسابي العملي لما كان عنده من شوكة وقوة، ولكنه كان في أول أمره

---

(١) تاريخ ابن كثير، ١/ ٣١٥.

(٢) الباعث على إنكار البدع والحوادث، ص ١٠٣، ١٠٤.

(٣) تاريخ ابن غنام، ١/ ٧٨، بتصرف يسير.

قد سلك مسلك الدعوة برفق ولين كما قال تلميذه وحفيده الشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد بن عبد الوهاب (رحمهم الله) : «كما جرىٰ لشيخنا محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) في ابتداء دعوته، فإذا سمعهم يدعون زيد بن الخطاب (رضي الله عنه) قال: (الله خير من زيد) تمريناً لهم علىٰ نفي الشرك بلين الكلام، نظراً إلىٰ المصلحة وعدم النفرة»[١].

ويذكر الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد الوهاب ما فعلوه أثناء دخولهم مكة (شرّفها الله) سنة ١٢١٨هـ فكان مما قاله: «فبعد ذلك أزلنا جميع ما كان يُعبد بالتعظيم والاعتقاد فيه، ورجاء النفع، ودفع الضر بسببه مع جميع البناء علىٰ القبور وغيرها، حتىٰ لم يبق في البقعة المطهرة طاغوت يُعبد؛ فالحمد لله علىٰ ذلك»[٢].

ومما سطره المؤرخ ابن بشر عن بعض الأعمال التي قام بها الأمير سعود بن عبدالعزيز (رحمه الله) ما يلي:

«ففي حوادث سنة ١٢١٦هـ حين توجه سعود بالجيوش إلىٰ كربلاء، فهدم القبة الموضوعة علىٰ قبر الحسين»[٣].

ويقول أيضاً: «وفي حوادث سنة ١٢١٧هـ حين دخل سعود مكة وطاف وسعىٰ، فرّق جيوشه يهدمون القباب التي بنيت علىٰ القبور والمشاهد الشركية، وكان في مكة من هذا النوع شيء كثير في أسفلها، وأعلاها، ووسطها، وبيوتها، فأقام فيها أكثر من عشرين يوماً، ولبث المسلمون في تلك القباب بضعة

---

(١) مجموعة التوحيد، ص ٣٣٩.

(٢) الهدية السنية، ص ٣٧.

(٣) عنوان المجد، ١/ ٢٥٧.

عشر يوماً يهدمون، يباكرون إلى هدمها كل يوم، وللواحد الأحد يتقربون، حتى لم يبق في مكة شيء من تلك المشاهد والقباب إلا أعدموها، وجعلوها تراباً»(١).

وفي سنة ١٣٤٣هـ قام أتباع الدعوة السلفية بهدم القباب والأبنية على القبور بمكة، مثل القبة المبنية على قبر أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها).

وقام الشيخ حافظ بن أحمد الحكمي - في جنوب الجزيرة العربية - بهدم قبة في الساحل بمشاركة بعض زملائه، وبقايا قبة على قبر الشريف حمود المكرمي في سامطة(٢).

ويقول الشيخ الألباني: «ومن تلك الأشجار شجرة كنت رأيتها من عشر سنين شرقي مقبرة شهداء أحد، خارج سورها، وعليها خرق كثيرة، ثم رأيتها سنة ١٣٧١هـ قد استأصلت من أصلها، والحمد لله، وحمى المسلمين من شر غيرها من الشجر وغيره من الطواغيت التي تعبد من دون الله (تعالى)»(٣).

الأمر الثاني: أن يسعى إلى فضح وكشف مكائد أرباب القبور وسدنتها، وبيان حقيقة هؤلاء الدجالين الملبسين، وما هم عليه من الفجور والولوغ في الفواحش، وأكل أموال الناس بالباطل، وأنهم خونة وعملاء للاستعمار وأذنابه.

وقد كشف أهل العلم حقائق مخزية وأحوالاً فاضحة لأولئك السدنة المضلين وأتباعهم، وما يرتكبونه من انخلاع عن شرائع الله (تعالى)، وولع بالفجور والقاذورات.

يقول العلاَّمة النعمي حاكياً بعض أوضاعهم: «ومن ذلك أن رجلاً سأل من

(١) المرجع السابق، ١/ ٢٦٣.

(٢) انظر: الشيخ حافظ الحكمي، حياته ومنهجه في العقيدة، لأحمد علوش، ص ٣٥٧.

(٣) تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد، ص ١٣٩.

فيه مسكة عقل، فقال: كيف رأيتَ الجمع لزيارة الشيخ؟ فأجابه: لم أرَ أكثر منه إلا في جبال عرفات، إلا إني لم أرهم سجدوا لله سجدة قط، ولا صلوا مدة الأيام فريضة.

فقال السائل: قد تحمَّلها عنهم الشيخ! .

قلت [النعمي]: وباب (قد تحمَّل عنهم الشيخ) مصراعاه ما بين بصرىٰ وعدن، قد اتسع خرقه، وتتابع فتقه، ونال رشاش زقومه الزائر والمعتقد، وساكن البلد والمشهد»[(١)].

ومما سوّده المؤرخ الجبرتي في شأن مشهد عبد الوهاب العفيفي (ت ١١٧٢هـ) وما يحصل عنده من أنواع الفسوق والفجور ما يلي: «ثم إنهم ابتدعوا له موسماً وعيداً في كل سنة يدعون إليه الناس من البلاد، فينصبون خياماً كثيرة ومطابخ وقهاوي، ويجتمع العالم الأكبر من أخلاط الناس وخواصهم وعوامهم وفلاحي الأرياف وأرباب الملاهي والبغايا، فيملؤون الصحراء، فيطؤون القبور ويوقدون عليها النيران، ويصبون عليها القاذورات ويبولون ويتغوطون ويزنون ويلوطون ويلعبون ويرقصون ويضربون بالطبول والزمور ليلاً ونهاراً، ويستمر ذلك نحو عشرة أيام أو أكثر»[(٢)].

وتحدث الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن آل الشيخ عن مفاسد عُبَّاد القبور، فكان مما قاله: «ومنها: ما يقع ويجري في هذه الاجتماعات من الفجور والفواحش، وترك الصلوات وفعل الخلاعات التي هي في الحقيقة خلع لربقة الدين والتكليف، ومشابهة لما يقع في أعياد النصارىٰ والصابئة والإفرنج

---

(١) معارج الألباب، ص ١٧٧ .

(٢) تاريخ الجبرتي، ١/ ٣٠٤، باختصار .

بلاد فرنسا وغيرها من الفجور والطبول والزمور والخمور»[١].

ويصف الشيخ عبد الرحمن الوكيل أحوال عبّاد القبور - من الصوفية وغيرهم - ويشير إلى جملة من صور الكفر والفجور في تلك المشاهد والموالد، فيقول: «وسلِ الآمِّين تلك الموالد عن عربدة الشيطان في باحاتها، وعن الإثم المهتوك في حاناتها، وعن حمم الشهوات التي تتفجر تحت سود ليلاتها.. فما ينقضي في مصر أسبوع إلا وتحشد الصوفية أساطير شركها، وعبّاد أوثانها عند مقبرة يسبِّحون بحمد جيفتها، ويسجدون أذلاء لرمتها، ويقترفون خطايا المجوسية في حمأتها، ويحتسون آثام الخمر و«الحشيش»، والأجساد التي طرحها الإثم على الإثم فجوراً ومعصية، ويسمونها موالد، أو مواسم عبر وذكريات خوالد...»[٢].

وسرد الكاتب أحمد منصور أقوال المؤرخين في الانحلال الخلقي عند مشهد الإنبابي.. وأن فيه من الفساد ما لا يوصف، حتى إن الناس وجدوا حول هذا المشهد أكثر من ألف جرة خمر فارغة، وأما ما حكي من الزنا واللواط فكثير لا يحصى.. حتى أرسل الله (تعالى) عليهم ريحاً في تلك الليلة كادت تقتلع الأرض بمن عليها...[٣].

وأمعن عبّاد القبور في أكل أموال الناس بالباطل، وارتكبوا أنواع الأكاذيب والدجل في سبيل نهب أموال العامة وممتلكاتهم.

---

(١) منهاج التأسيس، ص ٥٥.

(٢) هذه هي الصوفية، ص١٦٠، ١٦١، باختصار.

(٣) انظر: السيد البدوي، ص ٣٢٣ ـ ٢٣٦، وانظر: الصراع بين الحق والباطل، لسعد صادق، ص ٤٩، ٥٠، والألوهية في العقائد الشعبية، لعبد السلام البسيوني، ص ٩٦ ـ ٩٨.

وقد حكى العلامة الشوكاني هذه الحالة فقال: «وربما يقف جماعة من المحتالين على قبر ويجلبون الناس بأكاذيب يحكونها عن ذلك الميت ليستجلبوا منهم النذور، ويستدروا منهم الأرزاق ويقنصوا النحائر، ويستخرجوا من عوام الناس ما يعود عليهم وعلى من يعولون ويجعلون ذلك مكسباً ومعاشاً...»[١].

وصندوق النذور عند ضريح البدوي في مصر يستقطع من الدهماء ملايين الجنيهات، وللحكومة ٣٩٪ من هذه الأموال!! وسائر الأموال لسدنة الضريح والعاملين عليه!! وحسبك أن تعلم أن ما يناله خادم الضريح من هذه الأموال أكثر مما يناله كبار الأطباء والمهندسين وأساتذة الجامعات... ومع ذلك لم يقف طمع أولئك السدنة وشرههم عند هذا الحد، بل ويعمدون إلى التلاعب والتزوير في هذا الصندوق من أجل مزيد من الأموال[٢].

وأما الحديث عن خيانتهم وعمالتهم للاستعمار، فنكتفي بهذا المثال، وهو: أن فرنسياً أسلم وتنسّك وصار إماماً لمسجد كبير في القيروان بتونس، فلما اقترب الجنود الفرنسيون من المدينة استعد أهلها للدفاع عنها، وجاؤوا يسألونه أن يستشير لهم ضريح شيخ في المسجد يعتقدون فيه، فدخل الضريح ثم خرج مهولاً لهم بما سينالهم من المصائب، وقال لهم بأن الشيخ ينصحكم بالتسليم، فاتبع أولئك البسطاء قوله واستسلموا لعدوهم[٣].

---

(١) الدر النضيد، ص ٢٧.

(٢) انظر تفصيل ذلك في كتاب: «الله توحيد وليس وحدة» لمحمد البلتاجي، ص ٣٠٢، ٣٠٨، وكتاب: البدوي، لأحمد منصور، ص ٢٩٨، ٢٩٩.

(٣) انظر: التصوف بين الحق والخلق، لمحمد الشقفة، ص ٢١١، ٢١٢.

عاصفة الأوهام

(عوامل الاستمرار)

خالد محمد حامد

لا تحمل الخرافة في ذاتها قوة الدفع اللازمة لاستمرار ترويجها لدى المصابين بها؛ فهي لا تصمد أمام الحقائق العقلية والشرعية في حلبة صراع الأفكار، ومع ذلك فقد استمر داء تقديس القبور والأضرحة، بل انتشر واستفحل حتى إنه يذكر عن عدد الذين يحضرون مولد البدوي أو الدسوقي في مصر مثلاً أنهم: يقدرون بالملايين من البشر[1]، فما هي العوامل التي ساعدت على هذا الانتشار والاستمرار؟

إن المتأمل في شأن القبورية يستطيع القول: إنه لم يكن السبب في هذا الانتشار عاملاً واحداً، بل هناك عدة عوامل متشابكة عملت جميعها على ذلك الانتشار والاستمرار، نذكر منها: العوامل الدينية، والنفسية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية. . وإليك بيان بعض هذه العوامل:

العوامل الدينية:

فـ(فلسفة القبورية) تعد من أهم عوامل استفحال داء تقديس القبور والأضرحة، وأعني بذلك: وجود الفراغ (التوحيدي) لدى القبوريين مع بقاء

---

(١) انظر: موالد مصر المحروسة، ص٤٠، والأضرحة وشرك الاعتقاد، ص٦٤، وعقيدة المسلم، لمحمد الغزالي، ص٧٦، وتقرير الحالة الدينية في مصر، الصادر عن مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية بالأهرام. العدد الثاني، ص ٣٣١ .

الدافع الفطري في (التأله) لدى البشر عموماً، كما أن القبوريين توهموا سهولة الدخول تحت طقوس القبور والأضرحة مقابل تخليهم عما عدوه صعوبة تكاليف التوحيد الخالص، فكانوا كما قال فيهم ابن قيم الجوزية نقلاً عن أبي الوفاء بن عقيل (رحمهما الله) : «لما صعبت التكاليف على الجهال والطغام، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم...»[١]، فإذا أضفنا إلى ذلك: ترويج مشايخ القبورية لشبهات ساقطة على أنها أدلة شرعية وحقائق دينية تسمح بهذه الطقوس.. لازداد تأثير هذا العامل في ترسيخ فتنة القبورية، **لذلك فإن انتشار هذا الداء يتناسب عكسياً مع تصاعد أمرين:**

الأمر الأول: محاولة القضاء على الدين عموماً والعمل على قتل فطرة الإيمان بالغيبيات في القلوب، الأمر الذي يصرف هذه الفطرة إلى نوع آخر من الإيمان بنوع تأليه للمادة والعقل بدلاً من الغيب والخرافة، وهذا ما ظهر واضحاً عقب الانقلاب العلماني على الخلافة العثمانية، «ويذكر رشيد رضا لعباد القبور ما فعله ملاحدة الأتراك عندما استلموا الحكم، فقد حارب هؤلاء البدع والخرافات وعبادة القبور، وقاموا بنبش قبور بعض الأولياء، وعرضوا أمام الناس رميم عظامهم وعجزهم عن الدفاع عن أنفسهم وعن مراقدهم، بله أن يجلبوا النفع أو يدفعوا الضر عن الناس»[٢].

الأمر الثاني: ملء الفراغ التوحيدي الذي شغلته الخرافة عندما تألهت القلوب للأضرحة والقبور وساكنيها، كما يقول ابن قيم الجوزية (رحمه الله):

(١) إغاثة اللهفان، جـ١، ص١٩٥.

(٢) عن: السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، لمحمد أحمد درنيقة، ص٢٢٣ - ٢٢٤.

«من غَمَرَ قلبه بمحبة الله (تعالىٰ) وذكره، وخشيته، والتوكل عليه، والإنابة إليه، أغناه ذلك عن محبة غيره وخشيته والتوكل عليه»(١)، لذا: رأينا أن انتشار هذا الداء تناقص نسبيّاً في الأماكن والأوقات التي نمت فيها الصحوة الإسلامية المباركة، التي أخذت علىٰ عاتقها الدعوة إلىٰ التوحيد الخالص من شوائب الشرك كبيره وصغيره، والرد علىٰ شبهات أهل الزيغ، وهنا يبرز الدور الخطير ـ سلباً وإيجاباً ـ الذي يمكن أن يقوم به العلماء والدعاة، فعلىٰ الرغم من جهود مشكورة لكثير من العلماء والدعاة الذين بينوا للناس حقيقة التوحيد وحذروهم من الوقوع في الشرك إلا إن القبوريين خادعوا أنفسهم ووجدوا ملاذاً لهم في بعض من ينسب إلىٰ العلم والدين، فأبوا إلا أن يُصغوا آذانهم ويفتحوا مغاليق قلوبهم لكل من ساهم بقول أو فعل في التلبيس علىٰ الناس وفتنتهم عن دينهم الحق.

وإليك إيضاحاً لبعض مواقف هؤلاء الداعين بأقوالهم أو أفعالهم إلى القبورية:

فحضور هؤلاء الشيوخ لهذه الأماكن وعدم إنكارهم لما يحدث فيها، بل مشاركتهم في طقوسها في أحيان كثيرة.. فتنَ كثيراً من الدهماء. فمما يذكره الجبرتي بعد وصف المنكرات التي تحدث في أحد الموالد (مولد العفيفي): «.. ويجتمع لذلك أيضاً الفقهاء والعلماء... ويقتدي بهم الأكابر من الأمراء والتجار والعامة من غير إنكار، بل ويعتقدون أن ذلك قربة وعبادة، ولو لم يكن كذلك لأنكره العلماء... فضلاً عن كونهم يفعلونه..»(٢).

ويقول محمد أحمد درنيقة: «وهذه الأمور كانت تجري في بيت الله ويراها ويسمعها العلماء الذين لا يفعلون شيئاً للتخلص من هذه الانحرافات، لا،

---

(١) إغاثة اللهفان، جـ١، ص٢١٤.

(٢) عن: هذه هي الصوفية، لعبد الرحمن الوكيل، ص١٦١، وجهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي، ص١٠٠٤.

بل. . . ذهب بعض العلماء إلىٰ تهنئة هذه الفئة بهذا الموسم الشريف والدعاء لهم بأن يطول بهم العمر لإحياء مثله أعواماً عديدة. يرىٰ رشيد رضا أن هذا السكوت من قِبَل العلماء قد أوقع في ذهن العامة أن هذه الأعمال وأضرابها من مهمات الدين»[١].

ومن المواقف المعاصرة العديدة في ذلك: أنه «قد زعم الخليفة الحالي للسيد البدوي في مولد عام ١٩٩١م: (أن السيد البدوي موجود معك أينما كنت، ولو استعنت به في شدتك وقلت: يا بدوي مدد، لأعانك وأغاثك)! قال ذلك أمام الجموع المحتشدة بسرادق وزارة الأوقاف في القاهرة أمام العلماء والوزراء، وقد تناقلته الإذاعات وشاشات التلفاز»[٢].

ليس هذا فحسب، بل تؤلف الكتب في الدعوة إلىٰ ذلك، ويتواطأ (العلماء) في إقرارها، فقد ذكر رشيد رضا أن أحد (المنسوبين للعلم) ألّف كتاباً يدعو فيه إلىٰ ذلك التوجه (المنافي للحنيفية)، «وواطأه علىٰ ضلاله وإضلاله (٦٣) عالماً أزهريّاً كما ادعىٰ، وذكر أسماءهم وإمضاءات أكثرهم بخطوطهم، وبنىٰ علىٰ هذا أنه انعقد الإجماع؛ لأن سائر علماء الأزهر يوافقونهم فيه، وأنه يجب علىٰ جميع المسلمين اعتقاده والعمل به. .»[٣]. .

والأمر تجاوز التنظير والتسويغ ليصل إلىٰ الممارسة الفعلية كما يقوم بها أي خرافي، فهذا «أحد المشايخ الكبار في عهد إسماعيل باشا كتب شكوىٰ ضده وأرسلها بالبريد إلىٰ طنطا، ومنها إلىٰ قبر السيد البدوي، حيث تقوم محكمته

(١) السيد محمد رشيد رضا، إصلاحاته الاجتماعية والدينية، ص٢٠٨.

(٢) محمد حامد الناصر، بدع الاعتقاد، ص٢٥٦، عن: السيد البدوي، دراسة نقدية، وانظر: الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢١.

(٣) مجلة المنار، جـ٣، م٣٣، ص٢١٦.

داخل قبره!»[١]، «ولما وقع صراع بين الأحناف والشوافع حول مشيخة الأزهر بسبب تعيين أحد مشايخ الأحناف شيخاً للأزهر، هرع الشوافع بقيادة الشيخ محمد بن الجوهري الشافعي إلىٰ ضريح الإمام الشافعي، ولم يزالوا فيه حتىٰ نقضوا ما أبرمه العلماء والأمراء وردوا المشيخة إلىٰ الشافعية!»[٢].

وانظر إلى إنكارهم.. لأي شيء وقع؟! :«فعندما صودر أولاد سعد الخادم ـ وهم سدنة ضريح السيد البدوي ـ هاج العلماء في الأزهر وامتنعوا عن التدريس إنكاراً لمن قام بمصادرته، ولم يعودوا إلا بعد أن طيبت خواطرهم ووعدوا بتلبية رغبتهم»[٣].

ثم انظر إلى إقرارهم.. على أي شيء وقع؟: «ذكر الشيخ رشيد رضا أنه كان مرة في قبة الإمام الشافعي، وكان ثَمَّ جماعة من أكابر علماء الأزهر وأشهرهم، فأذن المؤذن العصر مستدبراً القبلة، فقال لهم: لِمَ لم يستقبل هذا المؤذن القبلة كما هي السنة؟ فقال أحدهم: إنه يستقبل ضريح الإمام!.. وذكر أيضاً أنهم لا ينكرون علىٰ من يستقبل قبر الإمام في صلاته»[٤].

ثم هم لا يسكتون علىٰ من يقوم بواجب إنكار المنكر حقيقة، بل ينكرون علىٰ من ينكر المنكر الشركي، «كما حدث حين اعترض الواعظ الرومي (التركي) في سنة ١٧١١م... وأبدىٰ رأيه في اعتباره زيارة الأضرحة وإيقاد الشموع والقناديل علىٰ قبور الأولياء وتقبيل أعتابهم من قبيل الكفر، بل وطالب بهدم الأضرحة والتكايا، فثار عليه مشايخ الأزهر الصوفية وأصدروا فتوىٰ بكرامات

(١) الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١١٦.

(٢) الانحرافات العقدية، ص٣٥٢.

(٣) السابق، ص٣٠٦.

(٤) السابق، ص٣٥٠.

الأولياء وتوسطوا لدى الحاكم السياسي حتى نفاه»[١].

فما الذي يحمل هؤلاء (العلماء) على تلك الممارسات؟

يحملهم على ذلك ما يحمل غيرهم من دهماء القبوريين:

- فهم يرون أن ذلك من شعائر الدين، حتى إن أحد علماء الأزهر كتب مقالاً يقول فيه لمنكر وجود السيدة زينب في هذا القبر ووجود رأس الحسين في القبر المنسوب إليه: «إنك (جئت تفجأ المسلمين في اعتقاداتهم المقدسة النبوية، فإنك تريد أن تطيِّر البقية من دينهم)» [٢].

وهم يعتقدون في القبور والأضرحة وأصحابها الضر والنفع، تماماً مثلما يعتقد الدهماء والعامة من القبوريين، «ويبين رشيد رضا أن الذي دفع العلماء إلى السكوت عن هذه الأمور خوفهم من الوقوع في قضية إنكار الكرامات أو الاعتراض على الأولياء الذي يخشى معه أن يلحقوا بهم الأذى والضرر»[٣]، وليس أدل على ذلك من أنه «في أيام حكم السلطان المملوكي جقمق قيل لأحد العلماء أن يفتي بإبطال مولد البدوي لما يحدث فيه من زنا وفسق ولواط وتجارة مخدرات، وما يشيعه الصوفية من أن البدوي سيشفع لزوار مولده، فأبى هذا العالم أن يفتي، قائلاً ما معناه: إن البدوي ذو بطش شديد»[٤]..

فإذا كان هذا هو حال عدد من العلماء المقتدى بهم عند العامة، فماذا يُنتظر من العامة والدهماء؟.. إن الذي يعرض منهم عن السماع للعلماء الربانيين

---

(١) الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص٨٣ ـ ٨٤.

(٢) مجلة المنار، جـ٣، م٣٣، ص ٢٢٢.

(٣) محمد أحمد درنيقة، مرجع سابق، ص ٢٠٧.

(٤) د. عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص ١٢٠.

ويتخذ مثل هؤلاء قدوة وأسوة فلا بد أن يتخبط من مس الخرافة والأوهام.

العوامل النفسية:

يرتبط بما سبق بعض الأسباب النفسية التي تعمل علىٰ انتشار تقديس القبور والأضرحة واستمراره، حيث يمثل (الخوف) منها ـ الذي نتج عن الاعتقاد فيها ـ حاجزاً لمنع هدم الأسطورة التي قامت عليها، وكذلك تمثل (المسرة والحبور) الناتجين عن الاعتقاد فيها أيضاً أحد المرغبات في استمرار هذا الكيان.

وهذا ما يذكره الأستاذ عبد المنعم الجداوي عن تجربته القبورية.. «شيء آخر أشعل في فؤادي لهباً يأكل طمأنينتي في بطء.. أن الدكتور [الذي يدعوه إلىٰ الكفر بهذه الطقوس الوثنية] يضعني في مواجهة صريحة ضد أصحاب الأضرحة الأولياء، والخطباء علىٰ المنابر صباح مساء يعلنونها صريحة: إن الذي يؤذي وليّاً فهو في حرب مع الله (سبحانه وتعالىٰ).. وأنا لا أريد أن أدخل في حرب ضد أصحاب القبور والأضرحة؛ لأنني أعوذ بالله من أن أدخل في حرب معه (جل جلاله)»[1].

وعن أحد أسباب عشقهم يقول: «... لأني أحب أشعارهم، وأحب موسيقاهم وألحانهم التي هي مزيج من التراث الشعبي، وخليط من ألحان قديمة متنوعة... أو ناي مصري حزين ينفرد بالأنين مع بعض أشعارهم التي تتحدث عن لقاء الحبيب بمحبوبه... وكل حجتي التي أبسطها في معارضة (الدكتور) أنه وأمثاله من الذين يدعون إلىٰ (التوحيد) لا يريدون للدين روحاً، وإنما يجردونه من الخيال!»[2].. ولعل ذلك الخيال الذي كان يريد للدين أن يسبح فيه هو ما عبَّر

---

(١) اعترافات.. كنت قبورياً، ص٩ ـ ١٠.

(٢) السابق، ص١٢.

عنه بقوله: «أحياناً أخترع لهم كرامات، أو أتصورها، أو أتخيلها. . »[١].

وهنا تلعب الإشاعات ونسج الأكاذيب دوراً مهمّاً في بناء العامل النفسي؛ فالصوفية دأبوا على تحذير الناس من غضب (الأولياء)، «وقد صاغوا هذه الأفكار المخيفة في صورة حكايات مرعبة حول رجال لهم سمعتهم العلمية ومكانتهم الفقهية اعترضوا على الصوفية فأذاقهم طواغيتهم من العذاب الأليم ألواناً»[٢] . . وليس هذا الإرهاب النفسي مع العلماء والفقهاء فقط، «فمع أن الحكام من المماليك كانوا يسيرون في ترهات أباطيل الصوفية ويقيمون لهم الخوانق والرباطات والزوايا، فلم تخل قصص التخويف من تخويفهم، وأطلقوا على البدوي لقب: العطاب»[٣] . .

فإذا كان هذا الحال هو ما يشاع بين العلماء والحكام، فما بالنا بما يروج بين دهماء الناس ويؤثر على نفسيتهم المستسلمة لهذا الداء؟. . لننظر إلى بعض الصور:

فأهالي الإسكندرية بمصر يتحدثون بكثرة عن الكرامات التي تحدث لضريح أبي الدرداء، «ويذكرون على سبيل المثال ما حدث عندما أرادت بلدية الإسكندرية سنة ١٩٤٧م نقل الضريح إلى مكان آخر . . . وبدأت فعلاً في تنفيذ المشروع، ولكن واحداً من العمال الذين يعملون في نقل الضريح توقفت يداه وأصيب بالشلل!، فامتنع باقي العمال عن العمل. . . واضطرت البلدية أن

---

(١) السابق، ص ٨.

(٢) د. عبد الكريم دهينة، الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢٥.

(٣) السابق، ١٢٧.

ترضخ لاعتقاد العامة وأبقت الضريح كما هو»[١].

ومما رصده الشيخ رشيد رضا بخصوص هذه الظاهرة أنه «شاع لدىٰ العامة أن من تعوَّد علىٰ حضور هذه الموالد أو علىٰ إنفاق شيء فيها، ثم امتنع عن قيامه بعادته تلك: لا بد أن يصاب بنكبة أو مصيبة . . »[٢].

فماذا لو تم بالفعل إبطال أحد الموالد؟! . . «حدث أن السلطان جقمق أبطل مولد البدوي لما فيه من الوثنيات الموبقات والفواحش بين الرجال والنساء، وحدث لبعض المقيمين بإبطال هذا المولد ابتلاء لهم . . . فمنهم من عزل من منصبه، ومنهم من أمر السلطان بنفيه، ومنهم من وضع في السجن، فأشاع الصوفية أن كل ذلك من عمل البدوي؛ لأنه غضبان عليهم»[٣]، فآلة الحرب النفسية الصوفية تعمل علىٰ كل حال.

وهناك بعد آخر في العامل النفسي، وهو أن أضرحة الأولياء تمثل للعامة تعويضاً وهميّاً عن قهرها أوقات الاستبداد والتسلط السياسي؛ «فالإنسان المقهور يكون بحاجة إلىٰ قوة تحميه تجسدت في الأولياء، فهم المحامون والملاذ؛ ويتضح هذا جليّاً في كرامات الأولياء؛ فهي تشكل النقيض تماماً لوضعية الإنسان المقهور، وحيث ترسم صورة الإنسان المتفوق ضد الإنسان المهان واقعيّاً، وتجسد أماني المغلوبين في الخلاص من خلال وجود نموذج الولي صاحب الخوارق الذي يفلت من قيود الزمان والمكان، ولذا: نرىٰ أن الجماهير المقهورة تتجمع حول

(١) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، د. سعاد ماهر فهمي، جـ٢، ص٣٣، وقد يكون الخوف الشديد من هذا العامل هو السبب في هذا الشلل، وقد يكون ذلك ادعاءً منه، وقد تكون القصة كلها مختلقة كما تختلق الأساطير حول الأضرحة عموماً.

(٢) محمد أحمد درنيقة، مصدر سابق، ص٢١١.

(٣) الأضرحة وشرك الاعتقاد، ص١٢٧.

أضرحة الأولياء كما يتجمع أعضاء حزب معين حول شخص زعيمهم»[١].

النساء والعامل النفسي في استفحال داء القبور والأضرحة:

لوحظ من خلال متابعة الواقع وتتبع الوقائع أن للنساء دوراً ملحوظاً في ترويج تقديس القبور والأضرحة والمزارات، نشأةً وارتياداً:

فأم الخليفة العباسي المنتصر هي أول من أنشأ قبة في الإسلام ـ كما مر ذكره في مقال سابق ـ، ويذكر أن الخيزرانة أم هارون الرشيد هي أول من كسا الحجرة النبوية الشريفة، وصارت من بعدها سنة الملوك والسلاطين[٢]، ويذكر أيضاً أنها أول من حوَّل البيت الذي ولد فيه الرسول (ﷺ) إلى مسجد[٣]، كما قامت والدة السلطان العثماني عبد العزيز بترميم قبب مسجد الزبير بن العوام بالبصرة وتكبيره[٤].

ويسجل الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي الملقب عند الحنفية بالإمام الرباني ومجدد الألف الثاني ظاهرة كثرة ارتياد النساء للقبور والأضرحة في الهند فيقول: «وأكثر النساء مبتليات بهذا الاستمداد الممنوع عنه بواسطة كمال الجهل فيهن، يطلبن دفع البلية من هذه الأسماء الخالية عن المسميات، ومفتونات بأداء مراسم الشرك وأهل الشرك، خصوصاً وقت عروض مرض الجدري... بحيث لا تكاد توجد امرأة خالية من دقائق هذا الشرك ... إلا من عصمها الله

(١) د. مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي.. مدخل إلى سيكيولوجية الإنسان المقهور، ص١٤٩ ـ ١٥٠، انظر: الصوفية والسياسة، ص١٨٠.
(٢) انظر: الانحرافات العقدية، ص٢٧٥.
(٣) انظر: مقال (تأملات في حقيقة أمر أولياء الله الصالحين)، ص١٣٤ ـ ١٣٥.
(٤) انظر: الانحرافات العقدية، ٢٩٢.

(تعالىٰ). . »[١].

كما لوحظ أيضاً تخصيص بعض الأضرحة والمزارات بالنساء، كمزار (بنات العين) بالأردن الذي يعرف بـ (المستشفىٰ النسائي)، وضريح الشيخة مريم التي (اشتهرت ببركتها في الشفاء من العقم)، وضريح الشيخة صباح بطنطا التي اشتهرت بالبركة ذاتها![٢]. . . إلىٰ غير ذلك من الأضرحة والمزارات الخاصة بالنساء، بينما لم يبلغ علمنا اهتمام الرجال بتخصيص أضرحة تقتصر عليهم وحدهم أو يزعمون أن لها ميزات تخصهم دون غيرهم.

ولعل ذلك راجع إلىٰ طبيعة نفسية النساء التي يتعاظم فيهن الإحساس الفطري بالضعف البشري وحاجتهن إلىٰ قوة تجبر هذا الضعف، والتي تغلب عليها العاطفة والانبهار بالمظاهر، ولعل لهذا السبب جاء في السنة النبوية تخصيص النساء بالزجر الشديد عن أن يكن زوارات للقبور، فعن أبي هريرة (رضي الله عنه) أن رسول الله (ﷺ) «لعن زوارات القبور»[٣]، وورد فيهن كذلك أنهن أكثر أتباع الدجال « . . . فيكون أكثر من يخرج إليه النساء، حتىٰ إن

---

(١) عن: جهود علماء الحنفية في إبطال عقائد القبورية، د. شمس الدين السلفي الأفغاني، ص٤٥٢، ولزيادة توضيح مثل هذه الأحوال، انظر: الانحرافات العقدية، ص٣١١، ومقال (مسلمو أوزبكستان)، مجلة (دراسات إسلامية)، ع/ ١، ص ٢١٨، ومقال (تأملات في حقيقة أولياء الله الصالحين)، مجلة العربي، ع/ ٢٢٦، ص١٣٥.

(٢) انظر: المزارات في شرقي الأردن، ص٩٠٧، وموالد مصر المحروسة، ص٥٣، والانحرافات العقدية، ص٣٣٦.

(٣) أخرجه الترمذي وابن ماجه وأحمد والبيهقي، وقال الترمذي: حديث حسن صحيح، وهكذا حكم الألباني على الحديث، انظر: مشكاة المصابيح، ح/ ١٧٧٠، وصحيح سنن ابن ماجه، ح/ ١٢٨١.

الرجل ليرجع إلىٰ حميمه وإلىٰ أمه وابنته وأخته وعمته فيوثقها رباطاً مخافة أن تخرج إليه»(١) .

العوامل الاجتماعية:

تمثل المسايرة الاجتماعية والمجاملات دوراً مهمّاً في انتشار هذا الداء وعدم الانخلاع عنه، وهذا ما يسجله الأستاذ عبد المنعم الجداوي في تجربته أثناء خروجه من الاعتقادات القبورية، وذلك عندما وجد نفسه في صراع بين ما اعتقده من خطأ هذه الاعتقادات الباطلة وما يمليه عليه الواجب الاجتماعي من ضرورة مجاملة ابنة خالته وأسرتها، بمشاركته لهم في الوفاء بنذر تقديم (القربان) إلىٰ السيد البدوي؛ حتىٰ يعيش ابنهم الوحيد ـ كما يعتقدون ـ(٢) .

ويدخل في هذه العوامل أيضاً: صفة الهيبة والوجاهة الاجتماعية التي يخلعها تقديس القبور والأضرحة علىٰ سدنتها وخدمها والقائمين عليها، مما يصعب معه ـ إلا علىٰ من رحم الله ـ الاعتراف بخطأ الاعتقادات والممارسات التي تقام وتنسج حول هذه الأضرحة؛ الأمر الذي يعني تخليهم عن هذه المكانة التي أكسبتها لهم الأضرحة والقبور، فلقد «كان سادن الضريح سيداً مطاعاً وشخصاً مهاباً، يستمد طاعته وهيبته من الضريح الذي يقوم علىٰ سدانته. . . وكانت سدانة الأضرحة وظيفة متوارثة يرثها الأبناء عن الآباء، وتنتقل في عقبهم وذراريهم، ولا ينزعها منهم إلا ظالم كما يزعمون، ولم تكن لتنزع من أسرة إلا ليعهد بها إلىٰ أسرة أخرىٰ »(٣) .

---

(١) أخرجه الإمام أحمد بن حنبل، ٢/ ٦٧، وابن ماجه، وهو صحيح لغيره، انظر: الصحيح المسند من أحاديث الفتن والملاحم وأشراط الساعة، لمصطفى العدوي، ص٤٩٧ .

(٢) انظر: اعترافات. . كنت قبورياً، ص ٢٠ .

(٣) الانحرافات العقدية، ص ٣٠٦ .

ويدخل في هذه العوامل كذلك: التفاخر بين أهل القرىٰ والمدن والمحلات بهذه القبور والأضرحة؛ حيث يعتبر المعتقدون فيها أن وجود ضريح ـ وخاصة إذا كان من ذوي الشهرة والمكانة ـ من دواعي فخرهم بين أهل البلاد الأخرىٰ، يقول الغزي بعد أن ذكر الخلاف في دفين الجامع الأموي بحلب: «وعلىٰ كل حال فليس يخلو الجامع من أثر شريف نبوي جدير أن تفتخر حلب بوجوده»[١] . .
ومن هذا الوجه أيضاً: الاهتمام بالأضرحة باعتبارها آثاراً وتراثاً تاريخيّاً ينبغي عدم تضييعه، فالدكتورة سعاد ماهر ترثي وتأسف لحال ضريح «ذي النون المصري»، حيث تقول: «والضريح في مكان مهجور خرب وبحالة سيئة للغاية، ومكانه بجوار مسجد سيدي عقبة بن عامر بجبانة الإمام الليث، وإني أناشد وزارة الأوقاف أن تعيد بناء ضريح أول صوفي في مصر الإسلامية، بل ومن أبرز متصوفي الرعيل الأول في العالم الإسلامي كله»[٢] .

فكيف بعد هذا كله يستمعون لمن يقول لهم: إن بقاء هذا الكيان عار علىٰ عقيدتهم ودينهم وعقولهم؟ .

العوامل الاقتصادية:

ونستطيع أن نطلق عليها: المنافع المادية، وهذه المنافع ظهرت مصاحبة لهذا الداء، فمنذ القدم استعمل الرافضة القبور والأضرحة والعتبات المقدسة وسيلة للتكسب والعيش، مثل الفاتحة والقصاص، وجعلوا شعارهم لزوم المشاهد والقبور[٣]، وعندما راجت هذه التجارة وازدهرت ظهر من يبتكر للناس أصنافاً

---

(١) السابق، ص ٢٨٠
(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون، جـ ١، ص ١٣٤ .
(٣) انظر: الفكر الصوفي في ضوء الكتاب والسنة، لعبد الرحمن عبد الخالق، ص ٤٢٧ .

من هذه الأضرحة لزيادة دخله، وهذا ما يذكره ابن تيمية (رحمه الله)، حيث يقول: «.. حدثني بعض أصحابنا أنه ظهر بشاطئ الفرات رجلان، وكان أحدهما قد اتخذ قبراً تجبىٰ إليه أموال ممن يزوره وينذر له من الضلال، فعمد الآخر إلىٰ قبر، وزعم أنه رأىٰ في المنام أنه قبر عبد الرحمن بن عوف، وجعل فيه من أنواع الطيب ما ظهرت له رائحة عظيمة»[1]، واستمرت هذه البضاعة رائجة عند أهل الوهم والدجل حتىٰ أضحىٰ استمرار تقديس القبور والأضرحة ضماناً لاستمرار تدفق مورد رزق مهم لكثير من فئات المنتفعين بترويج هذا الداء.

ويقف على رأس هؤلاء المنتفعين: سدنة الأضرحة وخدمها والقائمون عليها، فقد مثَّلت هذه الأضرحة مراكز حضرية جذابة، مما دعا الأهالي إلىٰ «بناء مساكن حول الأضرحة، وأصبحت الأضرحة بذلك وسط المدن والقرىٰ توحي للسكان باستمرار هذه العادات.

ومن أهم العادات التي تبعت هذه العادة: تقديم النذور والصدقات، وهو أمر أثَّر في مزيد من الإقبال علىٰ العمل في هذه الأضرحة..»[2]، فصناديق النذور شكَّلت وعاءً استثمارياً مهمّاً لمروجي الخرافة، و«مما يوضح أهمية هذا المورد بالنسبة للمجلس الصوفي وكافة الطرق التابعة له أيضا: الموقف الشديد الذي وقفوه ضد المفتي حين أصدر فتوىٰ شرعية ببطلان النذور شرعاً، واعتبار الباب الثالث من لائحة الطرق الصوفية الذي يقر ويبيح هذه النذور مخالفاً للشرع والدين... وهذا الأمر يدعو البعض لتفسيره بأنه دفاع عن مصالح طبقية أكثر من كونه دفاعاً عن مبادئ شرعية. ومن الموارد المهمة أيضاً: الصدقات التي كان يمنحها أصحاب الجاه والقادرون ـ سواء أكان عطاؤها سرّاً أم جهراً، وسواء أكانت

(١) مجموع الفتاوىٰ، جـ ٢٧، ص ٤٥٩.

(٢) د. زكريا سليمان بيومي، الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٢٩.

عينية أم نقدية.. . »[١].

ليس ذلك فحسب، بل يضاف إلى ذلك: الموارد الرسمية كالأوقاف التي كانت توقف على هذه الأضرحة وخدامها وسدنتها، والإعانات المالية والعينية التي تصرف لهم من وزارتي الأوقاف والشؤون الاجتماعية[٢]، وهكذا صار لهذه الأضرحة «ألوف من السدنة يعيشون في رغد وثراء من ورائها، وكانوا يتوارثون هذه الوظائف. . . ويكفي أن تعلم أن ما كان يصل إلى ضريح الجيلاني في السنة من أموال الزائرين، يفوق ما كانت تنفقه الدولة العثمانية على الحرمين الشريفين في السنة الواحدة أضعافاً مضاعفة»[٣] .

والأمر لا يقتصر فقط على الأوقاف والصدقات والنذور التي يدفعها المعتقدون في الأضرحة لدفع الضرر عن أنفسهم أو لشكر نعمة، والتي تمثل المصدر الرئيس لهذا الدخل، بل يتعداه إلى كل الطرق الموصلة إلى المال بما فيها الاحتيال على السذج المعتقدين في هذه الأضرحة، فعند تغيير كسوة الضريح وعمامة الولي يمزقون الكسوة والعمامة القديمتين إلى قصاصات صغيرة، وهنا « تظهر العملية التجارية غير الرسمية التي يقوم بها خدم المسجد، فيبيعون هذه القصاصات نظير مبالغ كبيرة »[٤] ، وبالطبع يتم ذلك وسط تهافت هؤلاء المعتقدين في الأضرحة للحصول على أي بركة من (ريحة) الولي. . وربما لأجل مثل هذه النشاطات وغيرها ذكر الجبرتي عن سدنة الأضرحة أنهم أغنى الناس![٥].

---

(١) السابق، ص ١٠٤ ـ ١٠٥ .

(٢) انظر: السابق، ص ٩٩ ـ ١٠٢ .

(٣) محمد حامد الناصر، بدع الاعتقاد، ص ٢٦٧ .

(٤) هيام فتحي دربك، مقال (موالد الأولياء في مصر)، المجلة العربية، ع/ ١٣١، ص ٤٣، ٤٤ .

(٥) انظر: الانحرافات العقدية، ص ٣٠٩ .

ويتحدث الدكتور زكريا سليمان بيومي عن أهمية فئة خدام الأضرحة باعتبارها مركز ثقل دعائي واقتصادي للطرق الصوفية فيقول: « . . . فئة خدام الأضرحة، التي تشكل أكبر فئة من حيث العدد والأهمية الاجتماعية والاقتصادية بالنسبة للطرق الصوفية، فهم بمثابة مراكز متناثرة في كل مصر لنشر أساليب هذه الطرق والدعوة لها، ويروجون للاعتقاد في الأولياء بكل مراتبهم، ويكثرون من ذكر كراماتهم وخوارقهم، مدفوعين إلىٰ ذلك بدافع الانتماء للطرق من خلال عملهم، وبدافع أساسي وهو أن هذه الأضرحة تمثل مصدر معيشتهم. . . وكانت هذه الأضرحة تستوعب عدداً كبيراً من الخدم، فمن الممكن أن نجد أسرة كاملة تخدم في ضريح واحد، ولم تكن هذه الوظيفة مقصورة علىٰ الفقراء والمحتاجين، بل كانت - لما تدره من دخل كبير - مغرية لفئات متعددة؛ فنجد مشايخ طرق كبيرة يسعون لهذه الوظيفة، بل ويفضلونها أحياناً علىٰ مشيخة الطرق. . »[1].

فكيف يهدمون بأيديهم الكيان الذي يَغِلّون من وراء إقامته مصدر دخلهم ورغد عيشهم؟ لا بد أنهم سينافحون بكل ما يملكون لاستمرار هذا الكيان، إلا من رحمه الله ولفظ من قلبه حب الدنيا وشهواتها.

ومن المنتفعين باستمرار وجود كيان الأضرحة والقبور: «آلاف من الفقراء الذين يتعيشون بجوار الأضرحة ويستفيدون من الموالد، وهذا أمر واضح عياناً بياناً، لاحظه الباحث في كل الأضرحة التي زارها، وخاصة الحسين والسيدة زينب. . »[2]، ولقد كان الفلاحون يحرصون علىٰ المشاركة في الولائم التي تقام

---

(١) الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٢٦، ١٢٧.

(٢) عمار علي حسن، الصوفية والسياسة في مصر، ص ١١٠.

حول الضريح، حيث «يقصدون بها استجلاب البركة»[١] . . كما أن هناك مئات الأسر التي تتعيش على استمرار الأضرحة من خلال المقاهي والمطاعم والفنادق وغيرها من الخدمات المنتشرة حول كل ضريح، إضافة إلى السيارات ووسائل المواصلات التي تغدو وتروح على حساب الزوار[٢] .

ومن الموارد المهمة التي ارتبطت بتقديس القبور والأضرحة: ما يجري في الاحتفالات والموالد التي تقام لهذه الأضرحة التي «اعتبرها رجال الصوفية مواسم للإرشاد وتعليم الآداب الاجتماعية والدينية، وكمدارس شعبية للوعظ والإرشاد الديني . . »[٣]، ولكنها تحولت إلى بؤر متحركة لنشر المفاسد والانحرافات، وقد تعددت هذه الموالد وكثرت حتى إنها لم تكن تقام أحياناً «بمناسبة تاريخ وفاة صاحب الضريح أو مولده، وكان يصادف أحياناً أن تقام في مواسم الحصاد . . . ونادراً ما كان يحدث مولد لشيخين في ليلة واحدة إلا إذا كانت المسافة بينهما بعيدة حيث كان مشايخ الطرق يحرصون على ترتيب هذه الموالد بحيث يتمكنون من الانتقال بينها . . »[٤]، وقد كانت ليالي الموالد تصل في بعض الأحيان إلى شهرين ونصف[٥]، يصاحبها نشاط وافر لفرق المنشدين والمداحين والمشببين الذين يحيون هذه الموالد بشتى أنواع الاحتفالات، ومنها ما يطلقون عليه: (الذكر)، «وقد اعتاد من يحضر (الذكر) أو يمارسه أو يشاهده خصوصاً في السرادقات المقامة أمام المسجد من أن يقوم بدفع (النقوط)، وهي المبالغ التي تدفع للمنشد لتشجيعه على حسن الأداء، وهي في هذه المناسبة تعتبر

(١) السابق، ص ١٢٩ .

(٢) انظر: شهر في دمشق، لعبد الله بن محمد الخميس، ص ٦٧ .

(٣) الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة، ص ١٣٠ .

(٤) السابق، ص ١٠٦ .

(٥) انظر: السابق.

تحية لولي الله نفسه، حيث يعتقد بأن هذه النقوط هدية تُرَد إلى مقدمها من جانب الولي صاحب المولد، سوف يردها في شكل آخر، فينعم عليه بكثير من الهبات التي تتمثل في زيادة الدخل ووفرة المحصول وسداد الديون. . . »[١]، أما النشاطات الأخرى: فـ«يبدو الجامع كتلة من الأنوار المبهرة، وتنتشر السرادقات حوله في ساحته وفي المنطقة المحيطة به، وتظل المطاعم والمقاهي تستقبل روادها طوال أربع وعشرين ساعة، ومع غروب الشمس ليس هناك موطئ لقدم، ضجيج الميكروفونات يتصاعد من جميع السرادقات. . . روائح البخور والعطارة والشواء تتضوع في الأجواء، شوادر الحمص والحلوى بأنواعها تشارك بالإعلان عن بضاعتها في الضجيج العام، باعة الشاي على الأرصفة، وباعة المسابح والطراطير الملونة ولعب الأطفال. . . »[٢] . . فهي أنشطة حياتية متكاملة، وهذا ما أكده علي مبارك باشا، فيقول: «وفي هذه الموالد ما لا يخفى على أحد من المزايا والمنافع، كمنفعة من يكترى منهم الدواب أو المراكب أو سكة الحديد للمضي إليه والانصراف عنه، ومنفعة من يكون فيه من الفراشين والطباخين وغيرهم من أرباب الحرف والصناع وأصحاب الدور التي تكترى والأشياء التي تشترى، ثم ما يكون فيه من سعة التجارة، فإنا نرى كثيراً من التجار في طنطا وغيرها من سائر مدن مصر يعلقون أداء ديونهم وقضاء بعض شؤونهم على هذا المولد. . »[٣].

وبالطبع: فخلف كل نشاط جمهور من المتفعين الذين يحرصون على استمرار هذه الموالد التي تقام حول الأضرحة ضماناً لتدفق مورد رزقهم.

---

(١) هيام فتحي دربك، مصدر سابق، ص ٤٤ .

(٢) موالد مصر المحروسة، ص٥٠، وانظر: ص ٥١ ـ ٥٥ .

(٣) عن: (السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر)، لمحمد فهمي عبد اللطيف، ص ١٢٧ .

وأخيراً: فإن من العوامل الاقتصادية لاستمرار تقديس القبور والأضرحة: اهتمام بعض الدول بهذه الأضرحة باعتبار ما تدره الأنشطة المرتبطة بها وحصيلة صناديق نذورها والأوقاف التي توقف عليها. . . أحد الموارد الاقتصادية للدولة التي بها مثل هذه الأضرحة.

العوامل السياسية :

حرص كثير من الحكام والسياسيين من قديم الزمان على توظيف الدين (أو المظاهر الدينية) في توطيد أركان حكمهم واستمرار نظمهم السياسية أو الترويج لها ، وهكذا التقت مصالح السياسيين مع مصالح القائمين على الخرافة التي ألبسوها لباس الدين كذباً وزوراً ؛ يقول الباحث عمار علي حسن : «واستعراض تاريخ مصر منذ الفراعنة وحتى الوقت الراهن يشير إلى أن كل مرحلة خلقت لنفسها الوسائل التي تجذب الجماهير من طقوس دينية وفلكلور شعبي . . إلخ ؛ وذلك لدعم النظام السياسي القائم والتمكين لوحدة المجتمع واستقراره ، وقد التقى الحكام مع أصحاب النفوذ الديني وغيرهم على هذه القاعدة ، وكان المتصوفة من أصحاب السبق في هذا المضمار خاصة بعد الفتح الإسلامي لمصر ؛ فالإسلام كدين لم يكن طيِّعاً في يد الحكام ليستخدموه في الأغراض السياسية ؛ لذا : بحثوا عن الرجال الذين يطوعون لهم النصوص لتتوافق مع مسلكهم في الحكم . . »(١) .

وقد ظهر التوظيف السياسي للخرافة بارزاً في عصر دولة العبيديين (الذين أطلقوا على أنفسهم لقب الفاطميين) ؛ حيث كثرت الأضرحة وما صاحبها من طقوس واحتفالات تهدف إلى تدعيم حكمهم « حيث تعددت الاحتفالات

---

(١) الصوفية السياسية في مصر ، ص ٨٥ ـ ٨٦ .

بالموالد وكثرت ؛ وكانت الوظيفة المستهدفة والمقصودة هي العمل على نشر الدعوة الفاطمية وإلهاء الشعب عن التغيير الديني الذي يحدث في البلاد ، واستخدمت من الوسائل والأساليب ما يساعد على تحقيق هذه الوظيفة واستمالة الشعب لحب الفاطميين ، وقد استمر الهدف من إقامة الموالد لأسباب سياسية في عصر الأيوبيين والمماليك رغم اختلاف الظروف الاجتماعية »[١] .

ولكن يبدو أن إدراك الأيوبيين لأهمية هذا العنصر في الترويج للفاطميين دعاهم إلى إدخال تغيير نوعي في هذه الاحتفالات ، وهذا ما دعا الباحث عرفة عبده علي إلى القول « في عصر الدولة الأيوبية ، أبطلت كل مظاهر الاحتفالات الدينية ، فقد كان السلطان صلاح الدين يوسف يهدف إلى توطيد أركان دولته لمواجهة ما يتهددها من أخطار خارجية واقتلاع المذهب الشيعي بمحو كافة المظاهر الاجتماعية التي ميزت العصر الفاطمي »[٢] ، ولاشك أن هذا السبب السياسي هو أحد الأسباب التي دعت صلاح الدين إلى محاربة هذه البدع ، ولكن لا نظن أنه السبب الوحيد .

واستمر هذا التوظيف حتى من حكام وسياسيين غير منتسبين للإسلام ؛ «ولقد ذكر الجبرتي في أخبار الحملة الفرنسية على مصر أن الجنرال مينو وقف يعدد للمصريين ما أداه لهم نابليون من الخدمات ، وما كان في نيته أن يؤديه لهم ، فقال : (وكذلك كان مراده يا مشايخ ويا علماء أن يسفر الحج الشريف هذه السنة ، ويفتح زيارة طنطا لأجل حفظ مقام السيد أحمد البدوي »[٣] .

---

(١) هيام فتحي دربك ، مصدر سابق ، ص ٤٣ .

(٢) موالد مصر المحروسة ، ص ١١ .

(٣) السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر ، للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف ، ص ١٤١ .

مظاهر الدعم السياسي :

إذا نظرنا إلىٰ مظاهر التوظيف السياسي للأضرحة والقباب رأينا أنها كثيرة، تشمل : إنشاء القباب والأضرحة وتشييدها ، وإعمار الأضرحة وإصلاحها وتزيينها وإكرامها ، وتسهيل زيارتها وتنظيم الاحتفال بها ، والمشاركة الفعلية في هذه الاحتفالات ، وإليك بعض بيان لذلك :

فعن إنشاء القباب والأضرحة وتشييدها يذكر الباحث عمار علي حسن أن «في أوقات الحروب والمحن أدرك الحكام أن الناس يلوذون بالأضرحة طلباً لرفع البلاء ، فتوسعوا في بنائها بدعوىٰ أنها تنفيذ لرؤيا في منامهم . . »(١) .

ولعل من أوائل من أحدث هذا الأمر لأغراض سياسية ما قام به الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك سنة ٨٨ هـ ، حيث أدخل حُجَر أزواج الرسول (ﷺ) ـ وفيها قبره الشريف ـ إلىٰ المسجد النبوي ، ومازال هذا الانحراف عن السنة من أكبر الشبهات التي يدلي بها القبوريون حتىٰ اليوم .

وعلىٰ ذلك مضت سيرة كثير من الملوك والأمراء والولاة ؛ فأول من بنىٰ ضريحاً علىٰ قبر السيدة نفيسة بالقاهرة هو عبيد الله بن السري بن الحكم والي الأمويين علىٰ مصر (٢) ، وأول من أنشأ قبة علىٰ قبر النبي (ﷺ) هو السلطان قلاوون الصالحي ، بناها علىٰ حجرة النبي (ﷺ) سنة ٦٧٨هـ (٣) .

والسلطان سليم هو الذي بنىٰ القبة التي علىٰ قبر ابن عربي بدمشق ، وكانت من قبل كهفاً موحشاً (٤) ، والمسجد الموجود حالياً علىٰ قبر السيدة سكينة

---

(١) الصوفية والسياسة في مصر ، ص ٨٧ .

(٢) انظر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، للدكتورة سعاد ماهر فهمي ، جـ١ ، ص ١٢٦ .

(٣) انظر : تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة ، للإمام زين الدين أبي بكر المراغي ، ص٨١ .

(٤) انظر : شهر في دمشق ، لعبد الله بن محمد بن خميس ، ص ٦٥ .

في القاهرة يرجع إلى عهد الأمير عبد الرحمن كتخدا سنة ١١٧٣هـ [١] .

أما إعمار الأضرحة بالإصلاح والتزيين والإكرام ، فنذكر منه بعض ما يدل على المقصود من الدعم السياسي للقبورية : فالأمير عبد الرحمن كتخدا السابق ذكره « عمَّر (المشهد النفيسي) ومسجده ، وبنى الضريح على هذه الهيئة الموجودة . . وذلك سنة ١١٨٣هـ » [٢] ، ويذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٢٥هـ ، عن « عثمان أغا المتولي أغات مستحفظان » أنه قام بتجديد (مشهد الرأس) « وهو رأس زيد بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب (رضي الله عنهم) ويعرف هذا المشهد عند العامة بزين العابدين ، ويقصدونه صباح يوم الأحد ! »[٣] .

وعن جهود الدولة العثمانية في ذلك حدِّث ولا حرج ، فقد فاقت مصروفات الدولة العثمانية على ضريح الجيلاني في السنة الواحدة ما كانت تصرفه على الحرمين الشريفين أضعافاً مضاعفة [٤] .

« وقد ذكر النبهاني أن الدولة العثمانية قد أعفت أهالي البصرة من الرسوم والتكاليف ؛ احتراماً لصاحب الحضرة الشريفة ، يعني الزبير بن العوام (رضي الله عنه) ، وأن العثمانيين بنوا على ضريحه مسجداً ، وقامت والدة السلطان عبد العزيز بترميم وتكبير المسجد ، فصار جامعاً حسناً »[٥] .

والسلطان عبد الحميد الثاني ـ رغم جهوده المشكورة في الحفاظ على أراضي المسلمين ومحاولاته لوقف انهيار الخلافة الإسلامية ـ كان له من الخرافة

(١) انظر : مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص ١٠٣ .

(٢) السابق ، ص ١٢٧ .

(٣) عن : موالد مصر المحروسة ، ص ٥١ .

(٤) انظر : الانحرافات العقدية ، ص٣٠٨ .

(٥) الانحرافات العقدية ، ص ٢٩٢ .

نصيب ، فقد أمر واليه على البصرة ناصر باشا السعدون بتعمير (المراقد الشريفة) في البصرة بالعراق سنة ١٢٩٣هـ ، ثم في سنة ١٣٠٥هـ أمر بكسوتين لضريحي الزبير وعتبة بن غزوان من الحرير الأحمر المفتخر المطرز بالفضة . . . ، كما أهدى ستاراً حريريّاً مزركشاً بآيات قرآنية وضع على محراب ضريح الحسين بحلب بسورية وفرشت أرض قبليته بالطنافس الجميلة(١) .

أما (المشهد الحسيني) بالقاهرة فيذكر علي باشا مبارك ـ صاحب كتاب (الخطط التوفيقية الجديدة) ـ عنه أنه اعتنى به الأكابر والأمراء في كل عصر بعمارته وزخرفته وإعلاء شأنه (٢) ، وعن ضريح البدوي بطنطا بمصر يتحدث الجبرتي في تاريخه ذاكراً ما قام به علي بك الكبير ، فيقول : « ومن مآثره العمارة العظيمة بطندتا ، وهي : المسجد الجامع ، والقبة التي على مقام سيدي أحمد البدوي» (٣) .

وليست تلك الرعاية السياسية للقبور والأضرحة بإعمارها من التاريخ القديم فقط ، بل إنها ما زالت ممتدة في هذا العصر ، ففي عام ١٩٧٢م أهدى الرئيس الراحل السادات مقصورة جديدة لضريح أبي الحسن الشاذلي صنعت بدار الكسوة الشريفة بالقاهرة ، وفي عام ١٩٧٩م أعدت وزارة الأوقاف مشروعاً لتوسعة الضريح وتجديده (٤) .

ولم تقتصر هذه الرعاية على الإعمار ، بل امتدت **لتشمل تسهيل زيارة الأضرحة وتنظيم الاحتفال بها** ؛ فأصحاب الحكم في السلط بشرقي الأردن

---

(١) انظر : السابق ، ص ٢٩٢ ، ص ٢٨٨ .

(٢) عن : الانحرافات العقدية ، ص ٢٨٧ .

(٣) عن : السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر ، لمحمد فهمي عبد اللطيف ، ص ١٤٢ .

(٤) انظر : موالد مصر المحروسة ، ص ٦٤ .

اهتموا منذ زمن بإصلاح الطرق المؤدية إلىٰ مقام (النبي هوشع) وترميمها بعد أن كانت خربة وعرة [١] ، و « وزارة الأوقاف المصرية رأت أن تساهم بدورها في إحياء هذا التقليد (زيارة القبور والأضرحة) فشاركت في إحياء ذكرىٰ أصحاب هذه الأضرحة ـ التي يزيد عدد المشهور منها علىٰ الألف ـ بإقامة احتفالات في مواعيد معينة عرفت بالموالد »[٢] .

ومن ذلك : أنه « استعداداً لهذا المولد الكبير (مولد البدوي) الذي لا يفوقه في الاحتفال والجمع غير موسم الحج الشريف ، يجتمع في بداية سبتمبر من كل عام (قيادة المولد الأحمدي) المكونة من : محافظ الغربية ، ومديري الإدارات الحكومية ، وخليفتي السيد البدوي ، وشيخ الجامع الأحمدي ، من أجل تنسيق دور الأجهزة المحلية في اتجاهات محددة ، كتوفير المياه والكهرباء ، والحفاظ علىٰ الصحة العامة ، وتحقيق سيولة المرور ، وتشديد الإجراءات الأمنية ، والالتزام بالآداب العامة . . وتصدر التوجيهات الرسمية . . وفي النهاية : يظهر المولد وكأنه أعد دون تخطيط أو تعاون في سبيل إخراجه ، بل يذكر أن المولد تم بفضل (كرامات) السيد البدوي ! »[٣] .

ويتجاوز الدعم السياسي للقبورية تنظيم الاحتفالات وتسهيل الزيارات ليصل ـ في أحيان كثيرة ـ إلىٰ **المشاركة الفعلية في هذه الاحتفالات** : يقول الأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف : « ولماذا نرجع إلىٰ الوراء بعيداً ؟ . . ألسنا نرىٰ في هذه الأيام الحكام والوزراء وكبار رجال الدولة يقصدون إلىٰ مقام (السيد)

---

(١) المزارات في شرقي الأردن ، ص ٩٠٢ .

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون ، جـ١ ، ص ٤٤ .

(٣) موالد مصر المحروسة ، ص ٥٧ .

لتلمس البركات والنفحات وبذل الرعاية لضريحه ولأتباعه ، وكأنهم بهذا يؤدون قسطاً مما عليهم من الواجب نحو الشعب ؟ »[١] .

ويذكر العلامة أبو الوفا درويش خبراً ورد في الجرائد المصرية ، جاء فيه : « احتفل أمس بتغطية ضريح السيدة زينب حفيدة الرسول (ﷺ) بالكسوة الفضية الموشاة بالذهب ، وقد شهد الحفل فريق كبير من رجال السلك السياسي »[٢] .

ومن الشهادات الحية في ذلك تذكر الكاتبة هيام فتحي دربك أنه « قد تشارك الحكومة في هذه المواكب . . فيتقدم الموكب بعض رجال الشرطة الذين يركبون خيولهم ، وبعضهم يكون مترجلاً ، كما يحضر المولد عدد من رجال السلطة ، هذا بالإضافة إلى شيخ مشايخ الطرق الصوفية وأعضاء المجلس الصوفي . . »[٣] .

ومن هذه الشهادات يذكر الكاتب عرفة عبده أن (زفة) المولد النبوي بمدينة بورسعيد ـ ومثلها المدن الأخرى ـ تبدأ في التحرك « عقب وصول ركب محافظ بورسعيد إلى مسجد العباسي بشارع محمد علي ، حيث بدأت مراسم الاحتفال الرسمي بعد أداء صلاة المغرب »[٤] .

أسباب الدعم السياسي للقبورية :

إذا كان هذا هو الواقع ، فما هي الأسباب والدوافع وراء دعم السياسيين وأصحاب السلطة للقبورية ؟ . .

هناك دوافع عديدة وراء هذا الدعم السياسي للقبورية ، نذكر منها :

---

(١) السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر ، ص ١٤٣ .

(٢) الأضرحة وشرك الاعتقاد ، للدكتور عبد الكريم دهينة ، ص ٥١ .

(٣) موالد الأولياء في مصر ، المجلة العربية ، ع / ١٣١ ، ص ٤٤ .

(٤) موالد مصر المحروسة ، ص ٥٥ .

ـ **اعتقاد بعض السياسيين في الخرافة** : فالعثمانيون ـ أصحاب الدعم القوي للقبورية ـ اعتنقوا الإسلام على يد مشايخ الطرق الصوفية من قبل استقرارهم في آسيا الصغرى [١] .

ومن هؤلاء المعتقدين أيضاً : المماليك ، فالسلطان قايتباي ـ مثلاً ـ كان كثير الإعجاب بالبدوي والاعتقاد فيه « وقد زار ضريحه عام ٨٨٨هـ ووسع في مقامه وشيد له المباني العظيمة ، وقد كان السلطان قايتباي هذا يعتقد في الشيوخ والأولياء عامة ، وكان كثير الانجذاب إليهم والإقبال عليهم . . »[٢] .

وليس هذا الاعتقاد في الخرافة خاصّاً بالسياسيين القدامى فقط ؛ فالعصر الحديث يشهد أنظمة كاملة يعتقد أعضاؤها في الخرافة ، كما لا يقتصر أيضاً على السياسيين المنتسبين إلى الإسلام فقط ؛ فالفلكي المنجم حميد الأزري يرد على سؤال نصه « التقيتم شخصيات عالمية عدة طلبوا منك أن تقرأ طالعهم . . أمثال نيكسون وبن بللا وغيرهما . . هل يطلب منك حالياً بعض المشاهير ذلك؟» بقوله : « لا شك ! . . المعروف عني ـ وهذا ليس سرّاً أكشفه ـ أنني أقابل كثيراً من الشخصيات في العالم العربي ، أو في العالم بعامة . . » ويقول في الحديث نفسه : « على سبيل المثال : جاءني الرئيس الأمريكي نيكسون عندما وقعت فضيحة ووترجيت ، وطلب رأيي في بعض الحلول لهذه القضية . . وجاءني أيضاً الرئيس الأسبق للجزائر بن بللا ، وسألني إن كان له الحظ في العودة إلى رئاسة الجزائر . . »[٣] ، ومن المعروف أن الرئيس الأمريكي الأسبق (ريجان) كان يستشير عرافة مشهورة في كثير من شؤونه .

---

(١) انظر : الطرق الصوفية بين الساسة والسياسة . . . ، ص ٢٥ .

(٢) السيد البدوي ودولة الدراويش في مصر ، ص ١٤١ .

(٣) الحوار الأخير مع رئيس اتحاد الفلكيين العالميين ، مجلة الشروق ،ع / ٢٤٥ ، ٢٦ / ١٢/ ١٩٩٦م.

- ومن دوافع الدعم السياسي للقبورية : استمداد الشرعية :

ويظهر هذا الاستمداد للشرعية ممزوجاً باستمداد البركة عند المعتقدين في القبور والأضرحة ؛ فقد « اعتادت الدولة العثمانية أن تقيم في جامع أبي أيوب الأنصاري حفلة تقليد السيف ، (وهي حفلة تقام كلما ارتقى أمير من آل عثمان إلى عرش أجداده ونودي به سلطاناً ، فيذهب السلطان الجديد إلى هذا الجامع ويقلّد سيف عمر بن الخطاب في حفلة عظيمة تقوم مقام التتويج عند ملوك أوروبا ، وعند تقليد السيف يصلي ركعتين عند ضريح أبي أيوب الأنصاري)» .(١)

وفي المغرب « عندما تولى السلطان الحسن بن محمد (المتوفى سنة ١٣١١هـ) مقاليد الحكم في بلاده سارع إلى تقديم الذبائح إلى الضريح الإدريسي)(٢) .

ولا شك أن الشرعية الدينية للدول والأنظمة - مثلها مثل الشرعيات الأخرى ، كالشرعية التاريخية والدستورية والثورية . . - تعد إحدى أهم الدعائم التي تقوم عليها نظم الحكم ، فكيف ننتظر من نظام حكم أن يقوم بهدم دعائمه وتقويض أركانه ؟ ، لابد ما دام يعتقد أنه قام على هذه الشرعية أن يدعمها حتى ولو شكلاً وظاهراً ، وهذا ما يستغله القبوريون .

- ومن دوافع الدعم السياسي للقبورية : الدعاية السياسية والتأثير على الجماهير :

---

(١) الانحرافات العقدية ، ص ٣٥١ .

(٢) السابق ، ص ٣٣١ .

يقول الباحث علي بن بخيت الزهراني : « وكان كثير من الملوك والحكام في ذلك الزمن يلجؤون إلى عمارة تلك الأضرحة والإنفاق عليها ، ليس إيماناً بها بقدر ما كان إرضاءً لمشاعر الناس ، ومحاولة لكسب ولائهم والعمل على إلهائهم بتلك الأضرحة التي تعبد من دون الله (عز وجل) ، واطمئناناً على الأقل نتيجة لما كان يمارسه هؤلاء الحكام من ظلم وطغيان . . لقد كان ذلك علامة على صلاح وعدل من يفعله من الحكام والأمراء ؛ فمن كان منهم مكرماً للأولياء بزعمهم ، يبني الأضرحة على قبورهم ، ويشيد القباب عليها ، ويزور تربهم ويمرغ خديه على عتباتهم ، فهو الحاكم الصالح المحبوب عند رعيته ولو كان من أظلم الظالمين . . »(١) .

وما زالت الخرافة إلى الآن تستخدم لهذا الغرض ، جاء في تقرير لمجلة (الشرق الأوسط) عن حاخام يهودي يحترف الشعوذة : « ونظراً للنفوذ والتأثير الواسع لمثل هؤلاء المشعوذين على أتباعهم وزبائنهم يلاحظ أن القادة السياسيين في (إسرائيل) يحاولون استمالة هؤلاء الحاخامات والاستفادة من تأثيرهم لخدمة مصالحهم الحزبية ، خاصة خلال الحملات الانتخابية للبرلمان والمجالس البلدية والمحلية »(٢) ، ويقول الباحث عمار علي حسن : « كانت الصوفية على رأس القوى الدينية التي استخدمها النظام [المصري] في تبرير وتدعيم سياساته ، فحرص المسؤولون على حضور موالد الصوفية واحتفالاتها ، وخاصة المولد النبوي ومولد الحسين والسيدة زينب والسيد البدوي . . »(٣) .

ـ ومن دوافع السياسيين للقبورية : ضرب الاتجاهات الدينية المعارضة لهم ، فرغم إعلان السياسيين العلمانيين أن لا دين في السياسة ولا سياسة في الدين ،

---

(١) نفسه ، ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧ .

(٢) مجلة الشرق الأوسط ، ع / ٥٥٧ ، ٢٦ / ٢ / ١٩٩٧م .

(٣) الصوفية والسياسة في مصر ، ص ١٠٢ .

إلا إننا رأيناهم يدعمون القبوريين بانتهازية واضحة ، باعتبارها مظهراً من (مظاهر الدين) يمكن ضرب الصحوة الإسلامية به ، ؛ وذلك بسحب البساط من تحت أرجلها باعتبار (الدين) أرضيتها التي تنطلق منها ، يقول الباحث عمار علي حسن : « . . النظام الحاكم كان معنيّاً بدرجة كبيرة أن يقدم نفسه في صورة المدافع عن الإسلام في وجه جماعات (العنف والإرهاب) ودعاة (التطرف والخروج)، فالاستراتيجية التي تبنتها الحكومة لم تكن مقابلة أفكار الجماعات الإسلامية بأفكار علمانية ، ولكن كانت الخطة هي منافسة هذه الجماعات داخل مساحة الإسلام نفسها لتمييع الموقف وسد الطريق أمام هذه الجماعات . . ولذا : نجد أن الخطاب الذي واجه به نظام مبارك هذه الجماعات كان خطاباً دينيّاً أيضاً يعتمد على طرح ديني مغاير ، ويجعل الصراع بين الجماعات والحكومة ليس صراعاً بين الإسلام و (اللا إسلام) ، ولكنه صراع على تطبيق (الإسلام الصحيح) ، والذي يرى كل منهما أنه هو الذي يمثله .

على هذا الأساس خلقت الظروف الملائمة لتحالف النظام مع الصوفية ضد الجماعات الإسلامية ، فالنظام يلتحف بها باعتبارها طرحاً دينيّاً له مكانته لدى المصريين ليحس صورته أمام الرأي العام بأنه يعرف حدود الدين ، والصوفية تحتمي بالنظام من جماعات الإسلام السياسية التي تهدد الصوفية بحرق وتدمير الأضرحة وتسعى إلى تقويض أركان التصوف من منبعه . . ومن هذا المنطلق استمر المسؤولون في حرصهم على حضور الحفلات الصوفية المختلفة في كافة أنحاء مصر »[1] .

ـ ومن دوافع الدعم السياسي للقبورية : المنافع الاقتصادية التي تجنيها الدولة من وراء إقامة هذا الكيان والمحافظة عليه ، وقد مر سابقاً الحديث عن هذا الجانب .

---

(١) السابق ، ص ١٠٣ ـ ١٠٤ .

سيف السياسة .. بين نصرة الحق .. ومظاهرة الباطل

عبد العزيز مصطفى

عبادة الأضرحة والقبور شرك لا شك فيه، ومنكر عقدي، تتضاءل بجانبه ومقارنة به المنكرات العملية، فهو المنكر الذي ينبغي ألا تلين لأهل التوحيد قناة في إنكاره بالقلب واللسان واليد. . . والمنكر الذي لا يسع العامة السكوت عليه، ولا الخاصة التغافل عنه. . .

فهو يزداد ويقوى بضعف الإنكار وقلته، ويمحق ويضعف بقوة الإنكار وشدته. . . وواجب الإنكار هذا؛ ليس مفروضاً على الأفراد فقط، ولا هو مسؤولية الحكومات فحسب، بل هو واجب مشترك على كلٍّ بحسبه، وكل بمقدار استطاعته ووسعه.

والذي لا شك فيه أن قدرات الحكومات والدول على إنكار مثل هذه المنكرات - لو حصل - فإنه يكون أوقع للأثر المطلوب وأقطع لدابر الفتنة، وأمنع لذرائع الشرك، وهذا ما تعلمناه مما نسب إلى عثمان (رضي الله عنه): «إن الله يزع بالسلطان ما لا يزع بالقرآن» . . . وهذا تعلمناه أيضاً من درس التاريخ الذي يجمل لنا بمجموع قصصه حقيقة مؤداها: أن الحق لا ينتصر لمجرد أنه حق، بل لا بد من قوة تسنده وفئة تعاضده وأنصار يقومون به.

ولهذا لـمَّا شرع الله (تعالى) الجهاد قال: ﴿ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ٤] ، ولهذا أيضاً شرع الأمر بالمعروف

والنهي عن المنكر، وجعله عنواناً لخيرية الأمة المسلمة المنتصرة للحق. . ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ [آل عمران: ١١٠] ، فالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إذن وظيفة أمة، ومسؤولية أفراد ودولة، بل هو ألصق بالدولة في بعض الأحيان من الأفراد. فهذه الفريضة ـ أعني : الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ـ جزء من وظيفة الدولة في الإسلام، فهي ليست مجرد جهود شخصية من بعض المتطوعين أصحاب النوايا الحسنة، وليست أصواتاً تعلو فوق المنابر تخاطب البناء التحتي للمجتمع الذي لا يملك حولاً ولا قوة حيال المنكرات والمفاسد المدخولة. . . لا، ليس الأمر كذلك، ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن من أركان خطة الدولة في الإسلام، وهو الشعيرة التي تمثل الأرضية التي تنطلق منها السياسات التعليمية والإعلامية والاجتماعية وغيرها.

ومعلوم أن هناك منكرات لا تصلح لها جهود الأفراد، ولا هبَّات المجموعات، بل لا بد فيها من سلطة تملك، وقوة تتحرك، ودولة تتصرف، فتغيير مثل هذه المنكرات والتمكين للمعروف الذي يناقضها، هو أحد أغراض الولاية العامة، بل هو أهمها.

فالحكام إنما ينصَّبون في الإسلام لولاية الأمر، وهو الدين. والدين لا يقوم إلا بالأمر به والنهي عن ضده، يقول ابن تيمية (رحمه الله) «. . وولي الأمر إنما ينصَّب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، فإذا كان الوالي يمكِّن من المنكر، كان قد أتى بضد المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك، وبمنزلة من أخذ مالاً يجاهد به في سبيل الله، فقاتل به المسلمين»(١).

---

(١) مجموع الفتاوى، ٢٨/ ٣٠٣.

لا بد إذن من قوة تنصر الحق وتقمع المنكر، وهذا ما دل عليه القرآن أيضاً، في قول الله (تعالىٰ) : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ﴾ [الحديد: ٢٥]، «فالكتاب والميزان هما ما نُقل صدقاً، وما شُرِّع عدلاً لإقامة الناس علىٰ شريعة الحق اتباعاً للرسل، فمن أبىٰ جعل الحديد رادعاً لكل معاند بعد قيام الحجة»(١).

وإذا كان لا بد من إنكار المنكر والأمر بالمعروف، فإن أنكر المنكرات هو الشرك، كما أن أعرف المعروفات هو التوحيد، ولذلك كانت دعوة الأنبياء جميعاً في جوهرها أمراً بالتوحيد ونهياً عن الشرك. . . فقد قاوموا هذا الشرك بكل ما آتاهم الله من قوة في العلم والبيان والنطق واللسان والسيف والسنان.

وعندما نستعرض أخبار هؤلاء الأنبياء في تعاملهم مع واقع المنكرات العظيمة الموجودة في عصورهم، نرىٰ حقيقة ماثلة، تستلفت الانتباه، وهي: أن جهودهم في إحقاق الحق وإزهاق الباطل، كانت تحتاج دائماً إلىٰ نصرة، وأحياناً إلىٰ سُلطة، فبعض هؤلاء الأنبياء كان يأمر بالمعروف وينهىٰ عن المنكر بمفرده، أو مع فئة قليلة معه، كنوح وإبراهيم وهود وصالح، ومنهم من صارت له قوة وشوكة، وأنصار وسلطة، كيوسف وموسىٰ وداود وسليمان ومحمد (صلوات الله عليهم أجمعين) فهل كانت الدعوة العزلاء في الأثر، كدعوة الأقوياء؟! وفي المقابل: هل كان المنكر المنتصر بالقوة والمستعلن بالسلطان، كالمنكر المخبوء في أوكاره، والمتخفي بأفكاره؟!. . لا يستوون. .

---

(١) تفسير ابن كثير، ٤/ ٣١٥.

نأخذ مثالاً من دعوة نوح (عليه السلام) : لقد قام في وجه الشرك وحده، ودعا قومه إلى ترك الأوثان وهجرها، ولكنه لم يكن له من السلطان ما يغيِّر به منكرهم.. فماذا كان؟ ﴿ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلاَّ خَمْسِينَ عَامًا ﴾ [العنكبوت: ١٤]، ومع ذلك... ﴿ .. وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ [هود: ٤٠].

لقد كانت قوة الحق عزلاء في عهد نوح (عليه السلام) أما في عهد إبراهيم (عليه السلام) فقد واجه الباطل، وهو أعزل في مبدأ دعوته، وأقبل على تغيير المنكر بالوسائل الثلاث: بقلبه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الأنعام: ٧٩]، وبلسانه: ﴿ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٢]، وبيده: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلاَّ كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴾ [الأنبياء: ٥٨].

ونحن هنا نتحدث عن الأثر، وليس عن المشروعية، فلا شك أن ما قام به إبراهيم كان واجب الوقت، ولهذا قص الله علينا ما فعل في مقام الثناء عليه وعلى سيرته وهديه، وفي مقام الدعوة إلى التأسي به. ولكن السؤال هنا: ما الأثر العملي لدعوته (عليه السلام) قبل التمكين؟! لقد انتهت به إلى الهجرة.. أو التهجير، بل بذلت المحاولات في إيذائه أو قتله حرقاً، وانتهى الأمر إلى قول أبيه له ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴾ [مريم: ٤٦]، وبالفعل ترك إبراهيم تلك الأرض وهجرها مع ما فيها من أوثان لم تتحطم.. ﴿وَأَعْتَزِلُكُمْ وَمَا تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُو رَبِّي عَسَى أَلاَّ أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا ﴾ [مريم: ٤٨].

فإذا نظرنا بعد ذلك في تاريخ موسى (عليه السلام) وجدنا أنه قد أُعطي بعد النبوة سلطة وقوة على قومه. وكان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد من الشرائع التي تضمنتها رسالته... فماذا كانت ملامح واقعه قبل التمكين؟ لقد

كان مطارداً في شبابه ﴿ فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ ... ﴾ [القصص: ١٨] ، ﴿ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ ... ﴾ [القصص: ٢٠] ﴿قَالُوا أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِن بَعْدِ مَا جِئْتَنَا ...﴾! [الأعراف: ١٢٩].

ولم يحكِ لنا القرآن أنه تمكن من تغيير شيء من الواقع حوله قبل التمكين- إلا عن طريق المعجزات- . أما بعد ما مُكن، وكانت له الولاية على قومه من بني إسرائيل؛ فقد حارب الانحراف بقوة، وتصدىٰ للوثنية والداعين إليها بأشد ما يكون التصدي، ولم يتساهل مع بني إسرائيل عندما انحرفوا . . ﴿قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا * أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي ﴾ [طه: ٩٢، ٩٣] . . واستعمل سلطته في حماية جناب التوحيد، حتىٰ لا تكون للشرك قوة ولا صولة. . . فقال للسامري صانع العجل . . ﴿وَانظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَّنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا ﴾ [طه: ٩٧] .

وهكذا كان الشأن مع داود (عليه السلام) عندما تصدىٰ للوثنيين في الأرض المقدسة وقاتلهم بمن معه: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ ...﴾ [البقرة: ٢٥١] وأيضاً، لم يَدَع سليمان لأهل الشرك قراراً، حتىٰ في أرضهم وملكهم. . . ﴿أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ﴾ [النمل: ٣١] . . . ﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [النمل: ٣٧] .

وفي شريعة عيسى (عليه السلام) لم يكن ثَمَّ جهاد؛ لهذا فإنه اكتفىٰ بدعوة اللسان، ولم يدخل مع كفار بني إسرائيل في صراع . . والظاهر أن الله (تعالىٰ) لم يرد لهم الهداية قدراً، فقد آذنوا علىٰ الدخول في تيه اللعنة والغضب.

فإذا جئنا إلى رسالة النبي الخاتم محمد (ﷺ)، نراه يبطل الشرك منذ مبدأ

بعثته، ويسفِّه أحلام المشركين، ويحقِّر آلهتهم، لكنه لم يُعطَ في البداية إذناً بالتغيير، ولم يؤيَّد في مكة قبل الهجرة بالسلطان، ولهذا كان يأتي الكعبة عابداً ناسكاً. . . لا يستطيع أن يمس أصنام المشركين المحيطة بالكعبة، وفي سائر البلد الحرام، بل في سائر الجزيرة. ولكن. . . ماذا كان الأمر عندما مكَّن الله له، وجعل له السلطان على أهل مكة بعد الفتح. . .؟ إنه لم يتأخر عن تغيير المنكر الأكبر في مكة؛ فلم يكد ينتهي من صلاة الظهر يوم الفتح، إلا وهو يصدر الأمر بأن تكسَّر الأصنام وتحرَّق، وكان يشارك (ﷺ) بيده الشريفة في ذلك. .

لقد كان بمكة يومها من الأصنام ما يبلغ ثلاثمئة وستون صنماً، منها أصنام حجرية وأوثان شجرية، ولم تشرق الشمس بعدها على صنم يعبد في مكة ما دام للحق فيها سلطان.

ولقد استؤنفت المسيرة بعد ذلك في حرب الشرك والوثنية في كل الجزيرة العربية، حتى لا يبقى فيها ديناّن. . . وعندما بعث الرسول (ﷺ) علياً إلى اليمن كي يلي أمر أهلها؛ قال له: **«لا تذر قبراً مشرفاً، إلا سويته، ولا صورة إلا طمستها»** [1].

لقد كانت مظاهر الشرك والوثنية مقموعة ممنوعة في أرض الإسلام طيلة عهود الخير وقرون التفضيل، في عصور الصحابة والتابعين وتابعيهم، وهكذا ظل الأمر في كل عهد كان لأهل الحق فيه صولة ودولة.

فالحق يظهر دائماً بظهور أهله. . . ويخفى ويضعف بخفتهم وضعفهم. .

نحن في حاجة إلى أن نتجول في مسارب التاريخ ومدارات الزمن، لنستيقن

---

(١) أخرجه أحمد في المسند، ١/ ٩٦.

من هذا السَنَن، فلو ألقينا نظرة على سيرة المصلحين من أتباع الأنبياء، لوجدنا في قصصهم عظة كما أن في سير النبيين عبرة.

أمامنا نموذجان لدعوات رامت الإصلاح واستهدفت إقامة شعائر الدين، وجعلت التمكين للتوحيد غايتها ورايتها.

النموذج الأول: هو دعوة شيخ الإسلام أحمد بن تيمية (رحمه الله).

النموذج الثاني: هو دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب (رحمه الله).

أما دعوة ابن تيمية، فكما نعلم أنها جاءت في ظروف تاريخية حرجة، جابه سلطان الإسلام فيها أعظم الأخطار، فالمغول من بعد الصليبيين؛ واجهت الأمة بهم فتناً دهماء بكماء صماء، وقد ولد ابن تيمية (رحمه الله) في أيام حكم المماليك الذين كانت دولتهم تضم ما يمثل في عصرنا مصر وسورية ولبنان وفلسطين، وكانوا قوة لا يستهان بها في ذلك الوقت على الرغم من الضعف العام الذي انتاب بقية أجزاء العالم الإسلامي. وكان ابن تيمية مدركاً لطبيعة عصره، متفهماً لحقيقة الصراع، وكان على يقين بحاجة الأمة في مصر والشام إلى ولاية شرعية عامة، تقف وراءها لمواجهة الفتن، ولم يكن أمامه من يصلح لتمثيل تلك الولاية إلا المماليك، فقد رأى فيهم قوة للدين بالرغم من مثالبهم المتعددة، فأعطاهم تأييده المشروط، وهو: الطاعة في المعروف.

لقد استطاع هؤلاء المماليك أن يؤسسوا حكماً مستقلاً، فكانوا بذلك أملاً في الخروج من المحنة، ورأى ابن تيمية المصلحة في شد أزرهم وتقويم اعوجاجهم وتقويم الأمة بهم حتى تتعافى أمام الصعاب.

والمتأمل في سيرته (رحمه الله) يرى أنه كان يستمد من تلك السلطة العون ـ

بعد الله (تعالىٰ) - في إنكار المنكرات، ومواجهة أصحاب البدع والمحدثات، الذين زادوا الأمة ببدعهم وهناً على وهن.

وبالنظر إلىٰ عداوته الشديدة لهؤلاء وأمثالهم من الأحمدية والكسروانية والحشاشين، فقد «سعىٰ جاهداً لإزالتهم من الوجود، وحث السلطة علىٰ إبادتهم قدر الإمكان»(١).

وقد أعلن حرباً لا تعرف الهوادة ضد فكر الصوفية الغلاة، وخاصة (ابن عربي) الملحد، فلم يدخر وسعاً في تفنيد آرائه ونقض أفكاره، وكذلك إقناع الحكام بوضع حد لخدعه وبدعه وضلالاته التي كانت تسري في العامة سريان النار في الهشيم.

لقد رأىٰ ابن تيمية أن أوضاع المسلمين تسير نحو الأسوأ إذا ترك أمثال هؤلاء الذي يوجهون الأمة نحو الشعوذة والسحر والخرافة. . . بما ينتهي بهم إلىٰ ضروب من البدع الاعتقادية الشركية. . .

ولم يشأ أن يقصر جهده علىٰ مقاومة العدو الخارجي، بل كان علىٰ يقين أن عدو الداخل - من المنافقين - هو السند والمعين لعدو الخارج ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرْهُمْ﴾ [المنافقون: ٤].

لقد رأىٰ غلاةَ الصوفية يستغلون ضعف العلم والإيمان في طبقات من الناس فيغرونهم بأفكار عن وحدة الوجود ووحدة الشهود، وكرامات الأولياء ومنازل الأقطاب وقداسة الأضرحة والأعتاب. .

فتصدىٰ لهم وكان لهم بالمرصاد في دمشق ومصر.

---

(١) البداية والنهاية، ١٤/ ٣٧.

وقد كان من حسن حظ المسلمين في ذلك العصر، أن بعض الولاة - على الرغم من مثالب كثيرة عندهم - كانوا يكنون للعلماء احتراماً، ويمكنون لهم في دعوتهم، ويرون لهم حقاً في توجيه مسار الأمة. وكان ابن تيمية بدوره يعطي لهم ما أرادوا من الطاعة في غير معصية، ويستعين بهم - بعد الله (تعالى) - في إنكار المنكرات وإظهار الشعائر وإقامة الدين.

وكان يقول في ذلك: «يجب أن يُعرف أن ولاية أمر الناس من أعظم واجبات الدين، بل لا قيام للدين إلا بها» (١).

وكان يستصحب هذا المفهوم النظري في تطبيقه العملي، ففي عام خمس وسبعمئة، خرج ابن تيمية مع طائفة من جيش المسلمين، في صحبة نائب السلطنة، فساروا في بلاد تسيطر عليها طائفة غالية من الروافض، فغزوهم وانتصروا عليهم بإذن الله، وهلك كثير من فرقتهم الضالة وعاد نائب السلطنة إلى دمشق وفي صحبته ابن تيمية وجنود الجيش (٢).

وكان قد قام قبل ذلك بأمر من قبيل إنكار المنكر باليد، فذهب إلى مسجد يسمى (التاريخ) وعمد هو وأصحابه إلى صخرة مجاورة للمسجد على ضفاف نهر، كان الجهال يزورونها ويفعلون عندها الأفاعيل الشركية، فاصطحب معه حجَّارين، وتعاون هو وأصحابه معهم في تحطيمها وتقطيعها. قال ابن كثير: «فأزاح عن المسلمين شبهة كان شرّها عظيماً، وبهذا وأمثاله حسده الأعداء، وأبرزوا له العداوة»(٣).

---

(١) السياسة الشرعية، ص ٧٢.

(٢) البداية والنهاية، ١٤ / ٣٧.

(٣) االبداية والنهاية، ١٤ / ٣٦.

والنمـوذج الثـاني الذي سنعـرض له، هو نموذج دعـوة الـشـيخ محـمـد بن عبدالوهاب، فقد كانت الفترة التي عاصرها (مطلع القرن الثاني عشر الهجري) فترة انتكاس في الفطر، وارتكاس في العقائد، ذلك أن مظاهر الشرك الجلي قد ظهرت في مواطن كثيرة من بلاد الإسلام، وتمثل هذا الشرك في تحول فئام من الناس إلىٰ عبادة الأولياء والصالحين أمواتاً وأحياءً، فكل ما ينبغي أن يصرف لله (تعالىٰ) من العبادات القلبية والعملية، كان يصرفها أولئك للمقبورين بزعم أنهم كانوا صالحين، فاستغاثوا بهم في النوازل ونذروا وطافوا وتمسحوا بآثارهم ومدافنهم، بل تعدىٰ الأمر إلىٰ الشرك بالجمادات كالأحجار والأشجار.

وقد كان في بلاد نجد من تلك الانحرافات ما قض مضجع الشيخ وأنقض ظهره، فلم ير لنفسه عذراً في السكوت علىٰ هذا الشر المنتشر في الآفاق.

ففي (الجبيلة) كان الناس يقصدون قبر زيد بن الخطاب (رضي الله عنه) ويدعونه لتفريج الكرب وكشف النوب، فعكف الناس علىٰ عبادته، وصارت لعبادة تلك المقابر أعظم المنزلة في صدور الناس رغباً ورهباً، وكان في أسفل (الدرعية) غار كبير يزعم الجهال أن الله (تعالىٰ) شقه في جبل لإنقاذ امرأة من بعض الفسقة الذين أرادوها بسوء، فكان الجهلة يرسلون إلىٰ الغار - وهو أحجار - اللحم والخبز وصنوف الهدايا. وفي شعيب (غبيرة) كان الناس يأتون من المنكر ما لا يعهد مثله عند قبور الصالحين. وخاصة عند القبر الذي يزعمون أنه فيه (ضرار بن الأزور) وكانت طوائف من الخلق تأتي إلىٰ شجرة (الطرفية) فيتبركون بها، ويعلقون الخرق عليها إذا رزقوا ولداً لعله يسلم من الموت!.

هذا في بلاد نجد، أما في بلاد الحجاز، فلم يكن الأمر بأقل سوءاً من هذا، ففي مكة كانت تعلو الاستغاثات والأدعية عند قبر (أبي طالب) وقبر (المحجوب)

وكان تعظيم هذين القبرين يفوق تعظيم الكعبة عند كثير من الجهال؛ حتى إن السارق أو المعتدي أو الغاصب إذا لجأ إلى أحد هذين القبرين لم يتعرض له أحد بما يكره، أما إن تعلق بالكعبة فإنه يسحب فيها بالأذيال؛ تفريطاً منهم بحقها.

وكذلك كانت ترتكب الشنائع الاعتقادية والأخلاقية عند قبر ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين (رضي الله عنها) في (سَرِف) وكذلك عند قبر أم المؤمنين خديجة (رضي الله عنها) في (المعلاَّة).

وفي الطائف كان قبر عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) يُتخذ مزاراً يقف أمامه المكروبون مستغيثين، والخائفون متضرعين، وأصحاب الحاجة والمسألة داعين مسترزقين.

أما في المدينة النبوية - على ساكنها أفضل الصلاة والسلام - فقد خالف الناس سنته، واتخذوا قبره عيداً، وهو الذي برئ من ذلك وقال: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد»[١] .

ولكن تلك المظاهر الوثنية التي حذر الرسول (ﷺ) منها تسللت إلى جزيرة الإسلام، وأبت إلا أن تشوه نقاء التوحيد فيها، وحق على بعض أهلها قول الرسول (ﷺ): «لا تقوم الساعة حتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان»[٢] .

فتعددت البقاع التي يعصى فيها الله بتلك الموبقات. فإلى جانب ما ذكرنا كانت ذرائع الشرك تقام على نطاق كبير في الأماكن المحيطة بالمدينة، وفي المزارات التي تكثر فيها مقابر الصحابة، في قباء والبقيع وغيرها.

---

(١) أخرجه مالك في الموطأ ٨٥، وأحمد في المسند ٢ / ٢٤٦ .

(٢) اخرجه أبو داود، الفتن / ١، وابن ماجه، فتن / ٩، وأحمد، ٥ / ٢٧٨ .

أما في جدة، فقد بلغ الضلال والفحش غايته عند القبر المزعوم أنه لحواء (عليها السلام)، فكانت تجبى إليه الأموال كل عام، ويأكل السدنة عنده أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله [١].

وإذا كانت هذه بعض مظاهر الانحراف داخل الجزيرة العربية ـ مهد الإسلام ـ فما بالنا بما كان خارجها من الانحرافات؟!

المقصود هنا: أن مظاهر الانحراف في العقيدة عمت تلك الجزيرة إلا من رحم الله. ولكن لطف الله استنقذ الناس من هذه الوهدة بمحمد بن عبد الوهاب (رحمه الله) فقد قام بوجه الفتنة كأمة وحده، ونافح ودافع عن عقيدة التوحيد الخالص لينقيها ويصفيها من شوائب الشرك وأدران الوثنية.

ونتساءل هنا... أكان بوسع الشيخ أن يصمد أمام طوفان الانحرافات بمجرد كلمات وعظية أو خطب منبرية ونصائح وقتية فحسب؟! الجواب الذي لا شك فيه: أن لا!... إن محمداً بن عبد الوهاب (رحمه الله) قد سار وفق سيرة رسول الله محمد بن عبد الله (ﷺ) عندما قام يطلب النصير لدعوته: «من يحميني حتى أبلغ دعوة ربي»[٢]. وهذا ما سارت عليه كل الدعوات الإصلاحية في تاريخ أمة الإسلام بعد ذلك.

كان مبدأ تحرك الشيخ لمحاربة مظاهر الشرك عندما عرض على رئيس بلدة العيينة (عثمان بن حمد بن معمر) الدعوة، فاستجاب لها واتبعه عليها وناصره فيها، وألزم الخاصة والعامة أن يستجيبوا لها.

---

(١) راجع تاريخ ابن غنام، ص١٤، ١٦، ١٧.

(٢) أخرجه أبو داود، السنة/ ٢٠، والترمذي، ثواب القرآن/ ٢٤، وابن ماجه، مقدمة/ ١٣.

عند ذلك لم يجد الشيخ مناصاً من التحرك العملي بهؤلاء الأنصار لتغيير المنكرات الشركية، وبدأ بالعيينة نفسها، لقد انطلق مع نفر من الأتباع المخلصين فخلصوا العيينة مما كان فيها وحَوْلَها من القباب والمشاهد والمساجد المبنية على قبور الأولياء والصالحين، وكذلك قطعوا الأشجار التي كان الناس يعظمونها ويتبركون بها.

وكان الشيخ هو الذي تولى بنفسه هدم القبة المقامة فوق قبر زيد بن الخطاب، وسواها بالأرض امتثالاً للأمر النبوي لعلي بن أبي طالب (رضي الله عنه) عندما أرسله إلى اليمن.

ولقد كان لهذه الأعمال الإصلاحية وقع الصاعقة على المنتفعين بالانحراف في البلدان المجاورة، وخاصة أصحاب السلطان منهم، فلقد خافوا من تلك الدعوة وتأهبوا لمواجهتها، ولكن الشيخ لم يأبه بهم، وظل على سيرته في الدعوة العلمية والعملية، إلى أن انتكس والي العيينة بعدما هدده والي الأحساء، وطلب منه التخلي عن الشيخ. . هنا وجد الشيخ أن دعوة مثل دعوته لا يمكن لها أن تقبع داخل أسوار بلدة بعينها، لا العيينة ولا غيرها، فترك العيينة، وانتقل إلى (الدرعية) فوجد من واليها (محمد بن سعود) التأييد والنصرة، مما شجعه على المضي في دعوته . .

وهنا أمر لا بد من التنبيه عليه، وهو : أن الشيخ (رحمه الله)، وجد أن للقبورية الوثنية أنصاراً يدافعون عنها، ويتشبثون بها، ويظهرون كامل الاستعداد للذود عنها بالدم والروح بعد المال والجاه! ظهر له ذلك من موقف جمهرة الكبراء في البلدان المحيطة الذين بادروا دعوته بالعداء حتى قبل أن يسمعوها أو يفهموها! .

وهنا لم يعد الأمر متعلقاً بمظاهر من الانحراف تحتاج إلى محتسبين من الآمرين الناهين فقط، بل رأى هذا الانحراف واقعاً مستقراً، تقوم عليه مصالح، وتؤسس عليه زعامات ورئاسات تقاوم وتساوم عليه، بل تجاهد وتكابد من أجله.. فلم يكن بُد - والحالة هذه - من أن يواجه العناد بالجهاد، ولهذا انتقل الشيخ من مرحلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلى مرحلة الجهاد...!.

أجل.. «لقد بقي (رحمه الله) يدعو إلى سبيل ربه بالحجة الواضحة وبالموعظة الحسنة، فلم يبادر أحداً بالتكفير، ولم يبدأ أحداً بالعدوان، بل توقف عن كل ذلك ورعاً منه وأملاً في أن يهدي الله الضالين، إلى أن نهضوا عليه جميعهم بالعدوان وصاحوا في جميع البلاد بتكفيره هو وجماعته، وأباحوا دماءهم، ولم يثبتوا دعواهم الباطلة بالحجة من كتاب الله أو سنة رسول الله (ﷺ)، ولم يكتفوا بما ارتكبوه بحقه من الزور والبهتان، وما اتبعوه من وسائل لإجلائه وجماعته عن البلاد، ومطاردتهم بالتعذيب والاضطهاد، أجل، لم يأمر (رحمه الله) بسفك دم ولا قتال على أكثر أهل الضلال والأهواء، حتى بدأوه بالقتل والتكفير، فأمر الشيخ حينئذٍ بالجهاد، وحض أتباعه عليه فامتثلوا الأمر»[1].

لقد ظلت دعوة الشيخ ثابتة على هذه الخطا... تأمر بالمعروف وتمكن له، وتنهى عن المنكر وتتمكن منه وتقضي عليه... ففتح الله له ولأتباعه كثيراً من البلاد، ودان له ساكنوها من العباد، ذلك في حياته ومن بعد وفاته.

فالدعوة ظلت تتوسع يوماً بعد يوم، وتطهر بها أرجاء الجزيرة... ولم يتوقف هذا المد بوفاة الشيخ (رحمه الله) بل لقد فتحت الأحساء بعد أن مات

(١) تاريخ ابن غنام، ص ٨٩.

(عليه رحمة الله) وكانت الأحساء معقلاً لأعداء الدعوة وملاذاً لمحاربيها، وقد استعصت على الاستجابة لدعوة الشيخ طيلة حياته، ولكن بعد وفاته بعام دخلها المجاهدون، وأزالوا ما فيها من القباب المنصوبة فوق القبور، وسووها على النهج المشروع، وأقاموا شعائر التوحيد وأبطلوا ذرائع الشرك، وهكذا كان الأمر عندما فُتحت بلاد الحجاز، حيث شُرع في إعادة تشييد أركان الإسلام والتوحيد، على أنقاض القبور المسوَّاة والقباب المهدمة، والمشاهد المنكسة، وكل ذلك كان بعد وفاة الشيخ بنحو خمسة أعوام..

وهنا يحق للمرء أن يظهر العَجَب والإعجاب.. كيف طهر الله (تعالى) الجزيرة كلها مما ران عليها بدعوة رجل واحد.. قام بالحق فأقامه.. وطاول الباطل فأبطله؟!..

إن هذا في خطة السنَن، ونظام النواميس، أمر لا ينضبط إلا بنصرة من الله الذي يؤيد من يشاء بجنود الأرض وأسباب السماء.

﴿ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ * وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ﴾ [**الأنفال**: ٦٢، ٦٣].

وفي مقابل كل ما ذكرنا من الدلالات والشواهد على أن القوة السياسية لها أبلغ الأثر في إخماد الباطل ومنكراته العملية، نذكر بلمحات تدل على العكس، وهو أن القوة السياسية عندما تزيغ بها الأهواء، وتتفرق بها السبل عن الكلمة السواء... فإنها تنزل بكل ثقلها في خندق الباطل، لتساهم معه في تسديد سهام الشك والإيهام... ورماح الشر والشرك والحرام على قلوب العوام...!.

وفي تاريخ أمتنا من الشواهد على ذلك الكثير والكثير...

سنتجاوز تلك الدول التي قامت أصلاً على البدع والخرافات، وغرستها غرساً في أرض الإسلام، كالدولة العبيدية الرافضية (الفاطمية) وممالك الفرق الباطنية الأخرى كالقرامطة والإسماعيلية والحشاشين والبويهيين وغيرها.

ولهذا سنقفز فوق معابر التاريخ إلى العصور الحديثة... العصور التي يفترض أنها تناوئ الخرافة، وتناقض الشعوذة.. وتحارب الدجل.

هل نأت الثقافات عن الخرافات؟... هل تخلت السياسات في هذا العصر عن نصر الخزعبلات أو الاستنصار بها؟.

للأسف... إننا سنسمع من التاريخ الحديث حديثاً، لا يختلف عما أخبرنا به التاريخ القديم... فالحلف غير المقدس بين الخرافة والسياسة لا يزال قائماً... فكلاهما يخدم الآخر ويقايض به..

إننا سنبدأ بمرحلة متقدمة نسبيّاً في التاريخ المعاصر، وهي مرحلة الدولة العثمانية، خاصة بعد أن أصابتها أدواء الأمم، لقد زاد توغل واتساع الطرق الصوفية في تلك الدولة في مراحل انحدارها، مما كان له أثره الضار على شرائح كبيرة من المجتمعات الإسلامية التابعة لها في مصر والشام وبلاد المغرب والحجاز والعراق وغيرها، وزاد الطين بلة أن السلاطين العثمانيين كانوا يتخذون من مشايخ الطرق خاصة الطريقة النقشبندية مرجعية دينية، فظلت للصوفية هيمنتها وسيطرتها على العامة من الناس، وظلت للخرافة والبدع بذلك تأثيراتها عليهم.

استمر هذا حتى بعد سقوط الدولة العثمانية، حيث احتضنت سلطات الاحتلال الأجنبي الطرق الصوفية في البلاد التي بسطت سلطانها عليها.

وعمل بعض أولئك على رد الجميل للمحتلين، فكانوا يضفون الشرعية

على وجودهم يسوِّغون للناس بقاءهم، ووصل الأمر إلى أن بعض مشايخ الصوفية في مصر، قاموا بجمع توقيعات أثناء ثورة ١٩١٩م تطالب ببقاء الإنجليز في مصر! وكان من هؤلاء شيخ الطريقة (السمانية): محمد إبراهيم الجمل. لقد أدرك الإنجليز أن الطرق الصوفية تلعب دوراً مهمّاً من خلال مزاولة أنشطتها بين الطبقة العامة من الشعب، فالصوفية بدعوتها الظاهرية إلى الزهد وترك مباهج الحياة والانصراف عن الدنيا، يمكن أن تضفي الصبغة الدينية على موقف الخنوع والخضوع للمحتل الأجنبي بخلفيات قدرية اتكالية استسلامية، ولهذا حرصت سلطات الاحتلال في مصر وغيرها على إطلاق يد الطرق الصوفية في ممارسة أنشطتها، وقد ساعد على ذلك سيطرة سلطات الاحتلال على وزارة الداخلية مما مكنها بالتالي من السيطرة على تلك الطرق ومعرفة تحركاتها وأساليبها وتوجيهها إلى الوجهة التي تضمن للمحتل خدمات أكثر .

إن استدرار عواطف الشعوب وطبقاتهم العامة، لا يسهل الوصول إليه بطريق أخصر من هذه الطرق، فكما كان المحتلون يراهنون على جهود الصوفية في تخدير مشاعر الناس باسم التوكل والإيمان بالقدر وترك الدنيا وأهلها. فكذلك كانت القوى المناوئة للاحتلال تدغدغ العواطف برموز القداسة الموهومة، الموسومة لرجال من المتصوفة رفعوا إلى منازل الأولياء بل زادهم اتباعهم قداسة عن الأنبياء . . ! .

سنأخذ من مصر مثالاً على العلاقة بين السياسة والخرافة، وسنرى أنه كان في مصر - كما في بلاد كثيرة غيرها - ذلك الحلف غير المقدس بين هاتين القوتين.

لقد كانت الصوفية في عهد الملكية المصرية، تضفي طابعاً دينيّاً على المناسبات المتعلقة بالحكام، حتى تلك المناسبات الخاصة منها، فكان مشايخ

الطرق يعدون العدة مثلاً للاحتفال بعيد ميلاد الملك، الذي يبدأ من صلاة الفجر بالمواكب التي تجوب الشوارع بالرايات والشارات، وكانت المشيخة العامة تصدر منشوراً عاماً يوزع على الطرق في هذه المناسبة وتتصل بمأموري المراكز لحماية المواكب، وكانوا كذلك يحرصون على إحياء الذكريات الحزينة لوفاة من يموت من الأسرة الملكية، كذكرى اليوم السابع ويوم الأربعين، والذكرى السنوية الأولى والثانية والثالثة. . . إلخ. وكانت الطرق الصوفية بدورها تتلقى المكافأة على تلك المداهنة إلى حد يوصلها إلى المنزلة والقربى بل تتعداها أحياناً إلى السطوة والسيطرة على ساحة التوجيه.

ماذا كان يعني هذا النفوذ لهذه الطريقة أو تلك في أوساط المسؤولين السياسيين؟!.

إنه يعني - ضمن ما يعني - أن تبسط الحماية (الرسمية) على تلك الطرق ورموزها وأفرادها وأملاكها ومصالحها. . . وأهم من هذا وذاك: تؤمن لها طرق الانتشار الآمن في أوساط العامة. . والخاصة أيضاً! وهذه الحماية الرسمية لأرباب الصوفية؛ أحد الأسباب الرئيسة في انتشار الفكر الصوفي وتغلغله في بلد كمصر في ذلك الوقت. .

لا نستطيع أن نجزم بقناعة السياسيين الدينية بهذه الطرق في كل حال، ولكننا نجزم بأنهم كانوا يستفيدون منهم غاية الاستفادة، وفي أدق وأخطر المسائل المتعلقة بالسياسات العليا أحياناً.

ومن الأمثلة الصارخة على هذا: أن الملك فؤاد عندما تطلع إلى تولي منصب (الخلافة) في أعقاب إلغاء الخلافة العثمانية في تركيا، صدَّر لهذه المهمة الشيخ (محمد ماضي أبو العزايم) أحد مشايخ الطرق المشهورين في مصر في ذلك

الوقت . . ولكن جهود الملك لإعلان نفسه خليفة لم تكلل بالنجاح بعد ذلك، لأسباب كثيرة، منها تخلي أبي العزايم نفسه عن هذه الدعوة لصالح الملك فؤاد، وانتهى الأمر بوفاة الملك دون أن يحقق هذا الأمل. وجاء بعد فؤاد ابنه فاروق، وظلت آمال أبيه تداعبه، ومن أجل ذلك سعى لدى نقيب الأشراف في مصر في ذلك الوقت (علي أحمد البيلاوي) كي يبحث له عن أية وسيلة للربط بين أسرة محمد علي (الألبانية) التي جاء منها فؤاد وفاروق وبين النسب النبوي الشريف!!.

وبالفعل شكل نقيب الأشراف هذه اللجنة - وكان صوفيّاً - وجعل تلك اللجنة تحت إشرافه، وفي عضويتها جمع من مشايخ الطرق وبعض الأزهريين والشخصيات العامة وكان الهدف المعلن من تشكيل اللجنة إثبات نسب الأسرة المالكة بالنسب النبوي الشريف.

لم تكن الحكومات فقط هي التي تستعمل الصوفية مستغلة لها في كل أغراضها، بل كذلك كانت الأحزاب السياسية المعارضة، حتى ذوات الصبغة العلمانية الفجة منها.

فحزب الوفد العريق في علمانيته، كان يعتمد على بعض الطرق الصوفية لحشد التأييد الشعبي له، وكان من هذه الطرق (الطريقة البغدادية) وشيخها (سيد عفيفي البغدادي)، واستغل أيضاً الطريقة العفيفية وشيخها: (عبد العزيز عفيفي)، وهذه الطريقة تولى مشيختها بعد وفاة شيخها أحد أعضاء حزب الوفد وهو (أحمد الساكت)، وقد بذل زعيم الوفد (مصطفى النحاس) جهوداً لترشيح عضو الوفد (أحمد الصاوي) شيخاً لمشايخ الطرق الصوفية بمصر!.

ولما انتهى العهد الملكي في مصر، كان لضباط الثورة مواقف خاصة بهم

لضمان ولاء الطرق الصوفية لهم. . . لقد كانت الثورة تنظر نظرة عدائية لأي نشاط إسلامي حر، باستثناء الطرق الصوفية، حيث اعتبرتها أداة لفريق الثورة الذي كان يستهدف فرض الاشتراكية الإلحادية، لا في مصر وحدها، بل في المحيط العربي كله.

لقد أصبح منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية لا يتولاه أحد إلا بقرار جمهوري من الحاكم السياسي، وليس وفقاً للوائح التي ظلت سائدة تبعاً للمجلس الصوفي الأعلىٰ، وقد أعطت الثورة أحد أبرز رموزها من الضباط وهو (عبد الحكيم عامر) دور الإشراف علىٰ إصلاح نظام الطرق الصوفية، بحيث تصبح أكثر ملاءمة للعهد الثوري من جهة، وتتحول إلىٰ أداة في يد الثوريين ضد بقية الأنشطة الدينية من جهة أخرىٰ.

فبعد صِدام الثورة مع جماعة الإخوان المسلمين عام ١٩٥٤م، أدرك النظام أنه لا بد من إيجاد بديل يقدم للناس علىٰ أنه التدين الذي تقبله الدولة، فأقدم عبد الحكيم عامر علىٰ إقالة شيخ مشايخ الطرق المنتخب (أحمد الصاوي)، وعين (محمد محمد علوان) شيخ مشايخ الطريقة الخلوتية شيخاً عاماً للطرق الصوفية منذ أن طبقت لائحة المجلس الصوفي الأعلىٰ عام ١٩٠٣م. وتم هذا في إطار نظام إصلاح الطرق الذي تولىٰ عبد الحكيم عامر الإشراف عليه، وقد استسلمت جماهير الطرقيين للمصلح الجديد (عبد الحكيم عامر) واستكانت لتوجيهاته طوعاً أو كرها، خاصة بعد أن رأوا كيف فعلت الثورة بأكبر وأقوىٰ تجمع إسلامي في مصر، وهم الإخوان.

وأصبح للطرق الصوفية مجلة تصدر عن مجلسهم الأعلىٰ، وكانت شبه ناطقة باسم الحكومة، ومسوِّغة لكل إجراءاتها الثورية الاشتراكية.

لقد وجد كثير من الناس في الطرق الصوفية سبيلاً إلىٰ ممارسة التدين بطريقة مأمونة تحت المظلة الحكومية، فانتعش الوجود الصوفي الطرقي في تلك الحقبة، بكل ما يعنيه وما يترتب عليه من انتشار الخرافة والدجل والبدعة، التي لا يؤمن بها الثوريون أصلاً ولا بغيرها من قيم الدين الصحيحة، ولكنهم وجدوا في الصوفية ضالتهم إلىٰ إفراغ الإسلام من محتواه الإصلاحي الحقيقي، لتصنع منه خادماً لأصول الاشتراكية الثورية .

لقد اتسع انتشار الصوفية في بدايات عهد الثورة، حتىٰ إن المجلس الصوفي الأعلىٰ لم يكن بمستطاعه وحده أن يشرف علىٰ أنشطة الصوفية، فدفعت السلطة بحزبها السياسي الوحيد في ذلك الوقت وهو (الاتحاد الاشتراكي) لكي يستغل احتفالات الصوفية ونشاطاتها ليوزع المنشورات ويطلق الشعارات وربما الشائعات للدعاية للنظام .

وظلت السلطة مستمرة في دفع عجلة الصوفية للأمام علىٰ حساب الاتجاهات الدعوية الأخرىٰ، حتىٰ إنها صدَّرت رجلاً من رجالها وهو (أحمد رضوان) وأقحمته لرئاسة مشيخة الطريقة (الخلوتية) التي كانت تدعمها الحكومة أكثر من غيرها .

ولما توفي الشيخ الحكومي سنة ١٩٦٧م، بُنيَ له ضريح، ونسجت حوله الأساطير، وأسندت إليه الكرامات، والخوارق والمعجزات، التي ربما لم يُسمع عنها لغيره، وربما لم يعلم هو عنها شيئاً طيلة حياته .

وقد استمر الدعم الحكومي للطرقية بعد عهد عبد الناصر، حتىٰ أصبحت الطرق الصوفية ـ التي تقرب من الخمسين طريقة ـ هي النشاط الديني الوحيد التابع لرئاسة الجمهورية رأساً، وله ميزانيته الخاصة في الدولة .

وإمعاناً في تسويغ الصوفية وتلميع رموزها، تم تعيين أستاذ جامعي في منصب شيخ مشايخ الطرق الصوفية وهو (أبو الوفا التفتازاني)، واعتبرت الصوفية هذا تكريماً زائداً لهم، وعدُّوه رداً كافياً على خصومهم الذين يتهمون الطرقية بعدم العصرية والجهل مقارنة بالجماعات الإسلامية الأخرى... وهكذا أخذت الخرافة والدجل والشعوذة باسم الدين طابعاً (أكاديميّاً).. وإلى الله المشتكى!!.

دمعـــة علـــى الإســـــلام

مصطفى لطفي المنفلوطي (١)

كتب إليّ أحدُ علماء الهند كتاباً يقولُ فيه إنه اطلع على مؤلف ظهر حديثاً بلغة «التاميل»، وهي لغة الهنود الساكنين بناقور وملحقاتها بجنوب مدراس، موضوعه: تاريخ حياة السيد عبد القادر الجيلاني، وذكرُ مناقبه وكراماته، فرأى فيه من الصفات والألقاب التي وصف بها الكاتب السيد عبد القادر ولقَّبه بها صفات وألقاباً هي بمقام الألوهية أليق منها بمقام النبوة، فضلاً عن مقام الولاية، كقوله: «سيد السماوات والأرض» و «النفَّاع الضرَّار» و «المتصرِّف في الأكوان» و«المطلع على أسرار الخليقة» و«محيي الموتى» و«مبرئ الأعمى والأبرص والأكمه» و «أمره من أمر الله» و«ماحي الذنوب» و «دافع البلاء» و «الرافع الواضع» و «صاحب الشريعة» و«صاحب الوجود التام».. إلى كثير من أمثال هذه النعوت والألقاب (٢) !!.

ويقول الكاتب: إنه رأى في ذلك الكتاب فصلاً يشرح فيه المؤلف الكيفية التي يجب أن يتكيَّف بها الزائر لقبر السيد عبد القادر الجيلاني يقول فيه: «أول ما يجب على الزائر أن يتوضأ وضوءاً سابغاً، ثم يصلي ركعتين بخشوع

(١) كاتب وأديب مصري مبدع، وهو في هذا المقال يعلق على موضوع القبور والأضرحة بوجهة نظر الفرد المسلم الذي يحز في نفسه ما آل إليه حال بعض المسلمين، وهو من كتاب (النظرات) تحقيق: مجيد طراد. (البيان)

(٢) للتعرف على شخصية الجيلاني يراجع كتاب: (الشيخ عبد القادر الجيلاني: آراؤه الاعتقادية والصوفية) للدكتور سعيد بن مسفر بن مفرح، وهو رسالته للدكتوراة وتعتبر بحثاً قيماً في بابه. (البيان).

واستحضار، ثم يتوجَّه إلى تلك (الكعبة) المشرفة، وبعد السلام على صاحب الضريح المعظم يقول:

«يا صاحب الثقلين، أغثني وأمدَّني بقضاء حاجتي وتفريج كربتي. أغثني يا محيي الدين عبد القادر، أغثني يا ولي عبد القادر، أغثني يا سلطان عبد القادر، أغثني يا بادشاه عبد القادر، أغثني يا خوجة عبد القادر».

«يا حضرة الغوث الصمداني، يا سيدي عبد القادر الجيلاني، عبدك ومريدك مظلوم عاجز محتاج إليك في جميع الأمور في الدين والدنيا والآخرة».

ويقول الكاتب أيضاً: إن في بلدة (ناقور) في الهند قبراً يسمى «شاه الحميد» وهو أحد أولاد السيد عبد القادر ـ كما يزعمون ـ وأن الهنود يسجدون بين يدي ذلك القبر سجودَهم بين يدي الله، وأن في كل بلدة من بلدان الهنود وقراها مزاراً يمثل مزار السيد عبد القادر، فيكون القبلة التي يتوجه إليها المسلمون في تلك البلاد، والملجأ الذي يلجؤون في حاجاتهم وشدائدهم إليه، وينفقون من الأموال على خدمته وسدانته، وفي موالده وحضراته ما لو أنفق على فقراء الأرض لصاروا أغنياء.

هذا ما كتبه إليَّ ذلك الكاتب؛ ويعلم الله أني ما أتممت قراءة رسالته حتى دارت بي الأرض الفضاء، وأظلمت الدنيا في عيني، فما أُبصرُ مما حولي شيئاً حزناً وأسفاً على ما آلت إليه حالة الإسلام بين أقوام نكروه بعدما عرفوه، ووضعوه بعدما رفعوه، وذهبوا به مذاهب لا يعرفها، ولا شأن له بها!.

أيُّ عين يجمل بها أن تستبقي في محاجرها قطرةً واحدةً من الدمع، فلا تريقُها أمام هذا المنظر المؤثر المحزن، منظر أولئك المسلمين، وهم ركّع سجَّدٌ

على أعتاب قبر ربما كان بينهم من هو خيرٌ من ساكنه في حياته، فأحرىٰ أن يكون كذلك بعد مماته!.

أي قلبٍ يستطيعُ أن يستقرّ بين جنبي صاحبه ساعة واحدة، فلا يطير جزعاً حينما يرىٰ المسلمين أصحاب دين التوحيد أكثر من المشركين إشراكاً بالله؛ وأوسعهم دائرة في تعدد الآلهة، وكثرة المعبودات!.

لِمَ ينقُمُ المسلمون التثليث من المسيحيين؟ لِمَ يحملون لهم في صدورهم تلك الموجدة وذلك الضغن؟ وعلامَ يحاربونهم؟ وفيم يقاتلونهم وهم لم يبلغوا من الشرك بالله مبلغهم، ولم يغرقوا فيه إغراقهم؟.

يدين المسيحيون بآلهة ثلاثة، ولكنهم يشعرون بغرابة هذا التعدد وبعده عن العقل، فيتأولون فيه، ويقولون إن الثلاثة في حكم الواحد. أما المسلمون فيدينون بآلاف من الآلهة، أكثرها جذوع أشجار، وجثث أموات، وقطع أحجار، من حيث لا يشعرون!.

كثيراً ما يضمر الإنسان في نفسه أمراً، وهو لا يشعر به، وكثيراً ما تشتمل نفسُه علىٰ عقيدة خفية لا يحس باشتمال نفسه عليها. ولا أرىٰ مثلاً لذلك أقرب من المسلمين الذين يلتجئون في حاجاتهم ومطالبهم إلىٰ سكان القبور ويتضرعون إليهم تضرعهم للإله المعبود، فإذا عتب عليهم في ذلك عاتب، قالوا: إنا لا نعبدهم، وإنما نتوسل بهم إلىٰ الله، كأنهم يشعرون أن العبادة ما هم فيه، وأن أكبر مظهر لألوهية الإله المعبود أن يقف عباده بين يديه ضارعين خاشعين، يلتمسون إمداده ومعونته، فهم في الحقيقة عابدون لأولئك الأموات من حيث لا يشعرون.

جاء الإسلام بعقيدة التوحيد ليرفع نفوس المسلمين، ويغرس في قلوبهم

الشرف والعزة والأنفة والحمية، وليعتق رقابهم من رقِّ العبودية، فلا يذل صغيرهم لكبيرهم، ولا يهاب ضعيفهم قويهم، ولا يكون لذي سلطان بينهم سلطان إلا بالحق والعدل. وقد ترك الإسلامُ بفضل عقيدة التوحيد ذلك الأثر الصالح في نفوس المسلمين في العصور الأولىٰ، فكانوا ذوي أنفة وعزة، وإباء وغَيْرة، يضربون علىٰ يد الظالم إذا ظلم، ويقولون للسلطان إذا جاوز حده: قف مكانك، ولا تغلُ في تقدير مقدار نفسك، فإنما أنت عبد مخلوق لا رب معبود، واعلم أنه لا إله إلا الله.

هذه صورة من صور نفوس المسلمين في عصر التوحيد. أما اليوم وقد داخلَ عقيدتَهم ما داخلَها من الشرك الباطن تارة والظاهر أخرىٰ، فقد ذلت رقابهم وخفقت رؤوسهم، وضرعت نفوسهم، وفترت حميتهم، فرضوا بخطة الخسف، واستناموا إلىٰ المنزلة الدنيا، فوجد أعداؤهم السبيل إليهم، فغلبوهم علىٰ أمرهم، وملكوا عليهم نفوسهم، وأموالهم، ومواطنهم، وديارهم، فأصبحوا من الخاسرين.

واللهِ، لن يسترجع المسلمون سالف مجدهم، ولن يبلغوا ما يريدون لأنفسهم من سعادة الحياة وهناءتها، إلا إذا استرجعوا قبل ذلك ما أضاعوه من عقيدة التوحيد، وإن طلوع الشمس من مغربها، وانصباب ماء النهر في منبعه، أقرب من رجوع الإسلام إلىٰ سالف مجده، ما دام المسلمون يقفون بين يدي الجيلاني كما يقفون بين يدي الله، ويقولون للأول كما يقولون للثاني: «أنت المتصرف في الكائنات، وأنت سيد الأرضين والسموات».

إن الله أغيرُ علىٰ نفسه من أن يسعدَ أقواماً يزدرونه، ويحتقرونه، ويتخذونه وراءهم ظهرياً؛ فإذا نزلت بهم جائحة، أو ألمت بهم ملمة ذكروا

الحجر قبل أن يذكروه، ونادوا الجذع قبل أن ينادوه.

بمن أستغيث؟ وبمن أستنجد؟ ومن الذي أدعوه لهذه الملمة الفادحة؟ أأدعو علماء مصر وهم الذين يتهافتون على «يوم الكنسة»[(١)] تهافُتَ الذباب على الشراب؟ أم علماء الآستانة وهم الذين قتلوا جمال الدين الأفغاني[(٢)] فيلسوف الإسلام ليحيوا أبا الهدى الصيّادي شيخ الطريقة الرفاعية؟ أم علماء العجم وهم الذين يحجون إلى قبر الإمام كما يحجون إلى البيت الحرام؟ أم علماء الهند وبينهم أمثال مؤلف هذا الكتاب؟ .

يا قادة الأمة ورؤساءها! عَذَرْنا العامة في إشراكها، وفساد عقائدها، وقلنا: إن العامي أقصر نظراً، وأضعف بصيرة من أن يتصور الألوهية إلا إذا رآها ماثلة في النصب، والتماثيل، والأضرحة والقبور؛ فما عذركم أنتم وأنتم تتلون كتاب الله، وتقرؤون صفاته ونعوته، وتفهمون معنى قوله (تعالى): ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥]. وقوله مخاطباً نبيه: ﴿قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ [الأعراف: ١٨٨] . وقوله: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾﴾ [الأنفال: ١٧]؟ .

إنكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم: «كل خير في اتباع من سلف، وكل شر في ابتداع من خلف» فهل تعلمون أن السلف الصالح كانوا يجصصون قبراً، أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أن واحداً منهم وقف

---

(١) يوم يذهب فيه علماء الدين إلى ضريح الإمام الشافعي للتبرك بكنس ترابه.

(٢) على الرغم مما لجمال الدين الأفغاني من جهود في خدمة الإسلام إلا إن عليه مآخذ وأخطاء عظيمة. انظر: (جمال الدين الأفغاني) للدكتور علي عبدالحليم محمود. ولمعرفة من هو (أبو الهدى الصيادي) انظر: موسوعة أهل السنة، لعبد الرحمن دمشقية. (البيان)

عند قبر النبي (ﷺ) أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته، يسأله قضاء حاجة، أو تفريج هم؟

وهل تعلمون أن الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين، والصحابة والتابعين؟ .

وهل تعلمون أن النبي (ﷺ) حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل، نهى عنها عبثاً ولعباً، أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأي فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور ما دام كل منها يجر إلى الشرك، ويفسد عقيدة التوحيد؟ .

والله، ما جهلتم شيئاً من هذا ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة، فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخربون دياركم، والله شديد العقاب.

الأمــل مع العمــل

لقد تجولنا بكم إخواننا القراء في هذا الكتاب ، اطلعتم من خلاله على شؤون وشجون في هذا الموضوع بعد تحرينا الحقيقة والبحث عن مصادرها الموثوقة .

نعم . . قد تبدو الصورة قاتمة ، وهي بالفعل كذلك في بعض أجزائها ، وقد يبدو أن الجرح الذي أحدثته الخرافة في عقل الأمة عميق ، ولا شك أن له امتداداً طوليّاً وعرضيّاً في تاريخ الأمة وواقعها ، وقد يبدو أن المرض مزمن وعلاجه صعب ؛ ولاشك أن الأمور الجسام تحتاج إلى جهود عظيمة غير عادية في طبيعتها وفي حجمها .

ومع كل ذلك فإننا نعتقد أن الصورة التي أبرزتها مشاركات الكُتَّاب المشاركين ليست صورة كلية ، بل هي جزئية مجهرية اقتضتها فنون التشخيص التي لا بد من اجتيازها للوصول إلى العلاج الناجع لأحد الأمراض التي سرت في الأمة .

وتستكمل هذه الصورة بأن سوق الخرافة كان ـ ولا شك ـ أكثر رواجاً وانتشاراً في الماضي القريب ، فبعد عقود من جهود دعوية (غير منظمة وغير مركزة!) تشكك كثير من معتقدي الخرافة في معتقداتهم ، إضافة إلى صفوف من شباب الصحوة نبذ الخرافة كليّاً وحمل لواء محاربتها .

ولذا : لا بد أن يُستحضَر في الذهن حقيقة أن المظاهر والممارسات الخرافية التي أوجدها ابتداع الأضرحة والعتبات المقدسة تقل في الأماكن والأزمنة التي ينشط فيها الدعاة إلى الله على بصيرة .

وهذا ينقلنا إلىٰ نقطة تالية، وهي: أن التغيير لا يتم تلقائيّاً ولا يحدث بالأماني، ولكنه يحدث بالفعل والعمل؛ فـ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ [الرعد: ١١]، وفضلاً عن كون أصحاب هذه المعتقدات لن يغيروها من تلقاء أنفسهم، فإن أئمة الخرافة والمتنفعين من وراء رواجها لن يَكِلُّوا في الدفاع عنها والترويج لها.

ولذلك كله: فإننا نرىٰ أن الأمل موجود، ولكن تحقيقه معقود ببذل الجهد والإخلاص من كل مسلم لإنقاذ هؤلاء التائهين في دروب الخرافة والوهم، بدءاً من أئمتهم وانتهاءً بدهمائهم وعوامهم.. و«**لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من أن يكون لك حُمْرُ النَّعَم**» [أخرجه البخاري].

ويتعين علىٰ العلماء العاملين الذين هم ورثة الأنبياء أن يولوا أمر نشر التوحيد ومحاربة الشرك أولىٰ اهتماماتهم؛ فالتوحيد أصل الدين ورأسه، فينبغي تقديمه علىٰ كل معروف وتقديم النهي عن ضده (الشرك) علىٰ كل منكر، وهذا ما وجه به رسول الله ﷺ حين بعث معاذاً إلىٰ اليمن: «.. فليكن أول ما تدعوهم إليه: عبادة الله (عز وجل)..» [أخرجه البخاري ومسلم].

وفق الله الجميع إلىٰ العلم النافع والعمل الصالح.

الفهرس